الحوزة العلمية رائدة التجديد

HAWZA OF NAJAF LEADER IN INNOVATION

موسوعة

العلامة الشيخ محمد رضا المظفر

المجلد السابع

سير وتراجم نجفية

المجتهد المجدد

الشيخ محمد رضا المظفر

تحقيق وتعليق

الدكتور محمد جواد الطريحي

موسوعة العلامة الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره)

الكتاب: سير وتراجم نجفية.

تأليف: العلامة الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره).

اعداد وتحقيق: الدكتور محمد جواد الطريحي.

الإشراف العام: اللجنة التحضيرية

التدقيق اللغوي : موفق هاشم الرحال

الاخراج الطباعي: علاء سعيد الأسدي.

التصميم: محمد قاسم عرفات.

الهاتف: ٧٦٠٢٣٢٣٨٠٠ ٩٦٤+

Web: www.h-najaf.iq

الطريحي، محمدجواد محمدكاظم كاتب، ١٩٥١-

موسوعة العلامة الشيخ محمد رضا المظفر قدس سره / تاليف الدكتور محمد جواد الطريحي. -الطبعة الاولى - .[كربلاء، العراق] : العتبة العباسية المقدسة : مؤسسة بحر العلوم الخيرية، ١٤٣٧ هـ = ٢٠١٦.

١٠ مجلد : صور ؛ ٢٤ سم. (الحوزة العلمية رائدة التجديد)

المصادر.

المحتويات : المجلد ١. المجتهد المجدد الشيخ محمد رضا المظفر (١٣٢٢-١٣٨٣ هـ) -- المجلد ٢. عقائد الامامية -- المجلد ٣. شرح كتاب المكاسب للشيخ الانصاري : البيع والخيارات / اعداد وتحقيق جعفر الكوثراني العاملي -- المجلد ٤. أصول الفقه – المجلد ٥. المنطق – المجلد ٦. الفلسفة الإسلامية / اعداد السيد محمد تقي الطباطبائي التبريزي -- المجلد ٧. سير وتراجم نجفية -- المجلد ٨. من وحي الفكر : مقالات . خطب . دراسات . حوارات -- المجلد ٩. ديوان الشيخ محمد رضا المظفر (١٣٢٢-١٣٨٣ هـ) / محمد رضا القاموسي -- المجلد ١٠. البحوث المشاركة في المؤتمر الدولي حول التجديد في فكر الشيخ محمد رضا المظفر (قدس سره).

١. المظفر، محمدرضا بن محمد بن عبدالله، ١٣٢٢-١٣٨٤--الاثار العلمية. 2. المظفر، محمدرضا بن محمد بن عبدالله، ١٣٢٢-١٣٨٤---نقد وتفسير. ٣. العلماء المسلمون---الشيعة الامامية--تراجم.

الف. العنوان. ب. السلسلة

BP80.M954 T8 2016

مركز الفهرسة ونظم المعلومات

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سورة يوسف ١٢: ١١١

تقدمة

لقد كان من حسن الطالع أن يصدر هذا الكتاب في طبعته الثانية؛ ليأخذ محلّه اللائق في الموسوعة المظفرية، ومنها هذا الجزء الذي تضمّن لوحات نمقها الشيخ بريشته الرائعة تصويراً جميلاً حاضراً في الزمان والمكان؛ لمناسبة استذكار لرجال عاشوا لمبادئهم أكثر مما عاشوا لأنفسهم.

وبالرغم مما كانت مناسبة الكتابة التي سطر الشيخ رحمه الله بها مقالاته إلاّ أن الهدف الرئيس الذي قصد تحقيقه يسمو في اهتماماته لتوجيه قضية مركزية يسمو لها في الإصلاح والتربية، ومن هنا نعلم أنه أوقف نفسه للتأكيد على مصلحة عليا تتركّز في المعطيات الفكرية لتقويم السلوك الإنساني، وبالأخص لما تشهده مجتمعاتنا الشرقية ومحافلنا الدينية إشعاراً منه أن إحياء ذكريات الرجال مناسبة لإعادة الثقة وتأسيس بناء قويم للشخصية الرائدة التي تحمل الإبداع والنبوغ والجدة والموضوعية، وتخلق جيلاً مؤهّلاً لتنمية التطوّر ورفد الذهنية الإنسانية بالعطاء الإيجابي فيما تُقدّمه من رؤى وأفكار للفرد والمجتمع.

ولا يعزب عن القارئ النابه لهذه التراجم أن منشئها من الأمثلة الصادقة بسيرته وسريرته، فقد عاش حياته مثالاً حياً للمثل العليا والقيم الخيّرة والسجايا الفاضلة وخلدته أعماله وأفكاره وقد أحسن من قال:

المـرء بعـد المـوت أحـدوثـة ... يـفـنـى وتـبـقـى مـنـه آثـاره
وأحسـن الأحـوال حـال امرئ ... تـطـيـب بـعـد المـوت أخـبـاره

ولابد من الإشارة – لولا سرعة تقديم الكتاب للمشاركة بالمؤتمر التكريمي للشيخ المظفر – لاستطعت إدراج هوامش مهمّة، على أن محاولاتنا لم تزل قائمة من أجل الحصول على ما يناسب موضوعه من التراث المظفري، بهذا الصدد اطلعت مؤخّراً على مشاركته بتأبين المرحوم السيد عيسى كمال الدين فوجدت الإشارة إلى خطاب مرتجل لم يدون بتأبين الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء و كلمته بحق السيد محمد علي بحر العلوم، وكذلك بذكرى الشيخ صالح نعمة والشيخ محمد حسن المظفر والحاج عبد المحسن شلاش...

وبالختام ندعو الله العلي القدير ان يتفضل علينا بالتسديد والتوفيق لما فيه رضاه.

محمد جواد الطريحي

٢٠١٦/٢/١

بين يدي الكتاب

تعدّدت الفنون الأدبية في صور الإبـداع الذهني الذي جسدته أقلام المؤّلفين والكتاب في مجالات عدّة اتخذت أشكالاً وملامح توافرت فيها دراسات اختصّت بالكشف عن سير وتراجم أعلام وشخصيات تركت بصمتها على الواقع المعرفي وأثرت في الأحداث والبيئات التي عاشت فيها ثم تخطّت معالم الزمن بحساباته المحدودة إلى مستوى التطلّع في مرآة مستقبل الأجيال اللاحقة بعدها بقرون حتى بلغت عالم الحاضر المعاش لتساهم في تنمية طموحاته وتوجّهاته الفكرية.

إن تسجيل خلود الذكر لم يأتِ من فراغ بل هو من سنن الله في خلقه لما فيه من بيان قيمة الإنسان وتكريم منزلته بين أصناف الخليقة ومن مقاييس التوازن الذي جعله الرب أساساً لمنهج التكامل في مسيرة الإنسانية على الأرض.

وقد دأبـت أجيال من الأفاضل في أزمـان وأمكنة وأمـم متعدّدة على السعي والتخصّص في مجال تدوين سير الأعلام وتراجمهم، وتنوّعت مستويات الاهتمام من حيث الإطناب والاختصار والتنوّع في سرد المعلومات بحسب مصادر الاستفادة والعناية بصحة المعلومة وأهمّيتها كما تضمّنت بعض المدوّنات في الإفاضة بطرح مسائل علمية وفكرية أو أدبية أو استعراض أحداث ووقائع إما بسبب تداعي المعاني أحياناً أو إن الباحث رغب بتسجيلها لغاية أو لغير ذلك.

ومن المعلوم أن العلماء المسلمين كان لهم الاهتمام الوافر بالمصنّفات الرجالية التي هي محل عناية أعلام الفقه الإسلامي في تمحيص رواة الأحاديث الشريفة والبحث في

أحوالهم لمعرفة درجات عدالتهم ووثاقتهم وطبقتهم في نقل رواية الحديث.

ونتيجة لأهمية هذا البحث فقد تأسّس علمَي (الرجال والدراية) الذي عدّه العلماء من مقدّمات الاستنباط الفقهي؛ لتمكين المؤهّلين لنيل درجة الاجتهاد من معرفة أحوال الرواة في تقرير الأحكام وصياغتها.

كما تعرض البعض من المؤرخين في ثنايا موسوعاتهم إلى سير الأعلام والشخصيات إشادة بدور عطائهم الفكري وتنويهاً لنوعية ما أضافوه من ثمار المعرفة وتثبيتاً لتطبيق دعوة الأسوة الحسنة.

ومن الطبيعي أن تحظى سير وتراجم الرجال بالإثارة لأن غاية الاستذكار هو الاعتبار الذي يعد من السنن الربانية التي أكّد عليها القرآن الكريم في حكمة الوجود لما فيها من ديمومة الحياة وصلاحها، ومن هذا المبدأ القويم بدأت رحلة الإصلاح في منهج الأنبياء وأئمة الهدى والصالحين من أتباعهم حيث تسنّموا ريادة الدور التأسيسي في مهمّة النجاح الظافرة بخطوات الإصلاح المتواصلة من أجل التكامل الإنساني.

ودأبت حركة الإصلاح الاجتماعي بسعي أعلام الأمة لاقتناص الفرصة المؤاتية بتسديد مراحل الإصلاح للفرد والمجتمع على مستويات متعدّدة ومنها مناسبات إحياء ذكريات رجال العلم والفكر لاستلهام الدروس وتقويم النفوس نظراً لما تتّصف به هذه الذكريات من رؤى عمليّة حيّة يستفيد منها الناس ويدركوا أهميتها.

وما أحوج عالمنا المعاصر اليوم إلى استجلاء النظر وتعميق العبر من حياة الرجال الصفوة والإفادة من مناهج سيرة حياتهم لتقويم السبل والوقوف على المعطيات الرائعة التي تجسّدت معالمها على الواقع العلمي والفكري.

وقد احتضنت مدن العالم وحواضره العلم والعلماء وشهدت اهتمام أبنائها بتمجيد سير الأعلام وأساليب تكريمهم بإقامة الاحتفالات والندوات والمؤتمرات وتقديم

الدراسات والبحوث لاستجلاء صور العطاء الذي تجلى من خلال نتاج المبدعين في مؤلفاتهم وسيرتهم الأخلاقية.

أما مدينة النجف الأشرف فقد اعتادت أن تحتفي بتكريمها للنخبة من أعلام الدين وحملة المعارف الإنسانية والوطنية وأصحاب الشرف والوجاهة، حيث تلألأ تاريخها الغابر والحاضر بلمعان كواكب أضاءت عبر جليل أعمالها ومحاسن سيرتها وروائع تضحياتها فكانت وما تزال السيرة والمسيرة منهم حيّة خالدة تنهل من روافدها معيناً ثرّاً لا ينضب رغم دواهي الظروف العاتية وعوادي الزمن الصعب، لنراها شامخة تستطيل قامتها فتغذّي ركب السائرين على الهدى بجاذبيّتها نحو الخير والاستقامة على القيم الخيّرة والمبادئ الحقّة.

وحين نكتشف أن (المدينة الحُلُم) سجّلت طلائع المبادرة في هذا الصدد لمسيرة الوفاء والعناية بهذه التقاليد المحمودة وهي تقوم بذلك بما تراه واجباً، فقد أدرك أبنائها طبيعة ما تؤديه بحق فضلاء أعلامها – في حياتهم وبعد مماتهم – تقديراً لعطائهم الفكري بعيداً عن النظر إلى هوية الدم والأصل والبلد والعشيرة بل أصبحت سمتها انعقاد مجالس الأفراح والأتراح حيث ينبري الأدباء والشعراء إلى المساهمة في إضفاء التكريم للعلماء الذين استحقوا سمة الامتياز قولاً وعملاً بما أبدعوا فيه من مضمار أخلاقي وروحية شفّافة وقلوب شغفت بالعلم وتعاطيه درساً وبحثاً وتدريساً وتأليفاً يشهد به تاريخها الحضاري عبر التواصل المعرفي الممتد بها من أعماق قرون سحيقة في التاريخ الإنساني حتى اليوم.

وفي إطار ذلك نقدم ببالغ التقدير والاعتزاز صحائف رائعة أملتها خلجات أفكار وسوانح خاطرات وعى مصاديقها القلب الكبير للمجتهد المصلح المجدد الشيخ محمد رضا المظفر(قدس سره) بما عرف عنه من سعة الصدر التي تجاوزت حدود المألوف

بأذهان النخبة من أعلام الفضيلة ولما تمتلك شخصيته من الفهم الحصيف لأحداث عصره وخبرته الدقيقة المنبثقة من حرصه وايمانه وإدراكه لدخيلة ما يعتلج في صدور معاصريه وسمو نفسه التوّاقة إلى تحقيق طموحه لأداء دوره الإصلاحي وبما حقّقه من ترسيخ قواعد رصينة لمؤسسات ثقافية وتربوية وبما دأب عليه في سيرته القلميّة وهو يكتب دراسة أو بحثاً أو خطاباً من أفكار ومتبنّيات قدّمها بسطور من الأداء الفني حين خطّها بمداد قلبه المعذّب بحال ما كانت – إذا لم تكن اليوم أتعس! – تعيشه ثقافة الانغلاق في مجتمعه العام والخاص بما شاعت من عادات سلبيّة مقيتة أكّدت له سعة وعيه وعزيمة بالغة لهمّته وطموحه في السعي لمعالجة الأمر بإدراك ما يصلح عوالم حواضر العلم من سدّ الحاجة الملحّة إلى دروس التهذيب الأخلاقي واقتناص الفرصة الذهبية للحفاظ على بقيّة الخير والصلاح والـورع الذين تحظى بهم أروقة الدرس ويتّصف بهم سلوك المحصّلين وما يتمثّل بسمة الأدب في الحوار لخلق جيل صالح من طلاب العلم الابرار.

وسيرى القارئ اللّبيب في الصفحات التالية آهات شجيّة من هموم وآلام صاغها الشيخ المظفر عن واقع لا يرقى لحال واعدة بالتصحيح والإصلاح نحو الأفضل وقد صاغها في رؤية مستقبليّة دلّت على بعد نظره بحماسة وشجاعة للإفادة من معطيات المنهج الثر للمدرسة الرساليّة لأهل البيت عليهم السلام.

ومن الجدير بالدارسين ملاحظة بحوث الكتاب من حيث دقّتها في التحقيق والمتابعة في الوقوف على مفردات خصائص الأعلام الذين كتب عنهم وأشار للتنويه بصفة نوعية ما يتعلق بكل منهم من سيرة أو خلق أو هدف رئيسي وأثبت بالأرقام أحياناً بعض الإحصائيات التي قام بها شخصياً أو قدّم شهادات توثيقية لبعض الحوادث والوقائع إلاّ أن الطابع العام هو النزعة الإصلاحية والاستفادة من الأخطاء

وتجاوز السلبيّات ولذا تعدّ بنات الأفكار التي أثبتها محطّات هامّة يرسمها في صيغة التكريم وإحياء الذكرى ويضعها أساساً لمعالم انطلاقة لتصحيح الواقع المعاش.

وإذ حالفنا اليوم التوفيق بإصدار هذا الكتاب وهو جزء مما شارك به الشيخ المظفر بما كتب أو خطب بمناسبة أو غيرها تكريماً أو استعراضاً لحياة صفوة مباركة من أعلام النجف تتبعنا المنشور منه في الصحف والمجلات وما ورد في الكتب الصادرة بذكراهم أو ما قدّمه لنا بعض الأفاضل.

ومن الحق الذي يقال إن للشيخ (رحمه الله) مشاركات أخرى لم نطّلع عليها لسبب أو لآخر داعين الله التوفيق للإتمام مستقبلاً وأن يتقبّل بمنّه هذا العمل الجليل الذي يستحق ما وسعنا في سبيله من فسحة العمر والمتابعة لإنجاز (الموسوعة الكاملة للشيخ محمد رضا المظفر قدس سره) بعون الله وتسديده.

وكان اختيار العنوان لهذا الجزء بسبب اختصاص موضوعه بأعلام انتسبوا لمدينة النجف الأشرف وتخرّجوا من جامعتها العلميّة سيرة وثقافة نجفيّة – على اختلاف عصورهم – وكانوا بحق رموزاً صادقة للمثل العليا والقيم الروحيّة التي تمثّلها هذه الحاضرة المعطاءة.

ولا يخفى أن المحتوى بتمامه قد دوّنه الشيخ بقلمه، وكنت حريصاً مع نفسي بأن أجد في تراثه الخالد ما يناسب الكتاب وموضوعه كمقدمة – بقلمه كذلك – إلى أن وفّقت أخيراً لاختيار ما سجّله المظفر في التقديم لكتاب مالك الأشتر للمرحوم السيد التقي الحكيم[1]، فشكرت الله على هذه السعادة لما يتضمّنه من معطيات المنهج المظفري في كتابته للسير والتراجم بما يعد شهادة صادقة وفراسة معهودة منه للمقام العلمي

(١) السيد الحكيم (١٣٣٩ – ١٤٢٣هـ) من أعيان تلامذة الشيخ المظفر ورفيق دربه لإكمال مسيرته في المنهج والأسلوب.

الذي تسنّمه السيد الجليل ونبوءته بتواصله لإتمام ما بدأ به (قدس سرهما) مع إفاضاته بالتحدث عن إنشاء المؤسسات التربويّة التي كانت له المساهمة الكبيرة في إشادتها ورعايتها.

وبقدر ما في الكتاب من الإمتاع والمؤانسة لاستذكار الأيام السعيدة الخوالي للجيل الذي عاشه المظفر إلاّ أن الجدوى الأساسية لنشره هي معرفة الهدف الأسمى الذي قصده – رحمه الله – باعتباره يقف في طليعة الناهضين بمهمّة الإصلاح التربوي والديني والاجتماعي وقد كان بمستطاعه وهو يكتب أو يشارك في تخليد أي شخصية أن يمرّ مرّ الكرام ولكنّه – كما سيرى القارئ – بذل جهداً وجهاداً من أجل غاية كريمة يعد بها (مظفراً) في حياته وبعد مماته رغم معاناته ومكابدته شأن أقرانه من الروّاد الرساليّن، فقد سجّل انتصاراً لترسيخه دعامة القيم الخيّرة لبناء العقل الإسلامي المعاصر على أسس قويمة من الشعور بالمسؤولية وإحقاق كلمة الحق وإشاعة روح التفاني والتضحية ونكران الذات والصراحة والصدق في القول والعمل.

وما نقدمه اليوم يمثل إضمامة نفيسة ضمت دراسات وخطب بمناسبات أو بغيرها للتعرف على ملامح العطاء الفكري لشخصيات[١] جاد بهم الزمان وانعكست سيرتهم على مسيرة مجتمعهم بغية السعي والنهوض لإنقاذ الواقع من عوامل ضعفه وانهياره إلى مستوى الرقيّ والسموّ لحياة العزّ والمنعة، إضافة إلى ريادة الشيخ ونجاحه في تطوير الحوزات العلمية والمساهمة العملية بتحديث المقرّرات الدراسيّة [٢] لمناهج دراسات العلوم الإسلامية وآداب اللغة العربية من أجل بناء شخصيّة الطالب الديني روحياً واجتماعياً وأخلاقياً.

(١) وغيرهم الكثير ممّن رحلوا وانتهى بهم لحد بعيد الجيل النجفي الأصيل الذي يحمل الوفاء بتكريمهم ولو ببنت شفة فما أقسى القدر.

(٢) ومن مصاديق ذلك تأليفه كتابي المنطق وأصول الفقه واعتمادهما منهجاً إلى اليوم في التدريس.

وندلف الآن إلى استقراء كتابنا والوقوف على بعض ما يعبّر عن منهجه بالنقاط التالية:

١. للمظفر ميزة عامّة في تدوينه من السير والتراجم لما يرسمه بصورة فنية لمعالم الشخصية محل الحديث وإبراز نواحي هامّة تعنى بأهداف مركزية قصد إثباتها فيما يتوخّاه لتعزيز منهجه الإصلاحي للفرد والمجتمع، فأصبح بهذا الطابع يوظّف معطيات الأفكار في مجال استذكار ثمرات ما اتّصفت به الشخصيات موضوعة الدراسة وتأثيرها على الواقع المعاش بما فيه من الإشكاليات والمحن الاجتماعية والأخلاقية، ونجده في كثير مما قرأناه يطفح بالألم الممض والحسرة الحزينة نتيجة وحشته من الفراغ الذي حدث بسبب موت إنسان فاضل أو بداعي ما قدّمه من معان نوعية من الأفكار والمحاولات الجادة وجسّده من استقامة في سلوكه بعيداً – في الاستذكار – عن الإطناب بالعواطف الباردة والرؤى الجوفاء والصنمية[1] التي شاعت عدواها في مجتمعاتنا المعاصرة!

٢. امتازت الدراسات بتقصيه للحقيقة والتتبع الدقيق فتراه يبذل جهده في الاستقصاء باحثاً عن معطى جديد يوظفه في عملية التجديد بتدوين الخطاب التاريخي، ثم بعد أن يتأكد من صحة النتائج التي توصل إليها فلا يتوقف عن إبداء رأيه بصراحة متناهية في موضوع تطرق إليه أو قضية بحثها وهذا مما يدل على قوة شخصيّته وسموّ إيمانه بالانتصار إلى الحق مهما كلفه اعتقاداً منه بأنه لا يصح إلاّ الصحيح مؤسساً موقفه على عدم تلقّي المعلومات والأخبار استقبال المسلّمات لأنه يدرك جيداً أن أدواته التحقيقية وآليات تحريه عن الشخصيات ومواقفهم سليمة النوايا كريمة المقصد بعيدة عن التزلّف والخداع والتطفّل على حساب الآخرين، وهذه حقيقة واقعة يفهم مصاديقها من عرف

(١) يعد الشيخ المظفر من أوائل جيله الذين بادروا بإصدار مؤلفاتهم بأسمائهم المجردة دون ذكر الألقاب الطنّانة ربما سبقه بذلك المرحوم الشيخ الجواد البلاغي (قدّس سرّه) الذي لم يثبت اسمه على كتبه التي أصدرها في حياته.

سيرة المظفر الذاتيّة وتربيته الأسرية وما خلقت فيه من طموحات وغايات نبيلة.

٣. نكتشف فيما دونه المظفر أطروحته المعرفيّة التي تدلّ على طول باعه في العلوم الإسلامية وآداب اللغة العربية حيث نجده في معرض حديثه عن الجانب التاريخي والأدبي والعلمي وتقصّيه أبعاد الزمان والمكان وتأثيرهما في الأحداث وانطباعها في روحيّة من ترجم لهم وأثرها في صياغة الشخصيّة وتكوينها.

وتلك غايته التي تفانى من أجل تحقيقها حيث شهدت حياته تضحياته الغالية سواء بما دون أو أسس من صروح تربويّة وثقافيّة [1] تخرّجت منها أجيال من روّاد المعرفة وأفاضل الأساتذة غطّت مساحة واسعة من البلاد الإسلاميّة والعربيّة وغيرها.

٤. لم نجد المظفّر فيمن كتب عنهم بمناسبة أو دونها ممن يتحيّن الفرصة ليكون خطيب مناسبات أو ليقال من ذا قالها! حاشاه لمثل ذلك بل كان – حسب استقرائي وتتبعي – يحمل هموماً كبيرة دفعت به إلى قصد الغاية التي يدرك أنه سيبلغها في دراساته وبحوثه ومساعيه ولذلك يجب على جيلنا أن يتفحّص مسؤوليته تجاه المظفّر وأمثاله من القادة الرواد والاستفادة من حكمة البحث في حياتهم والإفادة من مستوى ما توصّلوا إليه من معطيات ونتائج والبدء من النقطة التي بلغوها وانطلاق المسيرة إلى حيث نغتنم فرصة الفوز بالنتائج الإيجابية المطلوبة لا كما يجري في الساحة اليوم! بتعطيل جهود من كان له قصب السبق ومصادرة عرفانه وعامة ما يشهده واقعنا الاجتماعي

(١) ومنها مدارس منتدى النشر التي تأسست منذ عام (١٣٥٦هـ – ١٩٣٦م) ثم مثيلاتها من مدارس حديثة منتشرة في عدّة مدن عراقيّة كالكاظميّة والشاميّة والبصرة والحلّة وكربلاء وكلية منتدى النشر (١٣٦٣ هـ – ١٩٤٣م) التي استمرت إلى قيام نظيرتها كليّة الفقه (١٣٧٦ هـ– ١٩٥٧ م) واستمرّت حتى إلغائها وبعد انهيار النظام السابق (عام ٢٠٠٣) أعيدت بعنوان (كليّة الفقه الجامعة).

كما تم تأسيس المجمع الثقافي الديني لمنتدى النشر سنة ١٣٦٣ هـ . و قد أدّت مشاريعه رسالتها بتخريج صفوة من قادة الفكر في العراق وخارجه وكان لمؤلفاته وافكاره صداها في تنمية الخطاب الإسلامي الحديث .

والديني والفكري والإداري بتغليب المنافع الشخصيّة وطلب الوجاهة والألقاب الزائفة.

٥. يتصف المنهج المظفري بما يحكي بعد النظر الذي يقيسه بميزان الزمن الآتي لتوقي المحذور ورفد الساحة العلمية بما تستلزمه من طاقات بناءة وهي فراسة يتوسّمها لشعوره بالمسؤولية في قراءة مستقبليّة ربما لا تتوفر إلاّ لبعض قليل النظير ممن يتمتعون بقوّة البصيرة والنفوس المطمئنّة وسلامة الذات والورع والعفاف، ومصداقها طهارة المولد والنشأة الكريمة وقد ورد بالأثر النبوي «**اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله**»[١].

٦. نستفيد من العرض المتقدم أن الشخصية المظفريّة نسيج لوحدها وإن اتصف ببعض سماتها قلّة من نوادر الرجال، فإذا كانت المحصّلة كذلك فلا غرو بالقول المأثور أنّه (أمّة في رجل) وهي حقيقة يعلمها رجال الحق والانصاف.

وحسب من لا يرتضي ذلك؟! أن يتحرّى بمصداقية ودقّة وخشية من الله فيكتشف رجل المرحلة، اللّهم إلاّ أن نصنّف الرجال بحسب مداركهم المعرفيّة واختصاصاتهم النوعيّة ومدى تأثيرهم في مجالي الزمان والمكان وهذه سنّة إلهيّة ولا بدع أن نقول: كم ترك الأول للآخر مع حساب طبيعة التطوير والتحديث في مسيرة الإنسان.

وأعتقد يقيناً إن التوفيق الذي حالف المظفر كان لإخلاصه وثقته وإيمانه الصادق بالله تعالى وبالقضية التي تملكت قلبه بما تستحقه من فناء وإقدام وعزيمة وثبات والأهم بعد ذلك إنه استطاع أن يصوغ بصمته في مدار الزمن الخالد[٢].

---

(١) الحديث برواية أبي سعيد الخدري. أنظر وسائل الشيعة للحرّ العاملي ودلائل الإمامة للطبري والاحتجاج للطبرسي كما أخرجه الحافظ بن عبد البر في الجامع ورواه الترمذي في سننه. والفراسة لغة: المهارة التي تعرف بواطن الأمور من ظواهرها، واصطلاحاً: خاطر على القلب وهي من مقامات الإيمان وخواصّه.

(٢) في عام ١٤٢٢هـ صادفت الذكرى المئويّة لولادة الشيخ المظفر فراسلت مجموعة من عارفي

وفي مسك الختام نود الوقوف عند هذه الإلمامة المختصرة في تقديم الصفحات التي سطرها الشيخ المظفر المعروف بنتاجه الموسوعي الذي يعد محطات معرفيّة رائعة نستطيع من خلال الاطلاع عليها التعرّف على شخصيّته العلميّة واتجاهاته الفكريّة ليكون أمثولة للطليعة الواعية من رجال العلم والفكر والنهضة في هذا البلد الأمين الذي يتطلّع للمزيد من العطاء والتضحية وتجديد الثقة بالنفس ورعاية الإرث الحضاري للمدينة العلوية المقدسة، مع التنويه إلى أن ترتيب الدراسات جاء عموماً وفق تاريخ وفيات الأعلام لنقف على أهمية المدى الزمني بين الماضي القريب وحاضرنا اليوم في إطار ما يعرضه المؤلف (رحمه الله) من متبنّيات وأفكار.

ختاماً أبتهل إلى العلي القدير أن يحالف التوفيق كل العاملين المخلصين فيما تسمو إليه النفوس الواعية لاستلهام دروسها التربوية وسلوكها الرسالي من هدى الكتاب والعترة الطاهرة، والإفادة من سير وتراجم الرجال المخلصين ما يضمن الظفر بمعترك الصراع العقيدي في خضم ظروفنا الراهنة وما ينتج خطوة لإصلاح الحال بولادة جديدة لمجتمع سليم من عوارض الأنانية والمصلحة الشخصية.

ولا أنسى الإشادة بما بذله ولدي العزيز (علي) وفقه الباري لمراضيه من المتابعة

فضله وتلامذته لإحياء هذه الذكرى وأصدرت كرّاسة مختصرة لمحطات من حياته وانعقدت ندوة حضرها وساهم فيها صفوة من الأعلام والفضلاء في بيت المرحوم الحاج حسين الشاكري (١٣٤٤ – ١٤٣٠هـ) في مدينة قم المقدسة وكانت مبادرة وفاء رائعة في زمن جفاف الوفاء وحسبنا بذلك مرثية تلميذه المرحوم الدكتور الشيخ أحمد الوائلي بقوله:

آمنت أنك ماخضت اللهيب لكي ... تمتد ذات ويجنى الدرهم اللبد
أو يحلب الضرع في لهو وفي دعة ... لا هون أن قام خطب فيهم قعدوا
أو أن تتيه بألقاب وغاشية ... ونائل وحياة كلّها رغد
وعشت والجو فيه ألف عاصفة ... ترب غرساً وينسيك العنا الجلد
حتى نماك سجل الخالدين إلى ... رهط إلى غير وجه الله ما قصدوا

الجادة في جوانب فنّية وغيرها حرصاً على الإنجاز بهذه الحلة الجميلة.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[١]

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[٢]

محمد جواد الطريحي

أقلّ خدمة الروضة الحيدريّة المقدّسة

غرة شهر الصيام عام ١٤٣٥هـ

(١) البقرة ٢: ٢٨٦.

(٢) آل عمران ٣: ٨.

سيرة المظفر بقلمه

ولدت في ٥ شعبان من عام ١٣٢٢ وقد توفي والدي العلاّمة الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله المظفر في غرّة ربيع الأول في هذه السنة فكانت ولادتي بعده بخمسة أشهر فلم أره ولم يرني وقد كفلني أخي الكبير المرحوم الشيخ عبد النبي المتوفى ١٣٣٧ فكان لي كالأب الرؤوف وبعده بقيت تحت ظل أخي وأستاذي العلاّمة الشيخ محمد حسن إلى كتابة هذه الأحرف.

ابتدأت في دراسة علم النحو حوالي سنة ١٣٣٥ فقرأت الأجرومية على الطريقة المألوفة بين الناس ولعدم رغبتي في الدرس في ذلك الحين كنت لم أحفظها حفظاً كالعادة وهكذا بقيت على التهاون في الاشتغال في قراءتي لباقي كتب النحو، ولما انتقلت إلى المنطق فتحت عيني للدرس فكثر جدّي في التحصيل وتداركت ما فات مني في علم النحو، ولكن مع ذلك كان شغلي على غير تحقيق وتدقيق حتى حضرت المطول على الأستاذ الشيخ محمد طه الحويزي وجملة من علم الأصول فاستفدت منه فائدة كليّة وتعلمت منه كيف يتوصل إلى التنقيب عن المسائل العلمية بما كان يتوسّع به في بسط المسائل وتحقيقها وفي خلال ذلك تتلمذت عليه في الشعر فكان له علي المنّة الكبرى في تعلّم النظم حتى اشتدّ ساعدي في ذلك كلّه ثم بعد ذلك حضرت علم الأصول على أخي الشيخ محمد حسن ولم أزل في خدمته حتى الآن وفي أثناء حضوري عنده أدامه الله تعالى حضرت على جملة من الأساتذة الكبار في الأصول كالشيخ أغا ضياء العراقي والشيخ محمد حسين الأصفهاني والأخير إلى الآن أحضر في بحثه وفي خلال شغلي في

العلوم الدينية تعلّمت جملة من العلوم كالعروض والحساب والهندسة والجبر وشيئاً من الهيئة وقد ألّفت كتاباً في علم العروض سنة ١٣٤٣ على الأسلوب الحديث ولكن بقي ناقصاً وإلى الآن لم أوفق إلى إتمامه ولي كتابات في كثير من العلوم لم تزل مبعثرة وأكثرها في الأصول .[١]

(١) يذكر الخاقاني: رأيت ترجمة للمظفر بخطه وقد كتبها قبل عشرين عاما ثم أضاف والحق أن هذه هي خطوط حياته الأولى وبها تعرف مدى نبوغه. شعراء الغري ٨: ٤٥١ – ٤٨٤.

المقدمة

(إني أقدّم كتاباً لا كاتباً)

بقلم الشيخ محمد رضا المظفّر [1]

إن هاتفاً في دخيلة نفسي – لا أعرف مأتاه على التحقيق – يهتف بي منذ عشرين عاماً تقريباً إلى ضرورة تأليف مؤسسة تعنى بتوجيه حركة النشر والتأليف في النجف الأشرف، ولست أنا الوحيد أشعر بهذا الشعور فمعي جماعة غير قليلة كان همهم ذلك حتى كادوا أن يؤسسوا هذه المؤسسة قبل خمسة عشر عاماً.

وبدافع فكرة هذه الجماعة شرع العلامة الجليل والحجة الكبير المرحوم الشيخ محمد جواد البلاغي (١٢٨٠ – ١٣٥٢هـ) في تأليف كتابه (آلاء الرحمن) في تفسير القرآن ليكون باكورة أعمال المؤسسة التي خنقت في مهدها، واستمر الشيخ المجاهد في تأليف كتابه حتى وافاه الأجل بعد نشره للجزء الأول في حياته على نفقته الخاصة.

ومرد الشعور بضرورة هذه المؤسسة إلى إدراك أن النجف بلاد علميّة من قديم القرون، وعاصمة للمرجعية في التقليد، والجامعة الأولى لدراسة العلوم الدينية

(١) من خلال اهتمامي بما اتسعت له الموسوعة المظفرية وبعد إعداد هذا الكتاب كان همّي بالصورة التي تكتب مقدّمته وبقلم مؤلفه الراحل وبالتالي ارتأيت أن أعيد نشر المقدّمة الرائعة التي كتبها الشيخ المظفر لكتاب (مالك الأشتر) تأليف المرحوم الحجة السيد محمد تقي الحكيم (١٣٣٩ – ١٤٢٣هـ) لما فيها من شهادة صادقة تحمل دلالات تساهم على الوقوف بجلاء وبصيرة بما ألمحت إلى سير وتراجم وأرّخت لتوثيق أبعاد حركة ميمونة الخطى و لما أشرنا إليه في التقديم بين يدي القرّاء وتوضّح مصداقية الخواطر والرؤى المطروحة وتنقلنا كذلك إلى بداية رائعة بما سطره المظفر من سانحة أفكار بسيرة (التقي الحكيم) الأول في طليعة تلامذته وروّاد منهجه وتطلعاته .

والعربية، ولها سوق رائجة للأدب العالي، وفيها في كل عصر مؤلفون وأدباء، ولها في كل فنّ كتب وآثار فهي من هذه النواحي غنيّة لا يضارعها بلد إسلامي آخر، لا سيما قبل عصر النهضة الحديثة.

إلاّ أن الذي ينقصها – ويجب الاعتراف به – تنظيم نشر ما تضمّ كنوزها من مؤلفات قديمة وحديثة، وتوجيه التأليف على النحو المرغوب فيه في هذا العهد، وتشجيع المؤلفين والناشرين في عصر راجت فيه الطباعة واتسقت حركات الثقافة واتسعت دور النشر، وحرمت منه بلادنا المقدسة.

فهي على ما فيها من مادّة غزيرة منكمشة على نفسها لا تظهر آثارها كما يجب أن تظهر وما يتفق أن ينشر من منتجاتها – وإن كان ليس بالقليل في حد نفسه – لا يبلغ الواحد من المئة إذا أردنا المبالغة، على أنّه قد لا ينشر المنتخب والمختار من تلك المؤلفات لأن ما يطبع على الأكثر إنّما هو بنتيجة جهود فرديّة يقوم بها أشخاص المؤلفين أو من يمت إليهم بصلة.

وهذا ما أوجب الظنّ عند البعض بأن ما يقال عن العلم والأدب والتأليف في النجف الأشرف إنما هو من نوع الدعاية الفارغة، وقد يكون هذا معذوراً في ظنّه لأن طفرة العالم العربي فضلاً عن غيره في هذه الناحية – ناحية النشر والتأليف – لم تدع المجال للعذر في تأخّر النجف عن ذلك، والمنتظر منها أن تصدر على الأقل كل يوم مؤلفاً طريفاً حسب ما يتناسب مع سمعتها.

ولكن هذا الظنّ فيه من الحيف العظيم الذي لا يعرفه حقاً إلاّ نفس أهل العلم بالنجف أو من يتّصل بهم اتصالاً ثقافياً.

وينسب الدكتور(محمد) مهدي البصير (١٨٩٥ – ١٩٧٤م) في كتابه الحديث (نهضة العراق الأدبية) [١] طمس تلكم الآثار إلى قلّة ذات يد المؤلفين والأدباء فتقعد

(١) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦م وفيه يقول (أن الأدب العراقي ما برح مهملًا منسياً لا

بهم عن إذاعتها، وقد يكون هذا صحيحاً إلى حدّ ما، ولكن له سبب آخر هو – فيما أرى – سبب الأسباب هو عدم وجود مؤسسة كبيرة تعنى بذلك، وبالأصحّ هو عدم وجود شعور عام عندنا يقذف بالرجال إلى العمل المجدي في هذا السبيل وبتأسيس مشروع يليق بمكانة النجف العلميّة والأدبيّة.

وقد كانت النجف تعتمد في نشر كثير من المؤلفات على مطابع إيران وتبرع المحسنين، ثم لما تأسّست المطبعة التجاريّة فيها ثم كثرت المطابع من هذا النوع، لم تكن وافية بالغرض ولا محقّقة للواجب لأمور يطول شرحها، على أن هذه المطابع على كثرتها اليوم هي تدأب وتعجّ بالعمل ولا نراها بالغة شيئاً مما يصبى إليه.

ولما تأسّس منتدى النشر على أساس هذه الفكرة السالفة ظهر بسرعة أن الشعور العام في النجف بل العراق بعد غير مهيّأ لقبولها فكرة جديرة باهتمامه، على أن الرجال الذين اشتركوا فيه لم يكونوا في العدوة القصوى من محور النجف العلمي، بل هم في الصميم من جامعتها.

ومما يؤسف له أن الشعور العام لأجل ذلك لا يزال ينظر إلى من يدعو إلى هذه الأعمال الإصلاحيّة بنظر الريبة والشكّ، فقد يتصوّرهم أناساً استغلاليين لصالح أنفسهم، أو بالأصح يتصوّر أنّها أعمال شخصيّة أكثر منها أعمالاً عامة، وكأنّه لا يصدّق أن الرجل يعمل للصالح العام إلاّ إذا كان إنساناً كليّاً مجرّداً عن مشخصاته الفردية [والكليّ لا وجود له في الخارج][1] فيغفل الرأي العام عن أنّ كلّ عمل مهما كان عاماً ولصالح المجموع لابد أن ينهض به أفراد معيّنون وأشخاص لهم مميّزاتهم الشخصيّة، كما شاهدنا شعور الناس عن مشروع حماية الأطفال بالنجف.

يجد من يعنى به عناية صادقة ولأن الأديب العراقي ما برح فقيراً معدماً لا يجد من يأخذ بيده ويعينه على أداء رسالته...).

(١) أنظر كتاب أصول الفقه للشيخ المظفر ٢: ٢٠٧.

على أنّ رجال المنتدى برهنوا طيلة هذه المدّة التي مرّت على تأسيسه على أنهم أبعد ما يكونون عن الاستغلال، بل ضحّوا بأكثر من اللازم وأكثر مما يتصوّر أن يضحي به بشر اعتيادي فبذلوا كل غال ورخيص في تسيير هذا المشروع وتركيزه لأجل نضوج هذه الفكرة في مجتمعنا، وأكثر الناس – فيما نعتقد – لا يشكّون في إخلاصهم وتضحيتهم ولكنّهم مع ذلك يعتبرون المشروع شخصيّاً لأنّ رجاله الناهضين معيّنون لهم مميّزاتهم الشخصيّة.

فإذاً الواجب – يا رجال الإصلاح – أوّلاً خلق الشعور العام بضرورة الفكرة قبل تأسيس المشروع، على أنّ خلق الشعور العام يتوقّف على مشروع ينهض بالدعوة ويعمل لأجل ذلك. وهذا – حسب ما أعتقد – هو الأمر الملقى الآن على عاتق مؤسّستنا، وتأسيس كليّة المنتدى ومدارسه ما يعين إلى حدّ ما على تحقيق هذا الشعور.

وإذا كنت – اليوم – أنا المسؤول عن المشروع فقد تكون هذه الصراحة المكشوفة عن تفكير جماعتنا مما أؤاخذ عليها، ولكنّي شخصياً لا أجد ضيراً في إعلان الحقيقة، ويعلم الله أني لا أقصد انتقاد شخص معيّن بل أنا أكثر إخواني عذراً لجماعة كبيرة ممن وقف موقف المخاصم لمشروعنا، ولا سيما الذين نطمئن إلى حسن نواياهم ويطمئنّون إلى حسن نوايانا وهم كثيرون ممن اشتغلوا معنا في المشروع وممّن لم يشتغلوا.

ونحن مستعدّون لتضحية جديدة بأنفسنا، فنتنحّى عن العمل عندما نجد من يحبون أن ينهضوا به دوننا خصوصاً إذا اعتقدوا أنهم سيعطون المشروع صبغة عامة بدخولهم، وليثقوا أنّا عمال للمشروع أين ما كنا ومهما كانت صبغتنا فيه ولا نريد أن نبرهن بهذا القول على حسن نوايانا.

إنّ هذا لا يهمّنا بقليل ولا كثير بعد الذي كان إنّما الذي يهمّنا أن ينهض المشروع نهضة تليق بسمعة النجف ويؤدّي الواجب الملقى على عاتقه كاملاً وبأي ثمن كان حتى إذا كان ثمنه أرواحنا وما أرخصها في سبيل الواجب وقد صرّحنا مراراً أنّنا لم نخط حتى

الآن إلاّ خطوة قصيرة بالمشروع في سبيل ما يقصد من أهدافه.

ولمّا توسّعت أعمال المنتدى بقي الغرض الأقصى (النشر والتأليف) يشبه أن يكون مهملاً في سجلّ أعماله؛ ولكن ليس معنى ذلك أنّه مهمل حقيقة؛ حتى تأسست له لجنة المجمع الديني منذ عامين تقريباً، وهمّها الأول كان تهيئة أعضائها للتأليف وإلقاء المحاضرات النافعة ومبادلة الرأي فيما يجب العمل له في هذا السبيل؛ فتوفّقت أن تجعل يوم الجمعة من كل أسبوع يوماً لاستماع محاضرات الأعضاء بصورة متوالية ثم توسّعت حتى كان اجتماع يوم الجمعة يشبه أن يكون يوماً عاماً يشترك في الحضور فيه جماعة كبيرة غير أعضاء اللجنة من أعضاء المنتدى وغيرهم، وزادت على ذلك بإقامة الحفلات والمحاضرات العامّة في شتّى المناسبات لفائدة العموم، وقد شهدت النجف الأشرف في أسبوع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بمناسبة ذكرى وفاته مهرجاناً في مدّة أسبوع كامل منقطع النظير[1].

وقد فكرت بالأخير أن تعدّ مشروعاً ابتدائياً كباكورة لأعمالها التي تنويها، وهو إعداد سلسلة مؤلفات صغيرة نافعة فيها فائدة للخاصة وتثقيف للعامة.

وقد ظهر أول هذه السلسلة كتاب (الشيعة والإمامة) الذي لم تقصد فيه الربح المادي، وأكثر ما استفادت منه أن استرجعت ما صرفت عليه، وبقي الربح المعنوي يخلد لها وللناس. ولأنّ مؤلفه أخي وشقيقي[2] وأنا معه كنفس واحدة فلا يسعني أن أقول فيه كلمة إطراء وثناء.

وهذا بين أيدينا (الكتاب الثاني من السلسلة) (مالك الأشتر) الذي حلّل فيه مؤلّفه

---

(١) طبعت مجموعة المحاضرات في كتاب عنوانه (أسبوع الإمام) نشر في النجف، مطبعة الراعي ١٣٦٤ وقد تضمّن دراسات قيّمة شارك فيها أعلام أفاضل من أعضاء جمعية المنتدى وأعضاء شرف في لجنة المجمع الثقافي الديني.

(٢) هو آية الله المجاهد المرحوم الشيخ محمد حسين المظفر (١٣١٢-١٣٨١هـ).

الأستاذ شخصيّة هذا البطل الإسلامي المجاهد بما يعطيك منه صورة واضحة تقصر عنها ريشة الرسام.

إن كان لحكيم مصر (توفيق) في النبوغ، فإن حكيمنا (تقي) في لوذعيّة ونابغة في صلاح نباهي به شبابها وكتابها، وهو مؤلف هذا الكتاب.

لقد رمزنا إلى حركة لجنة المجمع في المنتدى النشيطة فإن دريت فإن محورها هذا (الحكيم) النابغ، وهو في ريعان الشباب، وقد أوتي حظّاً وافراً من قلم سيّال وأدب عال وأسلوب رصين وخيال واسع.

ولولا أنّه مني ما يشعر المرء بأنّه عندما يتحدّث عنه إنما يتحدث عن نفسه لكنت أتيت لك – أيها القارئ – بما يوفي تعريفه عندك، على إنّي أقدّم كتاباً لا كاتباً ومؤلفاً أترجم له، وأنت باستطاعتك أن تقرأه في هذه الصفحات التي تمثل لك نفسيّة المؤلّف اللاّمعة، وروحه القويّة، وأدبه الرفيع، وبحوثه القيّمة.

لا يكاد يمرّ أسبوع على المجمع دون أن يسمع الحاضرون محاضرة ثمينة لهذا الكاتب المطبوع من سلسلة محاضراته عن (زرارة بن أعين) أو محاضراته في (ندوة السمر) ونحوها أو محاضراته الأخيرة عن (مالك الأشتر) التي تألفت منها مجموعة كانت كتاباً نقدمه للقرّاء وأنا واثق أنّ في نشره فتحاً جديداً في تصوير بطل من أبطال الإسلام وسيفاً من سيوف الله كان أكثر ما يعرف عنه الناس أنّه شجاع مدرّب وحواري أمير المؤمنين عليه السلام.

ولقد كان يعزّ عليّ – أيها الرجل – الذي احتضنتك كليّة المنتدى في أوّل تأسيسها طالباً ثم وفيت فاحتضنتها أستاذاً لعلوم البلاغة وعضواً في إدارتها. أقول لقد كان يعزّ عليّ أن تضن بآثارك عن إذاعتها ونشرها في الوقت الذي كان يجب أن يبرهن على أن في السويداء رجالاً ولجامعة النجف كتّاباً يفتخر بهم.

ولئن كنت تعتذر – وما ملوم من اعتذر – بالانشغال بتحصيل العلوم الدينية

ودراسة الفقه وأصوله فإنّ ذلك أمر يحول حقاً عن كثير مما يجب أن يعمله الطالب الديني، ومثلك على صواب. إذاً انصرف إلى أهم ما يجب أن يصنعه المحصّل السالك طريق الاجتهاد، لاسيما في هذه العصور؛ ولكنّي ممن يرى أن العصر أيضاً اقتضى أن يبرز رجال العلم في النجف بأقلامهم للكفاح، وأن ينشروا آثارهم لتنوير الأذهان. وقد تقدم نعيي على تسامح إخواننا في هذه الناحية.

ولماذا أسّسنا منتدى النشر؟ ولماذا أسّسنا بعد ذلك فيه لجنة المجمع؟

مالي ولحديث الكاتب! أرجو – أيها القارئ – أن تعذرني من الاندفاع في الحديث عنه، فإنّ هذا الحبيب ينسيني نفسي، فيجذبها إليه كلّما تحوّلت عنه إلى الحديث عن كتابه، على أنّي قد أخذت عليها أن أقدّم الكتاب لا الكاتب.

أقول أقدّم لكم (مالك الأشتر) حقاً.. أقدّم شخص بطل الإسلام مالك، ولكن في كتاب؛ فإنّ هذا التصوير الذي استعمله الكتاب ولا أقول الكاتب فأخشى أن يجرفني ذكره إلى الاستمرار في حديثه يجعلك تتمثّل هذا البطل المنزّه كأنّك عشت في عصره أو كأنّه عاش في عصرك ولئن كانت القنبلة الذرية – لو كان في عصرنا – لا نبقي قيمة لسيفه الصارم، فإن الخلق العام عندنا يبرزه مخلصاً مجاهداً فوق حدود الإخلاص والتضحية في سبيل الواجب اللتين عزتا في قومنا (الميامين).

وأحسب أن أعطيت لمحة كافية عن هذا التأليف، فأقف عند هذا الحد، وإن لم أوفيه حقه؛ ولكنّي أكتفي بمعرفة القارئ ليطلع بنفسه على قيمة هذا السفر الأدبي والسلام عليكم.

محمد رضا المظفر

مؤسس جامعة النجف

الشيخ الطوسي

(٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ)

نشرت هذه الدراسة في مجلة النجف الصادرة عن كلية الفقه بعدديها الثامن والتاسع السنة الأولى (ذو الحجة ١٣٨٦ – نيسان ١٩٦٧)

الشيخ الطوسي

أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي[1] شيخ الطائفة الامامية وخرّيتها [2] ومؤلف أمهات كتبها الدينية وحامل لواء معارفها، ومؤسس مركز النجف الأشرف العلمي، وقد اشتهر باسم «الشيخ» على الإطلاق إكباراً وتقديراً لمقامه العلمي ومركزه الديني الاجتماعي.

---

(١) هو محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي.

- ولد في شهر رمضان عام (٣٨٥هـ) في ناحية طوس التابعة لخراسان بإيران.
- هاجر إلى بغداد عام (٤٠٨هـ) وكان عمره ٢٣ سنة.
- درس على أكابر العلماء وأختص بالشيخ المفيد (٣٣٦ – ٤١٣ هـ) والسيد الشريف المرتضى (٣٥٥ – ٤٣٦ هـ) طوال ثمان وعشرين سنة وبعد وفاة الشريف استقل بالتدريس وأجتمع حول منبره طلاّب العلم وأصبحت داره ببغداد مدرسة علميّة يحضر درسه فيها تلامذته من الشيعة والسنة.
- امتاز بنبوغه وهيبته حتى لقب بـ(شيخ الطائفة) ولما أعجب به حاكم زمانه القائم بأمر الله العباسي (٣٩١ – ٤٦٧ هـ) جعل له كرسي الكلام والإفادة وكان لا يسمح به إلاّ لوحيد عصره في علومه، وحين تولى طغرل بيك السلجوقي عام (٤٤٧هـ) ووقعت الفتنة الطائفية عام (٤٤٨هـ) أحرقت دار الشيخ الطوسي ومكتبته وكرسيّه ببغداد فهاجر على أثرها إلى النجف وأسس قواعد الجامعة العلمية في النجف وأدار شؤون حوزتها وكان له دور الريادة في تربية العلماء وإعدادهم ثقافة وسلوكاً ومعرفة في علوم الشريعة الإسلامية .
- توفي بمدينة النجف الأشرف في ٢٢ محرم عام ٤٦٠هـ ودفن بداره الذي أتخذ بعد ذلك بما يعرف اليوم بـ(مسجد الشيخ الطوسي).

(٢) الخِرِّيتُ: الدليل الحاذق بالدَّلالة.

ويقال: هو في هذا الأمر خِرَّيتٌ، وهو خِرَّيتُ هذا الأمر: حاذق ماهر فيه.

وفي حديث الهجرة: حديث شريف فاستأجرَ رجلاً من بني الدَّيل هاديًا خِرِّيت.

ومما يلفت النظر إلى مقامه العلمي أنّ كل من جاء بعده من العلماء إلى مدة قرن كاد أن يكون مقلّداً له في آرائه لا يتخطّى قوله ولا يحيد عن رأيه حتى كان يخشى أن ينسد باب الاجتهاد عند الامامية، بل هو إلى يومنا له من التقدير في نفوس العلماء ما يصعب معه تخطي رأيه ونقده، ولذلك يعد من وصمات الشيخ ابن إدريس صاحب السرائر[١] تحريه لنقد الشيخ .

أما عن مركزه الاجتماعي الديني فيكفي أن تعرف أن خليفة عصره القائم بأمر الله[٢] منحه كرسياً للكلام يجلس عليه لتدريس هذا العلم مع أن الخليفة مذهبه معروف وشيخنا الطوسي معلن لطريقته وهو رئيس الطائفة الإمامية على الإطلاق وقد تتبّعت كثيراً فلم أعثر على أحد من العلماء قد أعطي له هذا الامتياز لا من علماء السنة ولا من علماء الشيعة ولا من السابقين عليه ولا من المتأخّرين عنه. وهذا حقّاً مما يلفت النظر ولذلك عمد أعداؤه عندما أحرقوا داره وكتبه[٣] إلى أن يحرقوا هذا الكرسي أيضاً انتقاماً منه وسجّل التأريخ ذلك من النكبات عليه التي تذكر بالأسف وإن كان ذلك لا يبلغ أسف إحراق كتبه الذي قيل أنه وقع مراراً، وهو بحق من أعظم النكبات وأشد الفضائح على ذلك الجيل الوحشي، وكم مثله من فضائح مرّت في التأريخ الإسلامي يندى منها الجبين كإحراق كتب الإسكندرية في أول فتح مصر من قبل جيوش المسلمين على ما قيل.

(١) فخر الدين أبو عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس العجلي الربعي الشهير بالحلي (٥٤٣ – ٥٩٨هـ) وكتابه (السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى).

(٢) أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أحمد (٣٩١ – ٤٦٧هـ) من أحفاد المعتضد العبّاسي البغدادي بويع في ذي الحجة عام ٤٢٢هـ.

(٣) خلاصة الأقوال في معرفة الرجال للعلامة الحلي: ١٤٨، البداية والنهاية لابن كثير ١٢: ١١٩، سير أعلام النبلاء ١٨: ٣٣٥، لسان الميزان ٥ : ١٥٣، الكامل لابن الاثير ٨ : ٨١، البداية والنهاية ١٢ : ٢٩٧، المنتظم ١٦ : ٨ .

ومما يشيد بمركزه الديني الاجتماعي إنه هو المؤسس لجامعة النجف ومركزها الديني، فإن الذي يبدو أن النجف قبل أن ينتقل إليها لم تكن إلاّ مزاراً ومدفناً وحول القبر جماعة من المجاورين لا عمل لهم إلاّ خدمة الزوار والقاصدين وهي يومئذ قرية في طرف ناء من العمران والبلاد المأهولة، والكوفة التي هي أقرب بلدة إليها كان قد شملها الخراب ودكّت صروحها.

وسبب انتقاله إليها أن الدولة السلجوقية السنّية لمّا احتلّت بغداد بعد انحلال الدولة البويهيّة المدافعة عن الشيعة وعلمائها استغلّ أهل السنّة ذلك ففتكوا بالشيعة حتى تجاوزوا على الشيخ نفسه فأحرقوا داره وكتبه وكرسي الكلام – كما قدمنا – فالتجأ الشيخ إلى أن يفرّ بنفسه وبجماعته إلى أبعد زاوية من البلاد ويحتمي بقبر أمير المؤمنين عليه السلام وكان ذلك سنة ٤٤٨ هـ.

ومنذ أن حلّ الشيخ في النجف توارد عليها – على ما يظهر – كثير من طلاّب العلم للاستفادة من نمير علمه حتى قيل أنّ تلاميذه المجتهدين بلغوا الثلاثمائة أو أكثر، كما قصدها كثير من الشيعة بقصد مجاورة المرقد الطاهر.[1]

(١) كان للنجف قبل الشيخ الطوسي شأن علمي، وكان يقصدها الناس للدراسة على علمائها المجاورين فيها، فمنذ أوائل القرن الثالث للهجرة نرى أسماء علمية بارزة تُنسب إلى النجف، مثل: شرف الدين بن علي النجفي، وأحمد بن عبد الله الغَروي، وابن شهريار...، كما أن هناك إجازات علمية تحمل اسم النجف. ثمّ نرى أن المؤرخين يذكرون أن عضد الدولة البُوَيهي حين زيارته للنجف سنة ٣٧١ هـ، وزّع أموالاً على الفقهاء والفقراء، ومعنى هذا أنّه كان فيها جمهور من الفقهاء خَفِيَت عنّا او ندرت أخبارهم، وضاعت فيما ضاع من أخبار النجف الكثيرة، ومن البديهي أن تكون النجف بعد ابتداء شأنها كمدينة، قد ابتدأت في نفس الوقت لتحتضن تراث الكوفة علمياً ودراسياً، ثم أمست مقصداً للهجرة والمجاورة للمشهد العلوي الشريف، ومن الطبيعي أن يكون للنجف شأن علمي دراسي، قبل هجرة الشيخ الطوسي إليها، حيث تبلور بوصول الشيخ، وتطور لأن الشيخ لم يهاجر إليها وحده فقد كانت له حلقات من تلاميذه تتلقى العلم وجُلّهم إن لم يكونوا كلّهم انتقلوا بانتقال الشيخ، ونظّموا أمر الدرس تنظيماً دقيقاً، دخلت فيه النجف في طور جديد، من أهمّ أطوارها.

ولم يصل إلينا تاريخياً سعة رقعة النجف يومئذ وعلى أي مورد كان يعتاش أهلها، وكيف كان يتم إرواؤها وهو أهم مشاكل النجف من القديم، ولكن لا شكّ أنّ البلاد القريبة منها كالحلّة والعشائر الفراتية القريبة كانت شيعية خالصة فلابد أنها كانت تمدّها بالمعونة فيما تحتاج، والشيعة تنظر إلى بلدة النجف بنظرة قدسية لا تشبهها نظرة أخرى وتقدس ساكنيها أيضاً، مضافاً إلى أنها مدفن موتاهم وكفى أن مثل ملوك البويهيّين قد اتخذوا منها مدفناً لهم فلابد أن يقصدوها بخيراتهم أيضاً.

أضف إلى أن الشيخ لما ألقى عصا الترحال فيها وهو زعيم الطائفة الأول يومئذ لابد أن تصير مقصداً لجميع المسلمين الشيعة ومرجعاً لحقوقهم المالية من جميع أقطار الارض.

ويظهر أن الزعامة الدينية استقرت في النجف قبل أن تنتقل إلى الحلّة مدّة قرن على الأقل واستمرت في بيته بالذات، فإن ولده أبا علي الحسن الملقب بالمفيد الثاني كان من أفذاذ العلماء وصار مرجعاً للطائفة وكان قد أجازه والده سنة ٤٥٥هـ أي قبل وفاة والده بخمس سنين وبقي في النجف مرجعاً إلى أن توفي وإن لم تتحقّق سنة وفاته ولا مدفنه.

وكذلك حفيده أبو الحسن محمد بن الحسن بن محمد أيضاً بقي في النجف وصار مرجعاً للشيعة إلى أن توفي سنة ٥٤٠هـ وهذا الشيخ محمد ليس له ذكر في تأريخنا وهو من العجيب، ولكن قد ذكره أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ في كتابه شذور الذهب[1] فإنه قال عنه بهذا النص: «وفيها – أي توفي في سنة ٥٤٠هـ – أبو الحسن محمد بن أبي علي الحسن بن أبي جعفر الطوسي شيخ الشيعة وعالمهم وابن

(١) شذور الذهب في مذهب من ذهب ٤: ١٢٦، لمؤلفه ابن العماد الحنبلي وهو عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي أبو الفلاح (١٠٣٢ – ١٠٨٩هـ) مؤرخ، فقيه، عالم بالأدب، ولد في صالحية دمشق، وأقام في القاهرة مدة طويلة، ومات بمكة حاجاً.

شيخهم وعالمهم رحلت إليه طوائف الشيعة من كل جانب إلى العراق وحملوا إليه الأموال، وكان ورعاً عالماً كثير الزهد». وأثنى عليه السمعاني، وقال العماد الطبري: «لو جازت على غير الأنبياء صلاة صليت عليه».

نسبه وأصله

شيخنا المترجم له عصامي لم يعرف عن أبيه وأجداده شيء من تأريخهم، ولا يعرف من نسبه فيما ترجم له إلاّ أنّه ابن الحسن بن علي، ولا يرتفع به إلى أكثر من جده إلاّ أنّ بعضهم يرفعه إلى جدّ أبيه ويسميه «الحسن». فهو «قصير النسب» بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى.

أمّا أصله فالذي يبدو من بعض المترجمين له من المتأخرين أنه فارسي العنصر ولعل هذا الحكم نشأ من ملاحظة عدة أمور:

١. أنّه رحل من طوس[١] سنة ٤٠٨هـ إلى بغداد، وكان يلقّب بالطوسي بل زاد الشيخ الباحث أغا بزرك الطهراني[٢] (مدّ الله تعالى في عمره النافع) أنّه متولّد في طوس وذلك في كتابه المشيخة[٣] ولكنّا لم نعثر في كتب المتقدّمين ما ينصّ على ذلك، وهذا ما يشعر بأصله الفارسي .

٢. أنّ التأريخ قد أغفل نسبته إلى قبيلة أو عشيرة ولو كان عربي العنصر لذكرت

---

(١) طوس: ناحية بخراسان تشتمل على مدينتين طابران ونوقان ولهما ما يزيد على ألف قرية ومن قراها «سناباد» التي صارت موضع قبر الإمام الرضا عليه السلام فأصبحت اليوم من المدن العظيمة وسميت بخراسان.

(٢) هو الشيخ محمد محسن بن علي الطهراني (ولد في ١١ ربيع الأول ١٢٩٣هـ بطهران وتوفي في النجف ١٣ ذي القعدة ١٣٨٩ هـ) من كبار أعلام النجف و شيخ مشايخ التأليف والفهرسة والتراث والعالم الموسوعي البارع صاحب كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة وطبقات أعلام الشيعة وغيرها.

(٣) الصفحة ٧٢.

قبيلته على عادة العرب ولم يلقب بالطوسي.

٣. تعبير الشيخ ابن إدريس الحلّي صاحب السرائر عنه بـ«رئيس الأعاجم» فيما نقل عن كتابه خلاصة الاستدلال نقله الشيخ الأنصاري في الرسائل في مبحث الإجماع المنقول وفيما نقل عن كتابه السرائر في كتاب الطهارة نقله الشيخ المامقاني[١] في رجاله في ترجمة ابن إدريس الحلّي، وابن إدريس[٢] قريب إلى عصره ويمت إليه بنسب أو مصاهرة على ما قيل وإن كنا لم نتحقّقه[٣] وستأتي مطالعتنا عن ذلك، فهو أعرف به من غيره.

والذي يبدو لي أنّ هذه ظنون لا تفي حجة على الجنسية، فإن السكنى في بلد بل التولّد فيها إن صحّ لا يدلاّن بحال على الأصل وإن صح التلقيب بها وكم نسب أشخاص إلى بلدان بمجرّد سكناهم بها والقبائل العربية كانت تقطن في إيران ولاسيّما في خراسان ولا تزال طائفة حتى اليوم في أطراف خراسان يتكلّمون العربية متأثّرة بألفاظ فارسيّة وقد شاهدت بعض أفرادهم وكلّمتهم، وهي متمسّكة بلغتها وطابعها العربي.

وعدم ارتفاع النسب له لا يدلّ على أكثر من عدم الاهتمام به لمثله عصامياً نابغاً ككثير من مشاهير العلماء المعروفة عروبتهم.

وأمّا كلمة ابن إدريس – إن صحّت – فليست إلاّ رأياً يقبل النقاش، على أنّ

(١) الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد حسن المامقاني (١٢٩٠ – ١٣٥١هـ) مرجع كبير وعالم مصنّف شهير له موسوعة رجالية بعنوان (تنقيح المقال) عنى بتحقيقها وإعادة النظر فيها نجله العالم الجليل المرحوم الشيخ محيي الدين (١٣٤١ – ١٤٢٩هـ) وقد بادرت مؤسسة آل البيت لإحياء التراث بطباعة هذا الأثر النفيس.

(٢) هو محمد بن أحمد بن إدريس الحلي (٥٤٣ – ٥٩٨هـ) من كبار الفقهاء ومن معاصري العلامة ابن زهرة.

(٣) أشار السيد الحسن الصدر في نسبة الطوسي لابن إدريس بأنّه جدّه لأمّه. تكملة أمل الآمل ٢ : ٢٣٤، ٢٤٣.

ابن إدريس الذي يتحرّى التحامل على الشيخ بأسلوبه الخشن معه تلحق كلمته هذه بمثيلاتها، كتعبيره عن القطب الراوندي في كتاب الطهارة من السرائر ص ٣٦: «وقد ذكر بعض أصحابنا من الأعاجم وهو الراوندي المكنّى بالقطب...» والقطب مشكوك في أصله وراوند مكان تابع للموصل.

وقد تصفّحت جميع كتاب الطهارة من السرائر فلم أعثر على الكلمة التي نقلها المامقاني في رجاله وهذا نص العبارة التي نقلها: «وخالي شيخ الأعاجم أبو جعفر الطوسي تفوح من فيه رائحة النجاسة» وما أدري أين وجدها؟ نعم وجدت في السرائر هذه العبارة ص ١٠: «وأنا أبيّن إن شاء اللّه تعالى أنّ أبا جعفر تفوح من فيه رائحة تسليم المسألة بالكليّة» وأين هذه من تلك. وقد رجعنا إلى النسخة الأصلية المخطوطة في رجال المامقاني الموجودة عند ولده الفاضل الشيخ محيي الدين[1] للتأكّد من صحّة المطبوعة فوجدناها كما هي في المطبوعة.

هذا الكلام في جنسيّته من ناحية سلبيّة أما من ناحية إيجابيّة فلم أجد ما يقنع النفس بحقيقتها في تتبّعاتي، وقد عثرت على كلمة له في كتابه «المبسوط» في الفقه أضعها بين أيديكم لعلّها تلقي ضوءاً على جنسيّته وتعين على فتح الباب لمعرفة أصله.

قال في كتاب النكاح آخر الفصل الأول بعد المقدمة في مسألة تغرير الزوجة لزوجها: «فإن كان – أي التغرير – أعلى ممّا ذكرت مثل أن انتسبت عجمية فبانت عربية أو ذكرت أنّها قصيرة فبانت طويلة أو قبيحة فبانت مليحة».

وقد كان يكفيه للمثال بالتغرير بالأعلى ما ذكره من الأمثلة التي نقلنا بعضها وما أغناه عن التمثيل بادّعائها عجميّة لو لا أنّ عفو خاطره وطبعه – فيما أعتقد – دفعه دفعاً

---

(١) عالم محقق مجتهد مقدس (١٣٤١ – ١٤٢٩هـ) تفرغ لتحقيق الموسوعة الرجاليّة الكبرى (تنقيح المقال) تأليف والده المعظم الشيخ عبد الله (١٢٩٠ – ١٣٥١هـ).

لا شعورياً إلى التمثيل بتفضيل العنصر العربي. ولا يحصل هذا الاندفاع ممن لم يكن قد تمكّن منه الشعور الباطن بأصله العربي.

وليس لنا أن نتوهّم أنّ شعوره الديني حمله على هذا التفضيل، لأن الإسلام لا يفضل العربي على العجمي إلاّ بالتقوى ولا يعترف بالعنصرية، على أنّ هذا وحده لا يدعو إلى هذه الاندفاعيّة اللاشعوريّة.

والذي أنصّ عليه بواضح العبارة أنّ تفضيله للعنصر العربي الذي جاء عن عفو الخاطر بلا ضرورة تقتضي هذا المثال لا يصدر بهذه السهولة من غير من يتأصل في نجاره الدم العربي، وعلى كل حال فهي عبارة تفتح الباب للمناقشة في جنسيّته.

مؤلفاته

لهذا الشيخ الجليل من المؤلفات الضخام في قيمتها العلمية ما يزال خالداً مع الزمن، وقد كانت مرجعاً للمجتهدين والباحثين منذ تسعة قرون، بل هي من عيون المؤلفات النادرة التي من شأنها أن توضع في أعلى رف من المكتبة الإسلامية إذا وضعنا مؤلفات الناس في رفوف متصاعدة حسب قيمتها العلميّة، بل له في كلّ فنّ ألّف فيه مؤلّف هو الأول من نوعه لم يسبق إلى مثله سابق وكل من جاء بعده كان عيالاً عليه: ففي الأخبار «التهذيب والاستبصار» وسيأتي شرح تفوّقه فيهما. وفي الفقه «المبسوط» وهو فتح في الفقه لم يعهد لأحد علمائنا قبله ما يقاربه، وفي أصول الفقه «العدّة» وهي أوّل كتاب في هذا العلم مبسّط جامع لأبوابه، وفي التفسير «التبيان» وهو لا يزال مفخرة علماء الإمامية، وفي الأدعية «المصباح» وكل من ألّف بعده فيها سماه بهذا الاسم احتذاءً له وتقديراً لسابقته المتفرّدة، وفي غير ذلك من كتب في الرجال والكلام هي اللامعة في هذه الفنون.

واللازم أن نتحدّث عن هذه المؤلّفات بالاختصار لنشير إلى مواطن قيمتها ويبدو لي

أنّ الأجدى أن أرتّبها حسب العلوم والفنون ليتسنّى لي البحث عن كل طائفة مع شيء من المقارنة بينها، فنبحث عن مؤلفاته في الحديث ثم الفقه ثم أصول العقائد (الكلام) ثمّ الرجال ثمّ التفسير ثمّ المتفرقات.[١]

مؤلفاته في الحديث

للشيعة الإمامية أربعة كتب ضخام في الحديث هي المرجع للمجتهدين لاستنباط الأحكام الشرعيّة مدى هذه العصور المتطاولة منذ القرن الرابع والخامس وقد جمعت هذه الكتب الأربعة من الأصول الأربعمائة المؤلّفة في زمن الأئمّة عليهم السلام ومن غير هذه الأصول من الأحاديث المدوّنة وغير المدوّنة وتسمّى هذه الكتب بالأصول الأربعة وهي – حسب زمن تأليفها – الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه لابن بابويه، والتهذيب والاستبصار لشيخنا المترجم فهو له الحصّة الوافرة من هذه الأصول في تخليد تراث آل البيت في الفقه مع تفوقه فيها وله غيرهما لا تبلغ أهمية هذين الأصلين الكبيرين ونحن نبحث عنها جميعا ونكتفي في هذه المحاضرة بالبحث عنهما فقط .

التهذيب

أو تهذيب الكلام ورمزه «يب» في كتب الحديث والفقه وهو جامع لأبواب الفقه كلّها مشتمل على ٢٣ (كتاباً) من كتاب الطهارة إلى الديات. وقد أحصيت أبوابه فبلغت (٣٩٣ باباً) وأحصيت أحاديثه فبلغت (١٣٥٩٠ حديثاً).

---

(١) أنظر محمد صادق بحر العلوم: لمحة عن مؤلفات الشيخ الطوسي عنوان المحاضرة القيّمة التي ألقاها في الأسبوع الأول من الموسم الثقافي الأول لجمعية الرابطة الأدبية في النجف الأشرف سنة ١٣٨٦هـ المصادف لسنة ١٩٦٦م، ونشر البحث في مجلة الإيمان النجفيّة بالعددين الثالث والرابع من السنة الثالثة ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م: ١١ – ٢٢.

وهذا الكتاب – كما قال المحدث النوري[١] في الفائدة السادسة من خاتمة المستدرك – «أعظم كتب الحديث في الفقه منزلة وأكثرها منفعة بل هو كاف للفقيه فيما يبتغيه من روايات الأحكام مغن عمّا سواه في الغالب ولا يغني عنه سواه» وقد أثنى عليه جميع العلماء الذين ترجموا له بمثل هذا الثناء العاطر وكفى أن العلامة الحلّي جعله موضع اعتماده وحده في نقل الأحاديث في كتاب التذكرة إلاّ ما شذّ.

وتعد النسخ المخطوطة الباقية منه إلى اليوم بالمئات منتشرة في أقطار الأرض وقد طبع في إيران بمجلّدين كبيرين سنة ١٣١٧هـ وفي مكتبة شيخ الإسلام الطباطبائي في تبريز تحفة نادرة منه حسب نقل صاحب الذريعة وهي الجزء الأول منه بخطّ مؤلّفه وعليه خطّ الشيخ البهائي[٢].

التهذيب أول مؤلفاته

يظهر أنّ هذا الكتاب هو أسبق كتبه في التأليف بشواهد:

١. أنّه ابتدأ به في تعداد مؤلفاته لما ترجم لنفسه في الفهرست.

٢. أنّه ذكره في مقدّمات أكثر كتبه.

---

(١) الشيخ حسين بن الشيخ محمد تقي النوري الطبرسي (١٢٥٤ – ١٣٢٠هـ) ويوصف بـ(خاتمة المحدّثين) عالم جليل له مصنّفات جليلة معروفة في الأوساط العلميّة ومن أشهرها مستدرك وسائل الشيعة.

(٢) ومما سجله التاريخ عناية واهتمام سماحة السيد حسن السيد عبد الهادي الخرسان ١٣٢٢–١٤٠٥ وهو فقيه مجتهد محقّق حيث بذل جهده بالتحقيق والتصحيح إلى هذا الكتاب الجليل والمعروف انفراده وسبقه بدراساته وتوفير طبعة تليق بأهمية هذا السفر الرائع وللكتب الأربعة كذلك حيث أنجز (قدس سره) شروحاً لمشيخة التهذيب والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه فكانت بحق أمثولة تحظى بالتقدير من لدن أعلام الفضل والدين. أنظر الذريعة ٩/ ١٩٥ و٢٠ / ٣٠٢، مشهد الإمام ٤/ ٨٥، نقباء البشر ٣ / ١١١٨، معجم رجال الفكر والأدب ٢/ ٤٨٨.

٣. أنّه ألّف كتاب الطهارة والفصل الأول من الصلاة في حياة أستاذه الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣هـ بدليل أنّه عندما يتحدّث عنه يدعو له بالتأييد فيقول (أيّده الله) ومن بعد الفصل الأوّل من الصلاة يترحّم عليه عند ذكره، وبعيد أن يسعه الزمن في حياة أستاذه لتأليف كتاب آخر قبل التهذيب لأنّا نعلم أنّه جاء إلى العراق قبل وفاة أستاذه بخمس سنوات أي سنة ٤٠٨هـ وهذا الوقت لا يكفي لأكثر من التلمذة وأخذ الحديث ثم التأليف لكتاب ضخم ككتاب الطهارة من التهذيب الذي يبلغ نحواً من (٢٠٠ صفحة) بالقطع الكبير، بل من معجزات العباقرة أن يتم لشاب في سن ٢٨ سنة تأليف ذلك مع ما فيه من التحقيقات العلميّة واللّفتات البارعة والآراء الناضجة مع الجمع للأحاديث المتفرّقة وروايتها عن عشرات المشايخ.

٤. أنّه لم يشر في مقدّمة التهذيب إلى أنّ له مؤلفاً آخر على عادته في أكثر مقدّمات كتبه، نعم وعد في آخر المقدمة أن يؤلّف كتاباً آخر أوسع من هذا الكتاب غير أنّه لم يف لنا بوعده، وأحسب أنه حقّق وعده في نفس هذا الكتاب لأنّه خرج فيه في الأثناء عن منهجه الذي أشترطه أولاً في مستهل تأليفه وستأتي الإشارة إلى ذلك.

الأسباب الباعثة لتأليفه

تضمنّت مقدّمته ذكر البواعث لتأليفه، فابتدأ بنقل مذاكرة بعض أصدقائه عن اختلاف أحاديث الإمامية الذي كان سبباً لطعن المخالفين في طريقة الإمامية، ثم ذكر اقتراح ذلك الصديق تأليف كتاب يحتوي على تأويل الأخبار المختلفة والأحاديث المتنافية درءاً للطعن وذلك عنده حسب قوله: «من أعظم المهمات في الدين ومن أقرب القربات إلى الله تعالى لما فيه من كثرة النفع للمبتدئ والريض في العلوم».

فليست الغاية الأولى من تأليفه – إذن – هي جمع الأدلّة الفقهيّة أو الأحاديث كسائر كتب الحديث، بل الغاية الأولى غاية كلاميّة هي الدفاع عن العقيدة والجواب

عن الشبهة التي طرأت على أحاديث أهل البيت عليهم السلام من جهة اختلافها الذي سبب طعن المخالفين على الإمامية، كما طعن شيوخ الإمامية على المخالفين بالاختلاف الذي يدينون به اللهّ فشنّعوا عليهم بافتراق كلمتهم في الفروع.

ولما وجد المخالفون أن الإماميّة أشدّ اختلافاً وأكثر تبايناً في الفروع جعلوا ذلك من أعظم الطعون على مذهبهم لا سيما أن الإمامية يعتقدون بطلان الاختلاف فيدل على بطلان الأصل. ويقول الشيخ: «حتى دخل عليّ جماعة ممّن ليس لهم قوّة في العلم ولا بصيرة بوجوه النظر ومعاني الألفاظ شبهة وكثير منهم رجع عن اعتقاد الحق لما اشتبه عليه الوجه في ذلك» ثم نقل عن الشيخ المفيد يذكر شخصاً – وهو أبو الحسن المعاروني العلوي – كان يدين الحقّ فرجع عنه لمّا التبس عليه الأمر في اختلاف الأحاديث.

ثم قال: أن اختلاف الفروع لا يوجب ترك ما ثبت بالأدلّة من الأصول.

ولما كانت غايته من تأليف الكتاب الدفاع عن العقيدة وهي غاية كلاميّة فهي تلقي ضوءاً على منهاج تأليفه الذي تتكلم عنه فيما يأتي.

منهاج تأليفه

إذا قرأنا مقدمة الكتاب نجد أنّ المؤلّف يضع منهاج تأليفه على أساسين:

الأوّل في نوع التأليف:

فهو يجعله شرحاً للمقنعة في الفقه تأليف أستاذه الشيخ المفيد حسبما اقترحه عليه ذلك الصديق لأنها حسب تعبيره: «شافية في معانيها كافية في أكثر ما يحتاج إليه من أحكام الشريعة وأمّها بعيدة عن الحشو».

ثم يترجم كل باب حسبما يترجمه صاحب المقنعة أي يجعل عناوين الأبواب كعناوين أبواب المقنعة ثم يذكره مسألة مسألة فيستدل عليها ويجعله «مقصوراً على ما

تضمّنته الرسالة من الفتوى ولم يقصد زيادة عليها» كما قرّره أخيراً.

الثاني في أسلوب التأليف:

فهو لأجل أن يشرح المسألة يتّبع ما يلي:

١. يستدلّ عليها أمّا من ظاهر القرآن الكريم أو صريحه أو فحواه أو دليله أو معناه وأمّا من السنة المقطوع بها بالتواتر او بالقرائن، وأمّا من إجماع المسلمين أو إجماع الفرقة المحقّة أي الإمامية الإثنى عشرية، ويقصد بالسنة المقطوع بها التي يعبر عنها بالأخبار وهي الأخبار التي يرويها أهل السنة ونفهم ذلك من مقابلتها فيما يأتي بتعبيره «أحاديث أئمتنا» ومن تصريحه بذلك في مقدمة المشيخة وستأتي الإشارة إليه.

٢. يذكر بعد ذلك ما ورد من أحاديث أصحابنا «أي الإثنى عشرية» المشهورة في ذلك وينظر بعد ذلك فيما ينافيها ويضادها.

٣. يبيّن الوجه في المنافية للمشهورة أمّا بتأويل يجمع بينهما أو يذكر وجه الفساد في المنافية من سنة أو من عمل على خلافها.

فلو اتّفق الخبران على وجه لا ترجيح لأحدهما على الآخر أي تعادلاً في الترجيح بميزان العمل يجب أن يكون الأخذ بما يوافق الأصل ويترك ما يخالفه.

وكذلك إذا كان الحكم مما لا نص فيه على التعيين حمله على ما يقتضيه الأصل فهو – على هذا – يسعى جهده للتوفيق بين المتنافيات من الأحاديث ومهما تمكّن من التأويل من غير طعن في سند أحدهما فإنّه لا يتعداه أي إنّه لا يتسرّع في الظنّ بسند الحديث إلاّ إذا اقتضت الضرورة عند العجز عن التوفيق.

٤. يجتهد في أن يرى حديثاً يكون شاهداً على الجمع والتأويل أمّا بصريحه أو بفحواه حتى يكون عمله على الفتيا والتأويل معاً بالأثر وإن كان لا يرى من الواجب أن يلتمّس

الشاهد وإنّما يلتمسه لأنّه مما يؤنس بالتمسّك بالأحاديث ثم يقول بالأخير: (وأجري على عادتي هذه إلى آخر الكتاب).

ومن هذا الأسلوب في الشرح الذي يقرّره يظهر لنا أنّ كتابه ليس كسائر كتب الحديث لجمع الأخبار خاصّة كالكافي ومن لا يحضره الفقيه وهذه الطريقة من الجمع والتأويل والتعادل والتراجيح استوحاها من غايته الكلامية التي أشرنا إليها.

ولقد كان (رحمه الله) في طريقته هذه بارعاً كلّ البراعة وموفّقاً كلّ التوفيق في أكثر تأويلاته وجمعه لم يسبقه إلى نظيرها أحد من المؤلفين وبهذا امتاز على كتابي الكافي ومن لا يحضره الفقيه وذلك من ناحية النظر في المتعارضات والجمع بينها.

ولكن يبقى التساؤل: أنّه هل حافظ الشيخ على منهاجه هذا إلى آخر الكتاب كما وعد في كلمته الأخيرة التي نقلناها؟ وقبل أن نفتّش بأنفسنا في غضون الكتاب لنرجع إلى المؤلّف نفسه فإنه يحدّثنا في مقدّمة المشيخة التي وضعها خاتمة لكتابه أنّه عدل على ذلك المنهج فإنّه يقول: «كنّا شرطنا في أول الكتاب أن نقتصر على إيراد شرح ما تضمنته المقنعة وأن نذكر مسألة مسألة ونورد فيها من الاحتجاج من الظواهر والأدلة المفضية إلى العلم ونذكر مع ذلك طرفاً من الأخبار التي رواها مخالفونا ثم نذكر بعد ذلك ما يتعلق به أحاديث أصحابنا ونورد المختلف في كل مسألة منها والمتفق عليها، ووفينا بهذا الشرط في أكثر ما يحتوي عليه كتاب الطهارة، ثم رأينا أن نخرج بهذا البسط عن الغرض ويكون مع هذا الكتاب مبتوراً غير مستوفى».

«فعدلنا عن هذه الطريقة إلى إيراد أحاديث أصحابنا رحمهم الله المختلف فيه والمتّفق ثم رأينا بعد ذلك أن استيفاء ما يتعلق بهذا المنهاج أولى من الإطناب في غيره فرجعنا وأوردنا من الزيادات ما كنّا أخللنا به».

فهو إذن قد عدل عن منهاج بحثه في الأساسين معاً فلم يتقيّد بما تضمّنته المقنعة

واقتصر على أحاديث أصحابنا والدافع له إلى هذا العدول حسب تصريحه هو تلك الغاية الكلاميّة. وفي الحقيقة أن هذه الغاية هي التي تحكّمت في هذا الكتاب وجعلته الوحيد من نوعه في أسلوبه ومنهاجه فجاء بآراء في الجمع والتأويل لا يزال أكثرها معمولاً بها عند المجتهدين.

وجاءت (الزيادات) التي أشار اليها في آخر كتاب الطهارة واسعة كمستدرك على أصل الكتاب، وقد خالف فيها المألوف إذ يضع المؤلّفون المستدرك في كتاب مستقل ولكنه أبى إلاّ أن يسمّي المستدركات بباب الزيادات كأنّها جزء من أبواب الكتاب الأصلي، وهي لم تختص بكتاب الطهارة كما يبدو من عبارته بل كان يأتي بها لأكثر الكتب الفقهية.

نوع نقل الحديث في الكتاب

بعد أن تحقّقنا من منهاجه وعرفنا أن اختص بالأخير بالأحاديث لنعرف الآن كيف سلك في نقل الحديث فإنّ هناك طريقتين:

(الأولى) طريقة الكافي وهي أن يذكر في كل حديث نصّ السند كاملاً.

(الثانية) طريقة من لا يحضره الفقيه وهي أن يحذف السند ويشرح في موضع آخر سنده إلى كل راوٍ بالتفصيل.

ولكن التهذيب قد جمع بين الطريقتين أمّا في كتاب الطهارة فهو يذكر السند غالباً كاملاً، وفي باقي الكتاب كثيراً ما يبتر مقدّمة السند فينقل رأساً عن الأصل ويترك ذكر طريقه إليه فلذا التجأ في الخاتمة إلى ذكر مشيخته الذين يروي عنهم الأصول والكتب لتخرج بذلك – كما قال – عن حد المراسيل وتلتحق بباب المسندات.

مؤاخذات الكتاب

أخذت على الكتاب عدّة أمور لها تأثيرها في قيمته العلميّة باعتباره مرجعاً للمجتهدين يعتمد عليه في استقاء الآراء الفقهية من جهة وباعتباره مصدراً وأصلاً من أصول الحديث يوثّق به من جهة أخرى.

فيجب علينا النظر في هذه المؤاخذات في صبر العالم المتثبّت من غير تحيّز لما في ذلك من الأثر على الناحية الفقهية وهي منظورنا الأول في بحثنا هذا وعليه فنقول:

أولى الملاحظات: أن الكتاب حذف كثيراً من سند الأحاديث اعتماداً على ما يذكره في خاتمة الكتاب من « المشيخة» لتخرج عن حدّ المراسيل كما أشرنا إلى ذلك في البحث السابق، ولكنّه بالأخير لم يذكر جميع الطرق التي له بل أحال بيانها على كتابه الفهرست وعلى فهارس شيوخه، والإحالة على الفهرست كانت موفّقة لأنّ هذا الكتاب استطاع أن يحافظ على نفسه من عوادي الدهر فبقى حتى اليوم بين أيدينا وقد طبع مرتين[1]، أمّا فهارس شيوخه فقد فقدت منا ولم يبق لها أثر بين أيدي الناس من القديم. ولأجل هذا بقيت جملة من الأحاديث منه مرسلة بغير إسناد معروف، ولكنّ الفاضل الأردبيلي في خاتمة جامع الرواة[2] تمكن من إصلاح جملة من الطرق التي كانت مغفلة وقد صنع في

---

(١) صدرت الطبعة الأولى (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م) بعناية المكتبة الحيدرية في النجف بتحقيق وتقديم السيد محمد صادق بحر العلوم (قدس ثراه).

(٢) هو الشيخ محمد بن علي الأردبيلي الغروي الحائري وكتابه (جامع الرواة وإزاحة الاشتباهات عن الطرق والإسناد) وقد أنهى كتابه هذا بخاتمة ضمّنها رسالته في تصحيح الأسانيد ألمح في الفائدة الرابعة إلى أصحاب الأصول والمصنّفات الذين لم تذكر طرقهم في مشيخة كتاب التهذيب للطوسي بقوله: (..وأيضاً رأيت الشيخ (رحمه الله) يروي الحديث عن أناس أخر معلقاً وليس له في المشيخة ولا في الفهرست إليهم طريق... إلى أن ألقي في روعي أن أنظر في أسانيد التهذيب والاستبصار لعل الله يفتح إلى ذلك باباً، فلمّا رجعت إليهما فتح الله إلي أبواباً، فوجدت لكل من الأصول والكتب طرقاً كثيرة غير مذكورة فيهما، أكثرها موصوفة بالصحة والاعتبار).

ذلك رسالة سماها «تصحيح الأسانيد» تقع في ٥٧ صحيفة .

وثاني الملاحظات: ما لهج به الشيخ الحلي ابن إدريس فقد قال في سرائره «كتاب الميراث في ميراث المجوسي ص٤١٠»: (قد صنّف كتباً أخبارية أكبرها تهذيب الكلام أورد فيه من كل غث وسمين)، ويقصد بالغث حسبما يقتضيه بحثه في تلك المسألة وجود روايات غير معتمدة لا يصح الأخذ بها.

وأحسب أن السرّ في إكثاره من نقد التهذيب في الرواية اختلافه مع الشيخ في الخبر الواحد لأنّ الشيخ من القائلين بحجيته وهو ينكرها تبعاً للسيد المرتضى علم الهدى كما صرّح به في خطبة السرائر وكرّره في غضونها قال في الصفحة ٢٤: «فلا يجوز الرجوع إليها – أي أخبار الآحاد – لأن خبر الواحد لا توجب علماً ولا عملاً كائناً من كان راويه»، وزاد على ذلك فادعى إجماع علماء الإمامية فقال: «أنّ مذهب أصحابنا ترك العمل بأخبار الآحاد ما خالف فيه أحد منهم».

وإذا كان هذا رأيه في خبر الواحد فما تظنّه يقابل أخبار الآحاد التي يرويها الشيخ في التهذيب وغيره إلاّ أن يعتبرها غثّاً، ولذلك رأى من اللاّزم عليه أن يوجّه إليه شبه النصيحة القارصة في قوله في كتاب الرهون الصفحة ٢٦١: «وله توسّطات عجيبة لا أستجملها له والذي حمله على ذلك جمعه بين المتضادات وهذا لا حاجة فيه بل الواجب الأخذ بالأدلة القاطعة للأعذار وترك أخبار الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً فإنه أسلم للديانة لأن الله تعالى ما كلّفنا إلاّ بالأخذ بالأدلة وترك ما عداها».

ونحن نقول لشيخنا المتبحّر ابن إدريس: إنّك تفرّدّت مع جماعة معروفة وهم السيد المرتضى وابن زهرة والطبرسي الذي جاء بعدكم بإطراح أخبار الآحاد، وخالفتم في ذلك علماء الطائفة وعلى رأسها شيخها ورئيسها أبو جعفر الطوسي فحق أن ترضى أخبار الآحاد التي يرويها الثقات غثّاً، ولكن العلماء يرونها من السمين الذي يجب أن

يؤخذ به في حدود مدوّنة في كتب علم الأصول، وقد اتّضح ذلك للذين جاءوا بعدكم من المحقق الحلي المتوفي سنة ٦٧٦هـ إلى يومنا هذا وذلك ما أوضحه الشيخ وبرهن عليه في كتاب العدة وغيره بل أنّ الطعون المأخوذة على ابن إدريس نفسه إنكاره العمل بخبر الواحد ومن العجيب – وهو يستغرب رواية خبر الواحد والاعتماد عليها – يحاول مرة بعد أخرى الاعتذار عن الشيخ في إيراده أخبار الآحاد بأنّه يوردها للتدوين لا للعمل لا سيما عن كتابه النهاية راجع السرائر ص١٧ و١٨ و٨٨ و١٦٦ و٣٧٩ وغيرها.

والأعجب من ذلك أن ينسب إلى الشيخ إنكار العمل بخبر الواحد فيقول ص ٢١٨: وإن وجد له في بعض كتبه كلام يدل على أنّه يعمل بأخبار الآحاد فقد يوجد له في معظم كتبه وتصانيفه كلام يدل على إنّه غير عامل بأخبار الآحاد ويوجد ذلك في استبصاره كثيراً فإنه يقول هذا خبر واحد وأخبار الآحاد عندنا غير معمول بها».

وكأنّه لهذا الكلام يريد احتواء التهذيب على الغثّ باعتراف الشيخ ولكن الشيخ في خطبة الاستبصار نفسه يصرّح بجواز العمل بخبر الواحد ويذكر وجوه المعارضات والترجيح بين أخبار الآحاد، وكذلك في معظم كتبه ولاسيما العدة. ولم نعثر في الاستبصار على تصريح له بعدم العمل بخبر الواحد بنحو العموم إلاّ ما قد يقول عن بعض الأخبار أنّه شاذ أو مرسل لا يعمل به ونحو ذلك.

ونعود فنقول لابن إدريس: إن كنت أردت من الغثّ أخبار الآحاد فهو ليس من الغث كما تصوّرته وحاولت من الشيخ الاعتراف به وإن أردت شيئاً آخر فما هو؟ لعلّك تريد أنّه يروي عمّن لا يعوّل عليه والشيخ يشترط في قبول الراوي أن يكون إمامياً عدلاً، وذلك عندما انتقدت الشيخ في روايته عن السكوني إسماعيل بن زياد ص٤١٠ من السرائر: «هو – السكوني – عامي المذهب بغير خلاف وشيخنا أبو جعفر موافق على ذلك وقائل به ذكره في فهرست أسماء المصنفين» ثم قلت: «فإن كان عاملاً

بأخبار الآحاد فلا يجوز أن يعمل بهذه الرواية إذا سلّمنا له العمل بأخبار الآحاد تسليم جدل» وقلت ص٢٤٢: «وهذا – يعني السكوني – عامي المذهب وإن كان يروي عن الصادق عليه السلام فكيف ترك الأدلة الظاهرة – يعني الشيخ – لرواية هذا الرجل» ولكنّ السكوني هذا قد ذكره الشيخ في الفهرست غير أنّه لم ينصّ على أنّه ليس بإمامي والمعروف عن طريقته أنّ من لم ينص عليه فهو عنده إمامي، فمن أين حكمت أنّه موافق على أنّه عامي المذهب؟ على أنّه ذكره في رجاله من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ومن يذكره في أصحاب الإمام الصادق من دون نص على مذهبه فهو إمامي عنده، ثم أنّه نقل عن الشيخ في عدته أنّه ذكره بالتوثيق وادّعى الإجماع على العمل بروايته.

وكفى ما قاله السيد الداماد في رواشحه كما نقل عنه: «فإذن رواياته ليست ضعافاً بل هي من الموثقات المعوّل عليها والطعن فيه بالضعف من ضعف التمهّر وقصور التتبّع».

وثالث الملاحظات: ما نقله صاحب لؤلؤة البحرين[1] عن بعض مشايخه المعاصرين في بعض إجازاته ولم يصرح باسمه قال هذا البعض بعد الثناء على الشيخ: «إلاّ إنّه كثير الاختلاف في الأقوال وقد وقع له خبط عظيم في كتابي الأخبار في تمحله للاحتمالات البعيدة والتوجيهات الغير السديدة» ويظهر أنّ صاحب اللؤلؤة أمضاه على هذا الرأي في حق الشيخ.

والحق أنّ الشيخ أوّل باحث نقد الأحاديث وحاول الجمع بين مختلفاتها ومتعارضاتها لتلك الغاية الكلامية التي أشرنا إليها فلذلك بذل جهداً عظيماً في هذه الناحية لم يسبق إليها سابق وبرع فيها براعة قد لا تتأتى لمثله، وهو مجتهد بحق لم نعرف

(١) هو الشيخ يوسف الدرازي البحراني صاحب الحدائق الناضرة (١١٠٧ – ١١٨٦هـ) ومؤلّف كتاب لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث طبع بتصحيح وتعليق السيد محمد صادق بحر العلوم.

له نظيراً ولا يمكن لإنسان مجتهد باحث أن يسلم من غفلة أو خطأة ولا يمكن لمجتهد آخر أن يقره على كل ما رآه الأوّل مع طبيعة الاختلاف في البشر قابليّة وذكاء وفطنة وتمكناً من البحث. وليس ما وقع فيه من بعض الخطئات شيئاً يذكر في جنب ما في كتابه من دقائق نفيسة وآراء ناضجة وترجيحات مستقيمة ومحاسن لا تقدّر بقيمة.

أمّا أن يقال عن الشيخ أنّه وقع له خبط عظيم فذلك تجنّ وظلم عظيم ولكنّها تلك شنشنة نعرفها من أخزم فإن مثل هذا القائل يريد من الناظر في الأحاديث ألاّ يفتح فاه بكلمة يشمّ منها رائحة الرأي في الحديث أو ترجيح بعضها على بعضها أو تأويله بل يبقى الناظر مطموس الفهم أعمى الرأي لا يفكر ولا يرجّح. فكل ترجيح وتأويل وكل رأي ونظر هو عنده خبط عظيم، ولذا إنّ هذا القائل بالذات استحسن كتاب النهاية للشيخ إذ اختصر فيه على مضمون الأخبار فقال عنه: «في كتاب النهاية سلك مسلك الأخباري الصرف» ثم قال: «وهذه هي الطريقة المحمودة والغاية المقصودة»!. ولكنّ الشيخ حينما ذكر مضمون بعض الأخبار قد ألغى ما يعارضها ويخالفها لترجيح ما ذكره على غيره لوجه من الوجوه التي يذكرها في التهذيب والاستبصار إذ لم يصرّح بتلك الوجوه فلابد أنّه أعمل رأيه وتأويله، وإلاّ فذكر جميع الأخبار متّفقاتها ومتعارضاتها.

ورابع الملاحظات: ما قاله صاحب اللؤلؤة بعد أن ذكر كلام ذلك القائل بعض مشايخه المعاصرين فإنّه بعد أن أثنى عليه قال: «وقد غفل عن شيء آخر هو أشد مما ذكره لمن تأمل بحقيقة النظر وهو ما وقع للشيخ المذكور سيما في التهذيب من السهو والغفلة والتحريف والنقصان في متون الأخبار وأسانيدها وقلماً يخلو خبر من علّة من ذلك.

وأنّي شخصياً قد تثبّت كثيراً من أحاديث التهذيب وطابقتها مع متون أحاديث الكافي فعثرت على جملة من الاختلاف في المتون بكلمة أو كلمتين وعلى الأكثر لا تخل بالمعنى والمقصود والذي يبدو للمتتبّع أنّ الشيخ الكليني كان أضبط في نقل الحديث

وهو أسبق منه فعند تعارض النصين مع اتحاد الرواية مسنداً حيث يبدو اتحادهما متناً يكون الترجيح – لا شك – لمتن الكافي عند الاطمئنان من صحة النسخة.

وتلك ميزة للكافي على التهذيب بل لا يمكن الاستبصار لباحث أن ينكرها. وأبرز مثال لهذا الأمر رواية ثلاثة أشبار ونصف فقد ذكر في الكافي بُعدين وكذا في الاستبصار ولكن في التهذيب أضاف بُعداً ثالثاً مما يجلب الانتباه إلى أنّه زيادة في نسخة التهذيب لأن السند واحد في الجميع.[1]

(١) إلى هنا ما استطعنا الحصول عليه من دراسة المظفر للشيخ الطوسي والظاهر أنّه لم يتمّها كما أشار في بحثه لذلك.

العالم الإلهي

المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي

(١١٢٨- ١٢٠٩)

نشرت هذه الدراسة مقدمة في الجزء الأول لكتاب جامع السعادات في الطبعة الأولى بعناية جامعة النجف الأشرف وتحقيق السيد محمد كلانتر ومشاركة الشيخ المظفر والسيد مرتضى الخلخالي - مطبعة النجف ١٣٨٣ -١٩٦٣

المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي

أصله ونسبه

هو الشيخ الجليل المولى (محمد مهدي بن أبي ذر النراقي) أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة، ومن أصحاب التأليفات القيمة. ويكاد أن يعد في الدرجة الثانية أو الثالثة من مشاهير علماء القرنين.

وهو عصامي لا يُعرف عن والده (أبي ذر) إلاّ أنّه كان موظّفاً في الدولة الإيرانية بوظيفة صغيرة في قرية (نراق)، ولولا ابنه هذا لذهب ذكره في طيّات التأريخ كملايين البشر من أمثاله ولا يعلم ما إذا كان لشيخنا النراقي إخوة، ولكن له ولد نابه الذكر، هو المولى أحمد النراقي المتوفى ١٢٤٤هـ، صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه، وصاحب التأليفات الثمينة، أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر. وكفاه فخراً أنه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الانصاري المتوفى ١٢٨١هـ.

ولعل النراقي الصغير هذا هو من أهم أسباب شهرة والده وذيوع صيته، لما وطيء عقبه وناف عليه بدقة النظر وجودة التأليف كما حذا حذوه في تأليفاته فإن الأب المكرّم ألّف في الفقه (معتمد الشيعة). والابن الجليل ألّف (مستندها). وذاك ألّف في الأخلاق (جامع السعادات) – هذا الكتاب الذي نقدمه – وهذا ألّف (معراج السعادة) في الفارسية وذاك ألّف (مشكلات العلوم) وهذا ألّف (الخزائن)... وهكذا نسج على منواله وأحكم النسج.

مولده ووفاته

ولد الشيخ المترجم له – رحمه اللهّ تعالى – في (نراق) كعراق[١]، وهي قرية من قرى كاشان بإيران تبعد عنها عشرة فراسخ وكذا كانت مسقط رأس ولده المتقدّم الذكر ولم يذكر التأريخ سنة ولادته، وعلى التقريب يمكن استخراجها من بعض المقارنات التأريخية، فإنه تلمذ – في أوّل نشأته على ما يظهر – على الشيخ المحقّق الحكيم المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة، مع العلم أن أستاذه هذا توفى عام ١١٧٣هـ فتكون أول تلمذته عليه عام ١١٤٣هـ على أقل تقدير، إذا فرضنا أنّه لازمه إلى حين وفاته. ولنفرض على أقرب تقدير أنّه قد حضر عليه وهو في سن ١٥ عاماً. وعليه فتكون ولادته عام ١١٢٨هـ أو قبل ذلك.

أما وفاته فقد كانت عام ١٢٠٩ هـ في النجف الأشرف، ودفن فيها[٢]، فيكون قد بقي بعد وفاة أستاذه الوحيد البهبهاني سنة واحدة، ويكون عمره ٨١ عاماً على الأقل .

وفي (رياض الجنة) المخطوط، تأليف السيد حسن الزنوزي[٣] المعاصر للمترجم له – حسب نقل الأستاذ حسن النراقي –: أنّ عمره كان ٦٣ سنة، فتكون ولادته سنة ١١٤٦هـ وهذا لا يتفق أبداً مع ما هو معروف في تأريخه: أنّه تلمذ على المولى إسماعيل الخاجوئي ثلاثين سنة، لأنه يكون عمره على حسب هذا التأريخ حين وفاة استاذه ٢٧ سنة فقط.

---

(١) وفي أعيان الشيعة (١٠ :٢٥٠) أنها بفتح النون (م ظ).

(٢) هذا ما يتجه إليه الشيخ المظفر – كما سيأتي – ويرى البعض أنّه توفيّ في كاشان ليلة السبت الثامن من شهر شعبان ونقل جثمانه إلى النجف ودفن جنب إيوان العلماء في الصحن الحيدري الشريف. أنظر كاظم عبود الفتلاوي. مشاهير المدفونين في الصحن العلوي الشريف: ٣٤٠.

(٣) السيد (الميرزا) محمد حسن الزنوزي (الخوئي) (التبريزي) المتوفى ١٢٤٦هـ. المصدر السابق ١٠: ١٦٣، الذريعة للطهراني ٢١: ٧٤.

نشأته العلمية واساتذته

عاش شيخنا كما يعيش عشرات الآلاف من أمثاله من طلاّب العلم: خامل الذكر، فقير الحال، منزوياً في مدرسته، لا يعرف من حاله إلاّ أنّه طالب مهاجر، ولا يتصل به إلاّ أقرانه في دروسه، الذين لا يهمهم من شأنه إلاّ أنّه طالب كسائر الطلاب، يتردّد في حياة رتيبة بين غرفته ومجالس دروسه، ثم بعد ذلك لا ينكشف لهم من حاله إلاّ بزّته الرثة التي ألفوا منظرها في آلاف طلاّب العلم، فلا تثير اهتمامهم ولا اهتمام الناس.

وبطبيعة الحال لا يسجّل له التأريخ شيئاً في هذه النشأة، وكذلك كلّ طالب علم لا يسجّل حتى اسمه ما لم يبلغ درجة يرجع إليه الطلاّب في تدريس، أو الناس في تقليد، أو تكون له مؤلّفات تشتهر. ومن هنا نبتدئ معرفة حياة الرجل العالم، وتظهر آثاره ويلمع اسمه.

ومع ذلك، فإنّا نعرف عن شيخنا: أن أسبق أساتذته وأكثرهم حضوراً عنده هو المولى إسماعيل الخاجوئي المتقدم الذكر. وهذا الأستاذ كان مقرّه في أصفهان، وفيها توفى ودفن. والظاهر أنّه لم ينتقل عنها حتى في الكارثة التاريخية المفجعة التي أصابتها من الأفغانيين الذين انتهكوها بما لم يحدث التأريخ عن مثلها، وذلك سنة ١١٣٤هـ .

فتكون نشأة شيخنا المترجم له العلميّة في مبدأ تحصيله في أصفهان على هذا الشيخ الجليل والظاهر أنّه عليه قرأ الفلسفة لأن هذا الشيخ من أساتذة الفلسفة المعروفين الذين تنتهي تلمذتهم في ذلك العصر إلى المولى صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار. وكفى أنّ من تلاميذه المولى محراب الالهي المعروف الذي طورد لقوله بوحدة الوجود ولما جاء إلى إحدى العتبات المقدّسة متخفياً وجد في الحرم شيخاً ناسكاً يسبح بلعن ملا صدرا وملاّ محراب. ولمّا سأله عن السبب في لعنهما قال: لأنّهما يقولان (بوحدة واجب الوجود) فقال له ساخراً: إنّهما حقّاً يستحقان منك اللّعن!

ودرس أيضاً شيخنا المترجم له – والظاهر أن ذلك في أصفهان أيضاً – على العالمين الكبيرين: الشيخ محمد بن الحكيم العالم الحاج محمد زمان والشيخ محمد مهدي الهرندي وهما من أساتذة الفلسفة على ما يظهر.

ولا شك أنّه انتقل إلى كربلاء والنجف فدرس على الأعلام الثلاثة: الوحيد البهبهاني الآتي ذكره – وهو آخر أساتذته وأعظمهم وتخريجه كان على يديه – والفقيه العالم صاحب الحدائق الشيخ يوسف البحراني المتوفّى ١١٨٦هـ، والمحقّق الجليل الشيخ مهدي الفتوني المتوفى ١١٨٣هـ.

فجملة أساتذته سبعة، سماهم ولده في بعض إجازاته على ما نقل عنه بـ(الكواكب السبعة). وهم خيرة علماء ذلك العصر، وعلى رأسهم الآقا الوحيد أستاذ الأساتذة.

ولما فرغ هذا الشيخ من التحصيل في كربلاء، رجع إلى بلاده واستقام في كاشان. وهناك أسّس له مركزاً علميّاً تشد إليه الرحال، بعد أن كانت كاشان مقفرة من العلم والعلماء، واستمرت بعده على ذلك مركزاً من مراكز العلم في إيران، وليس لدينا ما يشير إلى تأريخ انتقاله إلى كاشان.

ورجع إلى العراق وتوفى في النجف الأشرف ودفن فيها والظاهر أنّ مجيئه هذا – وكان معه ولده – بعد أستاذه الوحيد جاء لزيارة المشاهد المقدسة فتوفّي. أمّا ولده فقد بقي بعده ليدرس العلم على أعلامه يومئذ كبحر العلوم وكاشف الغطاء.

عصره

يمضي القرن الثاني عشر للهجرة على العتبات المقدسة في العراق، بل على أكثر المدن الشيعية في إيران التي فيها مركز الدراسة الدينية العالية – كأصفهان وشيراز وخراسان – وتطغى فيه ظاهرتان غريبتان على السلوك الديني:

الأولى: النزعة الصوفيّة التي جرّت إلى مغالاة فرقة الكشفيّة.

والثانية: النزعة الإخبارية.

وهذه الأخيرة خاصة ظهرت في ذلك القرن قوية مسيطرة على التفكير الدراسي وتدعو إلى نفسها بصراحة لا هوادة فيها حتى أنّ الطالب الديني في مدينة كربلاء خاصة أصبح يجاهر بتطرّفه ويغالي فلا يحمل مؤلّفات العلماء الأصوليين إلاّ بمنديل خشية أنّ تنجّس يده من ملامسة حتى جلدها الجاف وكربلاء يومئذ أكبر مركز علمي للبلاد الشيعية.

وفي الحقيقة أنّ هذا القرن يمرّ والروح العلميّة فاترة إلى حدّ بعيد حتى أنّه بعد الشيخ المجلسي صاحب البحار المتوفى في أول هذا القرن عام ١١١٠هـ لم تجد واحداً من الفقهاء الأصوليين من يلمع اسمه ويستحق أن يجعل في الطبقة الأولى أو تكون له الرئاسة العامة إلاّ من ظهر في أواخر القرن كالشيخ الفتوني الجليل في النجف المتوفى ١١٨٣هـ، ثم الشيخ آقا الوحيد البهبهاني في كربلاء المتوفى ١٢٠٨هـ الذي تمّ على يديه تحول العلم إلى ناحية جديدة من التحقيق.

وهذا الفتور العلمي، وطغيان نزعة التصوّف من جهة، ونزعة الإخبارية من جهة أخرى في هذا القرن بالخصوص ممّا يدعو إلى التفكير والعجب وليس بأيدينا من المصادر ما يكفي للجزم بأسباب ذلك. وأغلب الظن أنّ أهمّ الأسباب التي نستطيع الوثوق بها هو الوضع السياسي والاجتماعي اللّذان آلت إليهما البلاد الإسلامية في ذلك القرن من نحو التفكّك واختلال الأمن في جميع أطراف البلاد، والحروب الطاحنة بين الأمراء والدول لا سيما بين الحكومتين الإيرانية والعثمانية وبين الإيرانية والأفغانية تلك الحروب التي اصطبغت على الأكثر بصبغة مذهبيّة وهذا كلّه مما يسبب البلبلة في الأفكار والاتجاهات وضعف الروح العامة المعنويّة.

فأوجب ذلك من جهة ضعف ارتباط رجال الدين بالحياة الواقعيّة والسلطات الزمنيّة ويدعو ذلك عادة إلى الزهد المغالي في جميع شؤون الحياة، واليأس من الإصلاح فتنشأ هنا نزعة التصوّف وتتّخذ يومئذ صرحاً علميّاً على أنقاض الفلسفة الإشراقيّة الإسلاميّة المطاردة المكبوتة التي سبق أن دعا لها أنصار أقوياء كالمولى صدر الدين الشيرازي المتوفى عام ١٠٥٠هـ وأضرابه واتباعه، مع المغالاة في أفكارها. وساند طريقة التصوّف مبدئيّاً أنّ السلطة الزمنيّة في إيران – وهي (سلطة الصفويين) – قامت على أساس الدعوة إلى التصوّف وظلّت تؤيّدها وتمدّها سرّاً.

ومن جهة أخرى يحدث رد فعل لهذا الغلوّ فينكر على الناس أن يركنوا إلى العقل وتفكيره ويلتجأ إلى تفسير التعبّد بما جاء به الشارع المقدّس بمعنى الاقتصار على الأخبار الواردة في الكتب الموثوق بها في كل شيء والجمود على ظواهرها ثم يدعو الغلوّ بهؤلاء إلى ادعاء أنّ كل تلك الأخبار مقطوعة الصدور على ما فيها من اختلاف ثم يشتدّ بهم الغلو فيقولون بعدم جواز الأخذ بظواهر القرآن وحده من دون الرجوع إلى الأخبار الواردة ثم ضربوا بعد ذلك علم الأصول عرض الجدار بادعاء أنّ مبانيه كلّها عقليّة لا تستند إلى الأخبار، والعقل أبداً لا يجوز الركون إليه في كل شيء ثم ينكرون الاجتهاد وجواز التقليد، وهكذا تنشأ فكرة الإخبارية الحديثة التي أول من دعا إليها أو غالى في الدعوة إليها المولى أمين الدين الأسترابادي المتوفى ١٠٣٣هـ ثم يظهر آخر شخص لهذه النزعة له مكانته العلمية المحترمة في الفقه هو صاحب الحدائق المتقدم ذكره وهذا الثاني – وإن كان أكثر اعتدالاً من الأول واضرابه – كاد أن يتمّ على يديه تحوّل الاتجاه الفكري بين طلاّب العلم في كربلاء إلى اعتناق فكرة الإخبارية هذه.

وعندما وصلت هذه الفكرة الإخبارية إلى أوجها ظهر في كربلاء علم الأعلام الشيخ الوحيد آقا البهبهاني (١١١٨ – ١٢٠٦هـ) الذي قيل عنه بحق: مجدّد المذهب على

رأس المائة الثالثة عشرة فإنّ هذا العالم الجليل كان لبقاً مفوّهاً ومجاهداً خيراً، فقد شنّ على الإخبارية هجوماً عنيفاً بمؤلّفاته وبمحاججاته الشفويّة الحادّة مع علمائها – وقد نقل في بعض فوائد الحائرية ورسائله نماذج منها – وبدروسه القيّمة التي كان يلقيها على تلامذته الكثيرين الذين التفّوا حوله، وعلى يديه كان ابتداء تطوّر علم الأصول الحديث وخروجه عن جموده الذي ألّفه عدّة قرون واتجه التفكير العلمي إلى ناحية جديدة غير مألوفة فانكمشت في عصره النزعة الإخباريّة على نفسها ولم تستطع أن تثبت أمام قوّة حجّته، وتخرّج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الأمّة كبحر العلوم، وكاشف الغطاء، والمحقّق القمّي، والشيخ النراقي – المترجم له – وأشباههم.

فيبرز شيخنا المترجم له في عنفوان المعركة الإخباريّة والأصوليّة وساحتها كربلاء، وفي عنفوان معركة الدعوة إلى التصوّف وساحتها أصفهان على الأكثر، فيكون أحد أبطال هاتين المعركتين بل أحد القوّاد الذين رفعوا راية الجهاد بمؤلّفاته وتدريسه، وساعده على ذلك – أنّه رحمه الله – كان متفنّناً في دراسة العلوم ولم يقتصر على الفقه والأصول ومقدّماتهما فقد شارك العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة، وله مؤلفات فيها سيأتي ذكرها. كما درّس الفلسفة، ويظهر أثر تضلّعه في الفلسفة في كتابه هذا (جامع السعادات) لا سيما في الباب الأوّل، وفي تقسيمه لأبواب الكتاب وفصوله على أساس علمي متقن برز فيه على كتب الأخلاق السابقة عليه من هذه الناحية وسيأتي بيان ذلك.

كما أنّ تأليفه لهذا الكتاب يشعرنا **بأمرين**:

(الأول) طغيان التصوّف من جهة، وطغيان التفكّك الأخلاقي عند العامة من جهة أخرى، وأنّهما هما اللّذان ألجأه إلى أن يرشد الناس إلى الاعتدال في السلوك الأخلاقي المستقى من منابعه الشرعية فإنّه في الوقت الذي يبني كتابه على مبادئ الفلسفة الإشراقية

حارب فيه من طرف خفي نزعة التصوّف وجعل آراءه ودعوته إلى الأخلاق على أساس الذوق الإسلامي الذي يتمثّل في الأحاديث النبويّة وما جاء عن آل البيت عليهم السلام فهو في وقت واحد هادم وبان، وبهذا يختلف كتابه عن مثل (إحياء العلوم) الذي يعتمد بالدرجة الأولى على الروح الصوفيّة وهي غايته المثلى.

و(الثاني) من الأمرين حسن اختيار صاحب الترجمة فإنّه لم يسبقه أحد من علماء الإمامية – بعد خرّيت هذه الصناعة ابن مسكويه المتوفى ٤٢١هـ، والشيخ المولى محسن الفيض المتوفى ١٠٩١هـ – إلى تأليف كتاب كامل في الأخلاق مبني على أساس علمي فلسفي موجود بين أيدينا.

شخصية المترجم له واخلاقه

إن أعاظم الناس ونوابغهم لا تأتيهم العظمة والنبوغ عفواً ومصادفة، من دون قوة كامنة في شخصيّتهم أو ملكة راسخة في نفوسهم هي سرّ عظمتهم وتفوّقهم على سائر الناس. وما كلمة الحظّ في هذا الباب إلاّ تعبير مبهم عن تلك القوّة التي أودعها اللهّ تعالى شخص النابغة. وقد تكون تلك القوّة مجهولة حتى لشخص صاحبها الذي يتحلّى بها، بل على الأكثر هي كذلك، فيندفع العبقري إلى تلك القمّة التي خلقت له أو خلق لها بدافع تلك القوّة الكامنة اندفاعاً لا شعورياً، وإن كانت أعماله الجزئية التي يقوم بها هي شعورية بمحض اختياره.

وتلاحظ قوّة شخصيّة شيخنا المترجَم له في صبره وقوة إرادته وتفانيه في طلب العلم، ثم عزّة نفسه، وإن كانت هذه ألفاظاً عامّة قد يعبّر بها عن كثير من الناس، ويصحّ التعبير بها بلا كذب ولا خداع، إلاّ أنّ الدرجة الخاصّة من الصبر والإرادة والحبّ والعزّة ونحوها التي بها يمتاز الشخص النابغ تضيق اللّغة عن التعبير عنها بخصوصها إلاّ بهذه الألفاظ العامّة الدارجة وتظهر الدرجة الخاصة التي يختصّ بها صاحبنا من هذه الأمور

في ثلاث حوادث منقولة عنه:

(الأولى) – فيما ينقل أنّه كان في أيّام التحصيل في غاية الفقر والفاقة – والفقر دائماً شيمة العلماء، بل هو من أوّل شروط النبوغ في العلم، وهو الذي يصقل النفس فيظهر جوهرها الحقيقي فكان صاحبنا قد تشتد به الفاقة فيعجز عن تدبير ثمن السراج الذي لا يتجاوز في عصره عن أن يكون من زيت أو شمع فيدعوه حرصه على العلم إلى الدخول في بيوت مراحيض المدرسة، ليطالع على سراجها، ولكنّه تأبى عزّته أن يدع غيره يشعر بما هو فيه، فيوهم الداخلين – بالتنحنح – أنّه جالس للحاجة الخاصة. وتتجلّى في هذه الحادثة الصغيرة عزّة نفسه وقوّة إرادته وصبره على طلب العلم بدرجة غير اعتيادية إلاّ للنوابغ الأفذاذ.

(الحادثة الثانية) – إنّ أحد الكسبة الذي كان حانوته في طريق المدرسة بكاشان التي كان يسكنها هذا الطالب النراقي، أنّ هذا الكاسب المؤمن لاحظ على هذا الطالب أنّه رثّ الثياب، وكان معجباً به إذ كان يشتري منه بعض الحاجيات كسائر الطلاّب فرأى أن يكسيه تقرّباً إلى الله فهيّأ له ملبوساً يليق بشأنه وقدّمه له عندما اجتاز عليه فقبّله بإلحاح ولكن هذا الطالب الأبيّ في اليوم الثاني رجع إلى رفيقه الكاسب وأرجع له هذا الملبوس قائلاً: إنّي لمّا لبسته لاحظت على نفسي ضعة لا أطيقها لا سيما حينما اجتاز عليك فلم أجد نفسي تتحمّل هذا الشعور المؤلم وألقاه عليه ومضى معتزّاً بكرامته.

(الحادثة الثالثة) – فيما ينقل عنه أيضاً – وهي أهمّ من الأولى والثانيّة – أنّه كان لا يفض الكتب الواردة إليه، بل يطرحها تحت فراشه مختومة لئلا يقرأ فيها ما يشغل باله عن طلب العلم. والصبر على هذا الأمر يتطلّب قوّة إرادة عظيمة ليست اعتياديّة لسائر البشر. ويتفّق أن يُقتل والده (أبو ذر) المقيم في نراق وطنه الأصلي وهو يومئذ في أصفهان يحضر على أستاذه الجليل المولى إسماعيل الخاجوئي، فكتبوا إليه من هناك بالنبأ ليحضر

إلى نراق لتصفية التركة وقسمة المواريث وشؤون أخرى، ولكنّه على عادته لم يفض هذا الكتاب ولم يعلم بكل ما جرى. ولّما طالت المدّة على من في نراق كتبوا له مرة أخرى ولكن لم يجبهم أيضاً ولما يئسوا منه كتبوا بالواقعة إلى أستاذه المذكور ليخبره بالنبأ ويحمله على المجيء والأستاذ في دوره –على عادة الناس– خشى أن يفاجئه بالنبأ، وعندما حضر مجلس درسه أظهر له – تمهيداً لإخباره – الحزن والكآبة ثم أوضح ذلك له: بأن والده مجروح ورجح له الذهاب إلى بلاده ولكن هذا الولد الصلب القويّ الشكيمة لم تلن قناته ولم يزد أن دعا لوالده بالعافية طالباً من أستاذه أن يعفيه من الذهاب، وعندئذ اضطر الأستاذ إلى أن يصرّح له بالواقع ولكن الولد أيضاً لم يعبأ بالأمر واصرّ على البقاء لتحصيل العلم إلا أنّ الأستاذ هذه المرة لم يجد بداً من أن يفرض عليه السفر فسافر امتثالاً لأمره المطاع ولم يمكث في نراق أكثر من ثلاثة أيام على بعد الشقة وزيادة المشقّة ثم رجع إلى دار هجرته.

وهذه الحادثة لها مغزاها العميق في فهم نفسيّة هذا العالم الإلهي، وتدلّ على استهانته بالمال وجميع شؤون الحياة في سبيل طلب العلم.

مؤلفاته

لشيخنا المترجم له عدة مؤلّفات نافعة، تدلّ على قابلية في التأليف وصبر على البحث والتتبّع، وعلى علم غزير ونحن نعدّ منها ما وصل بحثنا إليه، وأكثر اعتمادنا في تعدادها وبعض أوصافها على كتاب (رياض الجنة) المذكور في مصادر هذه الطبعة:

(في الفقه):

١. (لوامع الأحكام في فقه شريعة الإسلام): وهو كتاب استدلالي مبسوط، وقد خرج منه كتاب الطهارة في مجلّدين يقرب من (٣٠) ألف بيت.

٢. (معتمد الشيعة في أحكام الشريعة): هو أتمّ استدلالاً وأخصر تعبيراً من كتاب اللوامع السالف الذكر، خرج منه كتاب الطهارة ونبذ من الصلاة والحج والتجارة والقضاء. قال في الروضات عن الكتابين: «ينقل عنهما ولده المحقق في المستند والعوائد كثيراً».

٣. (التحفة الرضويّة في المسائل الدينية): في الطهارة والصلاة، فارسي، يقرب من (١٠) آلاف بيت.

٤. (أنيس التجار): في المعاملات، فارسي يقرب من (٨) آلاف بيت.

٥. (أنيس الحجّاج): في مسائل الحج والزيارات، فارسي، يقرب من (٤) آلاف بيت.

٦. (المناسك المكيّة): في مسائل الحج أيضاً، يقرب من ألف بيت.

٧. (رسالة صلاة الجمعة): ذكرها وما قبلها حفيده (الأستاذ حسن النراقي) في رسالته لنا.

(في أصول الفقه):

٨. (تجريد الأصول): مشتمل على جميع مسائل الأصول مع اختصاره يقرب من (٣) آلاف بيت. قال عنه في الروضات: «شرحه ولده في مجلدات غفيرة جمّة».

٩. (أنيس المجتهدين): توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامّة بالنجف الأشرف (برقم ٤٠٨ – سجلّ المخطوطات)، تقع في ٤١١ صفحة بخط محمد حسين بن علي نقي البزّاز فرغ منها بتأريخ ٣ صفر من سنة ١١٨١هـ. وفي تقدير رياض الجنّة يقرب من (١٠) آلاف بيت.

١٠. (جامعة الأصول): يقرب من (٥) آلاف بيت.

١١. (رسالة في الإجماع): يقرب من (٣) آلاف بيت.

(في الحكمة والكلام):

١٢. (جامع الأفكار): في الإلهيات يقرب من (٣٠) ألف بيت وقد فرغ من تأليفه سنة ١١٩٣هـ وعليه فليس هو من أوائل مؤلفاته كما قال عنه صاحب (رياض الجنة)، وستجد رموزاً للصفحتين الأولى والأخيرة منه بخط المؤلّف منقولتين عن النسخة التي هي بحوزة أحد أحفاده (الأستاذ حسن النراقي) والذي يجلب الانتباه في الصفحة الأخيرة ما ذكره من الحوادث المروّعة في الوباء وغيره التي وقعت في تلك الفترة.

١٣. (قرة العيون): في أحكام الوجود والماهية يقرب من (٥) آلاف بيت.

١٤. (اللمعات العرشية): في حكمة الإشراق يقرب من (٢٥) ألف بيت.

١٥. (اللمعة): وهو مختصر اللمعات يقرب من ألفي بيت.

١٦. (الكلمات الوجيزة): وهو مختصر اللمعة يقرب من ثمانمائة بيت.

١٧. (أنيس الحكماء): في المعقول وهو من أواخر تأليفاته لم يتم احتوى على نبذ من الأمور العامة والطبيعيّات يقرب من (٤) آلاف بيت.

١٨. (أنيس الموحّدين): في أصول الدين فارسي، يقرب من (٤) آلاف بيت.

١٩. (شرح الشفا): في الإلهيات النسخة الأصليّة بخط المؤلف موجودة عند أحد أحفاده (الأستاذ حسن النراقي).

٢٠. (الشهاب الثاقب): في الإمامة في رد رسالة الفاضل البخاري يقرب من (٥) آلاف بيت.

(في الرياضيات):

٢١. (المستقصى): في علوم الهيئة خرج منه مجلدان إلى مبحث إسناد الحركات

يقرب من (٤٠) ألف بيت، قال عنه في رياض الجنّة: «لم يعمل أبسط وأدق منه في علم الهيئة ولقد طبق فيه أكثر البراهين الهندسيّة بالدلائل العقلية، لم يتم».

٢٢. (المحصل): كتاب مختصر في علم الهيئة يقرب من (٥) آلاف بيت.

٢٣. (توضيح الأشكال): في شرح تحرير أقليدس الصوري في الهندسة وقد شرحه إلى المقالة السابعة فارسي يقرب من (١٦) ألف بيت.

٢٤. (شرح تحرير اكرثا ذوسنيوس): يقرب من (٣) آلاف بيت.

٢٥. (رسالة في علم عقود الأنامل): فارسية، تقرب من ألف بيت.

٢٦. (رسالة في الحساب): ذكرها في روضات الجنّات.

(في الاخلاق والمواعظ):

٢٧. (جامع السعادات): هذا المطبوع بثلاثة أجزاء - حسب تقسيمنا له - قال عنه في رياض الجنّة: «يقرب من (٢٥) ألف بيت». وقد طبع في إيران على الحجر سنة ١٣١٢هـ بجزأين وسيأتي وصفه وقد تقدم شيء من وصفه. وهذه الطبعة الثالثة له على الحروف بالنجف الأشرف.

٢٨. (جامع المواعظ): في الوعظ يقرب من (٤٠) ألف بيت، لم يتم.

(في المتفرقات):

٢٩. (محرق القلوب): في مصائب آل البيت فارسي يقرب من (١٨) ألف بيت. قال عنه في روضات الجنّات: «طريف الأسلوب».

٣٠. (مشكلات العلوم): في المسائل المشكلة من علوم شتّى مطبوع على الحجر بإيران يشبه بعض الشيء كشكول البهائي. وقد نسج على منواله ولده المحقق في كتابه (الخزائن) المطبوع على الحجر بإيران.

٣١. (رسالة نخبة البيان): ذكرها حفيده (الأستاذ حسن النراقي).

٣٢. (معراج السماء): ذكره أيضاً حفيده المذكور.

جامع السعادات وعلم الأخلاق

لا شك أنّ القدرة على التأليف موهبة من الله تعالى فوق موهبة العلم والفهم، وليس كل من كان عالماً استطاع التأليف.

والتأليف في حد ذاته من أبرز الخدمات التي يؤدّيها العالم للناس في حياته، ومن أعظم الحظوظ للإنسانية، وبسببه استطاعت أن تتقدّم على مرور الأجيال ومع ذلك ليس كل تأليف يعد خدمة للناس وحظّاً للإنسانية.

وإذا أردنا أن نضع المؤلّفات في رفوف حسب قيمتها فإنها في فترات متقطّعة تظهر مؤلفات من النوابغ يصحّ أن نضعها في الرفّ الأعلى ويصدق عليها بحقّ أنّها مما ينفع الناس فتمكث في الأرض وتفرض نفسها للخلود والبقاء إذا سلمت من عوادي الدهر الغاشمة ومن سوء الحظّ أنّ الفراغ لا يزال كثيراً في هذا الرفّ الأعلى.

ومن بين الفترات لابد أن تبرز في كل علم من المؤلفات هي من حقها أن توضع في الرف الثاني أو ما دونه. وحظّها أن تنسج على منوال غيرها لتحيّيها وتهيّء انتهاء الفترة لظهور الأثر الخالد مما يوضع في الرف الأعلى. وهذه غير الغثاء الذي يذهب جفاء ومن حقه أن يلقى في سلّة المهملات. وما أكثر هذا النوع الرخيص لا سيما في عصرنا الحاضر الذي سهلت له الطباعة الإسفاف.

ويجب ألاّ نغالي في مؤلّفات شيخنا النراقي فنضعها في الرف الأعلى، ولكن (جامع السعادات) الذي نقدّمه، هو بالخصوص من الآثار الخالدة، وإن لم يكن موضعه هذا الرف الأعلى كسائر الكتب الأخلاقية في الدورة الإسلامية ولا ندري السرّ في ذلك

إلاّ أنّ الفترة بعد لم تنته لعلم الأخلاق بخصوصه كيما يظهر الأثر الخالد المنتظر الذي سيكون في الرف الأعلى أم لأنّ هذا العلم ليس له تلك الفترات، بل كلّه في فترة مستديمة ليأس العلماء الأخلاقيّين من التأثير على الناس بمجرّد التأليف؟!

وهذا الثاني هو الأقرب إلى الواقع، والحقّ مع الأخلاقيين في بأسهم، فإنّ الأخلاق لا تكتسب بالتعلّم وقراءة الكتب، وإنّما هي صفات وملكات لا تحصل للإنسان إلاّ بالتمرينات القاسية والتربية الطويلة، لا سيما في أيام الطفولة وفي السن المبكرة قبل أن يفرض في الإنسان أن يكون أهلاً للقراءة، ولو كانت قراءة الكتب وحدها كافية لخلق الفضيلة في النفس أو تنميتها لكانت كتب الأخلاق من أثمن ما خلق الله، ولأغنى البشرية كتاب واحد يفي بذكر الأخلاق الفاضلة، بل لاكتفينا بالقرآن الكريم وحده، أو بنهج البلاغة بعده الذي تريد خطبه ومواعظه أن تصهر الناس في بوتقتها الملتهبة لتخرّجهم ابريزاً صافياً كصاحبها، ولكن البشرية الظالمة لنفسها بدل أن تنصهر بهذا اللهب تخبو جذوتها وتزيد جموداً على مساوئها.

وليس هذا الرأي عن الكتب الأخلاقية فيه شيء من المغالاة على ما أعتقد إلاّ أنّي مع ذلك لا أظلم بعض زمرة صالحة من أهل الفتوة وأرباب القلوب الحيّة إذ نجدهم يتأثّرون بالكلمة الأخلاقية الموجّهة إليهم ممّن يعوّل على قوله ويتتبعون بإخلاص مجهودات المؤلّفين في الأخلاق ليترسّموا خطاهم فيهذّبوا أنفسهم.

ومن هنا نجد السبيل إلى انصاف الأخلاقيين وإعطاء مؤلّفاتهم حقّها من التقدير لنعتقد أنهم لم يعملوا عملاً باطلاً لا نفع فيه، بل الحق أن له قيمته العظيمة وكفى أن يتأثّر بدعوتهم بعض فتيان كرام بررة وهذا التأثر على قلته له قيمة معنويّة لا توازن بشيء في الدنيا، بل سير الحياة وتقدّمها يتوقّف مبدئياً على هذا التأثّر وإن كان محدوداً، والتقدّم الاجتماعي الذي يحصل في أمّة في بعض الفترات من الزمن إلاّ نتيجة من نتائج هذا التأثّر

المحدود.

ومع ذلك فإنّ تأثير الدعوة الأخلاقيّة هذا التأثير المحدود لا يأتي من مجرّد شحن الكتاب بالنظريّات الأخلاقيّة المجرّدة، بل لروحيّة المؤلّف أعظم الأثر في اجتذاب قلوب الفتيان الكرام إلى الخير ومن هنا اشترطوا في الواعظ أن يكون متّعظاً.

وعلى هذا الأساس ينبغي أن توضع كتب الأخلاق في رفوفها فليس للنظريّات الفلسفية ورصانة التأليف وتركيزه على المبادئ العلميّة – في نظر أرباب القلوب – تلك الأهمية الأخلاقية التي تعلّق عليها، ولا تقاس بالأثر الأخلاقي الذي يحصل من روحيّة المؤلّف ومقدار تأثّره هو بأقواله، وما كانت شهرة (مجموعة ورام)، وما كانت أهميّتها إلاّ لأنّها ناشئة من قلب صادق، ذلك قلب الأمير الزاهد الإلهي (الشيخ ورام ابن أبي فراس المالكي الأشتري)[1]، وليس فيها صفة علميّة أو فنيّة تقضي بهذا الاهتمام.

ومن العجيب أنّ قلب الرجل الأخلاقي يبرز ظاهراً على قلمه في مؤلّفاته فتلمسه في ثنايا كلماته. وبالعكس ذلك الذي لا قلب له فإنّك لا تقرأ منه إلاّ كلاماً جافّاً لا روح فيه مهما بلغت قيمته في حساب النظريّات الفلسفيّة.

وفي نظري أنّ قيمة (جامع السعادات) في الروح المؤمنة التي تقرأها في ثناياه أكثر بكثير من قيمته العلمية. وأنّي لأتحدى قارئ هذا الكتاب إذا كان مستعدّاً للخير أن يخرج منه غير متأثّر بدعوته وهذا هو السرّ في إقبال الناس عليه وفي شهرته، على أنّه لا يزيد من ناحية علميّة على بعض الكتب المتداولة التي لا نجد فيها هذا الذوق والروحانيّة. والكتاب نفسه يكشف لنا عن نفسيّة المؤلّف وما كان عليه من خلق عال وإيمان صادق.

(١) ولد بمدينة الحلّة في القرن السادس الهجري وتوفي ودفن فيها باليوم الثاني من شهر محرم عام ٦٠٥هـ زوجته من أحفاد الشيخ الطوسي ووالده من مشاهير الفقهاء وهو جدّ السيد رضي الدين بن طاووس لأمه ونقل أنّه كان من أمراء الجيش إلاّ أنّه تنحّى وسار على نهج الزهد ومن مؤلفاته كتاب تنبيه الخواطر ونزهة النواظر الذي اشتهر بمجموعة ورام.

وأنّي لأؤمن إيماناً لا يقبل الشك: أنّ انتشار هذا الكتاب بين الناس في هذا العصر سيكون له أثره المحسوس في توجيه أمتنا نحو الخير بعد أن نفدت طبعته الأولى وعزّت نسخته، ولاسيما أنّ خطباء المنابر – فيما أعتقد – ستكون لهم الحصّة الوافرة في التأثّر به ونقل تأثّرهم إلى سواد الأمة الذين هم المعوّل عليهم في نهضتنا الأخلاقية المقبلة.

وهذا ما دفعني – والله هو الشاهد عليّ – إلى السهر على تصحيح الكتاب وتدقيقه، ليخرج بهذه الحلّة وإن كانت ظروفي الخاصّة كادت أن تحول دون التفرغ له لولا أنّي توكّلت على الله تعالى ووطّنت نفسي على تجاهلها وإهمال كثير مما يجب العناية به، والحمد لله على توفيقه.

النواحي الفنية في الكتاب

من أهمّ ما يؤاخذ به كتابنا هذا اعتماده على المراسيل في الأحاديث وتسجيل كل ما يرى أمامه من المنقولات: غثّها وسمينها من دون إشارة إلى التمييز ولا إلى المصادر حتى نقل كثيراً عن إحياء العلوم، وتعمّد النقل عن مثل جامع الأخبار ومصباح الشريعة اللذين يشهد أسلوبهما على وضع أكثر ما فيهما. وقد وجدنا صعوبة كبيرة في العثور على جملة من مصادر هذه المنقولات لتصحيحها. وقد يستغرق البحث للعثور على مصدر خبر واحد أيّاماً كما قد يذهب البحث سدى وما كان يهمّنا من الرجوع إلى المصادر إلاّ تصحيح المنقولات لا إثبات مصادرها، فلذلك لا نشير في الحاشية إلى المصدر إلاّ إذا وجدنا اختلافاً في نصّه في النسخ، فنقول: صحّحناه على كذا مصدر. وبهذه المناسبة لابد من الاعتراف بالجميل فنذكر الأستاذ الفاضل السيد عبد الرزاق المقرّم (١٣١٦ – ١٣٩١هـ) بالشكر لما أعاننا عليه من الفحص عن بعض الروايات.

والذي يهوّن الخطب في هذه المؤاخذة – على أنّ لها قيمتها الفنيّة – أنّها لا تختصّ بهذا الكتاب وحده من بين كتب الأخلاق الإسلاميّة بل هذا ديدنها وكأنّ هم أصحابها من

الاستشهاد بالمنقولات نفس أداء الفكرة، فإذا كانت بحسب نظرهم صحيحة مقبولة في نفسها فلا يجب عندهم أن يكون الحديث الذي يتضمنّها صحيحاً مقبولاً في عرف أهل الحديث، فإذا قال المحدّث: «قال النبي والإمام كذا» يعني بذلك أن هذا القول ثابت بالنقل الصحيح الموثوق به وإلاّ فيقول «روى عنه كذا» أو ما يشبه ذلك، أمّا الأخلاقي فلا يعني بذلك القول إلاّ أنّه مروي عنه بأي طريق كان.

ولعل لهذا التسامح عذراً مقبولاً في مذهبهم على ما قدمناه، لو لم تكن فيه إساءة إلى أمانة النقل في أهمّ تراث إسلامي ديني في حين كان من الممكن تحاشيها بقليل من التحقيق والبحث على أنّ في الثابت الصحيح عن آل البيت: ما فيه الكفاية للإلمام بنواحي الأخلاق المطلوبة، وما في (الكافي) كاف وحده في هذا الباب. وكنّا نتمنّى – أثناء التصحيح – على صاحب كتابنا هذا ألاّ يتّبع هذه العادة عند الأخلاقيين، فيزيد على فائدته الأخلاقية فائدة أخرى في تحقيق الأحاديث الصحيحة.

أما أسلوب الكتاب الأدبي فهو يمثّل إلى حدّ ما عصره الذي ضعفت فيه اللغة إلى حد كبير، بالرغم على أنّ الفلاسفة الإشراقيين اشتهروا في تلك العصور بحسن البيان وقوة الأسلوب لاسيما في العصر السابق على عصر المؤلف كالسيد الداماد العظيم المتوفى ١٠٤١هـ، وتلميذه النابغة الجليل المولى صدرا المتقدم ذكره، حتى كان يسمى الأول: أمير البيان، ولعل الثاني أحق بهذا اللقب. غير أنّ صاحبنا لا يحسب في عداد الفلاسفة وأن ارتشف من منهلهم على أنّه كان يقتبس كثيراً نص عبارات غيره استراحة إليها. وهذه سنّة مستساغة عند المؤلّفين الأخلاقيّين، وكأن كتبهم يجدونها مشاعة بين الجميع، أو لأنّ همّهم أداء الفكرة كما كان عذرهم في مراسيل الأحاديث.

وبهذه المناسبة نقول: أنّا وجدنا أثناء تصحيح الكتاب كثيراً من الألفاظ والعبارات مما لم نجد له مسوّغاً من اللغة العربيّة، ككلمة (القادسة) و (الهلاكة) ففضّلنا أن نبقيها

على ما وجدناها حرصاً على أمانة النقل، وأهملنا التنبيه عليها، ومثل كلمة (سيما) فضلنا أن نصححها ونضع كلمة (لا) بين قوسين اشارة إلى زيادتها منّا.

وإذا كانت أمانة النقل هي العذر لنا في ذلك فهي التي تقضي علينا أن نصرّح أنّ عناوين الكتاب على الأكثر هي من وضعنا لا من وضع المؤلف.

وأمّا أسلوبه العلمي، فقد بناه مؤلّفه من أوله إلى آخره على نظريّة الوسط والأطراف في الأخلاق، تلك النظريّة الموروثة من الفلسفة اليونانية. وقد بحث عنها المؤلّف في (الجزء الأوّل ص٥٩). وليس من حقّنا أن نناقشها، ولا يمتاز بها هذا الكتاب وحده فإنّ شأنه في الاعتماد على هذه النظريّة الأساسيّة شأن سائر كتب الأخلاق الإسلاميّة العلميّة.

ولكن الذي امتاز به كتابنا – بعد أن بحث مؤلّفه بحثاً فلسفيّاً متوسّطاً عن النفس وقواها، والخير والسعادة، والفضائل والرذائل، في البابين الأوّل والثاني، كما صنع أسلافه أن جعل أساس تقسيمه للكتاب على القوى الثلاث: العاقلة والشهوية والغضبية، معلّلاً ذلك بأنّ «جميع الفضائل والرذائل لا تخرج عن التعلق بالقوى الثلاث» (١/ ٦٦). وذكر لكل قوة ما يتعلّق بها من أجناس الفضائل والرذائل منفردة ومنضمّة إلى الأخرى، ثم ذكر أنواعها، واستقصى ذكر الأنواع مطبّقاً على كل نوع نظريّة الوسط والأطراف فجاء في استقصائه وإلحاقه كلّ فضيلة ورذيلة بالقوّة التي تتعلّق بها بما لم يجيء به غيره ولم يسبقه إليه أحد فيما نعلم وهو نفسه ادّعى ذلك فقال: «أنّ إحصاء الفضائل والرذائل وضبطها، وإدخال البعض في البعض والإشارة إلى القوّة الموجبة لها على ما فصّلناه مما لم يتعرّض له علماء الأخلاق» (١/ ٧١).

وهذه أهمّ ناحية فنيّة في الكتاب وفتح جديد في تحقيق منشأ حدوث خلق الفضيلة والرذيلة لو اتّفق لغيره أن يترسم خطاه ويتمّ ما فتحه من هذا الباب من التحقيق لتقدّم

على يديه علم الأخلاق تقدّماً كبيراً وعلى أساس تحقيقه هذا أسقط فضيلة العدالة من حسابه فلم يجعلها جنساً مقابلاً لأجناس الفضائل الثلاث الأخرى وهي الحكمة والعفّة والشجاعة، باعتبار أن العدالة جامعة لجميع الكمالات بأسرها، لا أنّها في مقابلها. وقد فصّل هذا الرأي في الباب الثاني ولا أظنّ أحداً يقرّه عليه ولا يثبت أمام النقد. ولكن هذه المقدّمة تضيق عن مثل هذه الأبحاث الدقيقة كما تضيق عن مقارنة هذا التأليف بالمؤلّفات الأخلاقيّة الأخرى. وقصدنا أنّ هذا التقسيم من المؤلّف وإرجاع الفضائل والرذائل إلى أسبابها وجعل مواضيع الأبحاث هي تلك القوى وإحصاء أنواع الأخلاق بنوعيها ولوازمها كل ذلك مستجدّ وهي طريقة علميّة امتاز بها الكتاب.

تصحيح الكتاب ومراجعه

وعدتُ الأخ الفاضل الألمعي السيد محمد كلانتر (١٣٣٥ – ١٤٢٠هـ)[١] ناشر الكتاب وملتزمه تصحيحاً وتعليقاً – جزاه اللهّ خير ما يجزى العاملون – على الاشتراك معه وإعانته على تدقيق وتحقيق هذا السفر الجليل وتصحيحه أيضاً عند الطبع، إذا توفّق لتهيئة ما يلزم لطبعه، وذلك قبل سنتين. وشاء التوفيق أن يحقّق هذه الأمنية، فلم أجد للتخلّي عن الوفاء بالوعد سبيلاً مهما كلّفني الأمر.

ويعجبني من هذا الرجل صبره وجلده على المشاقّ في سبيل نشره باعتباره أحد الكتب التي يجب إحياؤها في هذا العصر وهذا منه أحد شواهدي على تأثر الفتيان الكرام الأبرار بهذا السفر الأخلاقي وقد شاهدت صبره لأول مرة في إيران في صيف العام الماضي، لما اشترك هو والعلاّمة الأخ بالروح الشيخ محمد شيخ الشريعة[٢] في قسم

(١) عالم جليل من وجوه أعلام النجف من إفاضاته العلمية تصديه لتحقيق كتابي اللّمعة والمكاسب ومؤلّفات أخرى ومن أعماله الخوالد تأسيسه مدرسة جامعة النجف وبهمته العالية إنجازه الأبواب الذهبية المؤدية إلى ضريح الإمام علي عليه السلام في النجف وغير ذلك من ثمرات أفكاره الغنيّة بالعطاء.

(٢) نجل الشيخ فتح الله الأصفهاني الشهير بشيخ الشريعة من كبار الفقهاء المراجع. وولده الشيخ

من الكتاب على النسخة المخطوطة الآتي ذكرها في المراجع رقم ٢ إلى حد ص١٧٦ من الجزء الأول من هذا المطبوع، فأودعا في التعليقة آراءهما القيّمة في تحقيقه وتصحيحه. ولئن عدنا في التصحيح من أوله لما استقبلت المطبعة النسخة للطبع، فإنّا اعتمدنا كثيراً على تلك التحقيقات القيّمة الماضية.

ولا ننسى أن نذكر أنّ النسخة المطبوعة في إيران على الحجر فيها من التحريف والتصحيف ما يذهب بالاطمئنان إليها ويشوّه المقصود والمعنى ومن الغريب أن نجد التحريف حتى في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. أمّا تذكير المؤنّث وتأنيث المذكّر، وتشويه الإملاء والتبويب فهذه أمور حدّث عنها ولا حرج ويكفي أن تقارن صفحة واحدة منها بمطبوعنا لتعرف أيّ مجهود بذل للتصحيح والإخراج، وتجد العناية على كل سطر منه بل كل كلمة.

ومن سوء الحظ، أنّ النسخة المخطوطة المرجع رقم (٢) لم تكن أكثر حظّاً في الصحّة من أختها المطبوعة. وهذا ما دعانا إلى أن نرجع إلى كتب أخرى تمتّ بالموضوع بصلة لتحقيق الكتاب كالكتب الأخلاقية وكتب الحديث. وأكثر ما كان يعنينا تصحيح الأحاديث الشريفة بالرجوع إلى مصادرها الذي جشّمنا بحثاً مضنياً كان يستغرق أكثر أوقاتنا، وقد نذكر أحياناً في التعليقة المصدر المرجوع إليه، وعلى الأكثر لا نذكر المرجع إلاّ عندما يكون مخالفاً لنسخ الكتاب.

ويحسن الآن أن نذكر أهم المراجع التي اعتمدنا عليها لتصحيح الكتاب، وهي:

١. النسخة من الكتاب – المشار إليها آنفا – المطبوعة على الحجر بإيران سنة

محمد (١٣٢٢ – ١٣٩٨هـ) عالم فاضل وأديب جريء عرف بمؤازرته للشيخ المظفر بمشروع تأسيس لجنة الوعظ والخطابة التي واجهت معارضة عنيفة من بعض الأوساط وعلى أثرها هاجر إلى الباكستان وسكن مدينة كراجي وتوفي فيها.

١٣١٢هـ.

٢. النسخة المخطوطة منه التي تفضل بها شيخنا الحجة الشيخ محمد محسن الشهير بـ(آغا بزرگ) مؤلّف الذريعة، وقد نسخت سنة ١٢٠٨هـ، ونعبّر عنها في التعليقة بـ(نسختنا الخطية).

٣. النسخة المخطوطة منه في مكتبة سپهسالار بطهران. ولا يحضرنا الآن تأريخ نسخها ورقمها في المكتبة. وقد قوبلت النسخة إلى حد صفحة ١٧٦ من الجزء الأول.

٤. النسخة المطبوعة، التي يملكها الخطيب السيد جواد شبر[1]، وفيها بعض التقييدات والتصحيحات.

٥. إحياء العلوم – للشيخ أبي حامد الغزالي.

٦. إحياء الأحياء – المجلد الرابع المطبوع في إيران على الحجر سنة ١٣٢٦هـ للشيخ المولى محسن الفيض الكاشاني.

٧. نسخة أصول الكافي – المخطوطة سنة ١١٠٣هـ في مكتبة منتدى النشر برقم (٤٤٦)، وهي نسخة ظاهر عليها التصحيح ودقّة المقابلة على نسخ صحيحة.

٨. نسخة أصول الكافي – المخطوطة التي تحت تصرفنا.

٩. فروع الكافي – المطبوع بالحجر سنة ١٣١٥هـ وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة.

١٠. الوسائل – المطبوعة سنة ١٣٢٣هـ المعروفة بطبعة عين الدولة.

---

(١) الشهيد السعيد السيد جواد شبرّ عالم أديب مؤلّف خطيب شاعر، من صفوة تلاميذ المظفر والمساهمين الأوائل في مؤسساته ولد في النجف عام ١٣٣٢هـ امتاز بشهرته الخطابية وولعه بالبحث الأدبي والتاريخي وإدارته للمدرسة الشبّريّة، غيّبته سجون السلطة الصدّاميّة الظالمة ليلة منتصف شهر رمضان سنة ١٤٠٢هـ له آثار مطبوعة ومخطوطة.

١١. البحار – المجلد ١٥ بجميع أجزائه الأربعة المطبوع على الحجر.

١٢. كنز العمّال – المطبوع بحيدر آباد دكن سنة ١٣١٢هـ.

١٣. مستدرك الوسائل – للشيخ المحدّث النوري المطبوع على الحجر سنة ١٣١٩هـ.

١٤. الوافي – للشيخ المولى محسن الفيض، المطبوع على الحجر سنة ١٣٢٥هـ، وهو من المطبوعات الحجرية الصحيحة.

١٥. سفينة البحار – المطبوع على الحجر بالنجف الأشرف سنة ١٣٥٢هـ للمحدث الثقة الجليل الشيخ عباس القمي.

١٦. جامع الأخبار – المطبوع بالهند على الحجر.

١٧. مصباح الشريعة – المطبوع بالهند على الحجر.

وهذه غير المراجع التي رجعنا إليها نادراً: كمجموعة الشيخ ورام، والحقائق للفيض، ومجمع البحرين للشيخ فخر الدين الطريحي، ونهاية ابن الاثير ونحوها كثير لا فائدة في إحصائه. وهذه المراجع هي التي روجعت لتصحيح أجزاء الكتاب، والله تعالى هو الموفّق للصواب.

ويجب ألاّ ننسى في الختام شكر الشيخ عبد الهادي الاسدي (١٣٣٥ – ١٤٢٤هـ)[1] على جهوده التي بذلها في تصحيح الكتاب عند الطبع والاشتراك في مقابلة النسخة الأصلية وتدقيقها، جزاه الله خير ما يجزي العاملين.

النجف الأشرف ٢٠ رجب ١٣٦٨هـ

(١) عالم خطيب أديب له مساهمات في مؤسسات المظفر ومن رواد الصحافة النجفية أصدر مجلة الدليل عام ١٩٤٦م وأسس مطبعة النجف ١٩٥٥م.

شاعر الأزرية

محمد كاظم الأزري

(١١٤٣ ـ ١٢١١هـ)

نشرت هذه الدراسة مقدمة لكتاب تخميس الأزرية، من منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.

الشيخ محمد كاظم الأزري البغدادي التميمي

نسبه وولادته ووفاته

محمد كاظم المعروف بالملاّ تصحيف «المولى» هو ابن الحاج محمد[١] بن الحاج مراد بن الحاج مهدي بن إبراهيم بن عبد الصمد بن علي الأزري[٢] البغدادي التميمي، نسبة إلى بني تميم القبيلة العربية المعروفة في العراق.

وآل الأزري[٣] من أشهر بيوتات بغداد الثريّة في القرنين الأخيرين، وهم غير آل الأزري الذين منهم الشاعر الكبير الحاج عبد الحسين فإنهم قبيلة ثانية تغلّب عليهم هذا الاسم[٤].

والمترجم له تولد في بغداد[٥] سنة ١١٤٣هـ وتوفي سنة ١٢١١هـ غرة جمادى

(١) وسماه الأستاذ عبد الحميد الدجيلي بالحاج مهدي وإنه لما شب ابنه وبقية أولاده ورأى فيهم الذكاء والنباهة أرسلهم إلى النجف فدرسوا على يد أكابر العلماء. أنظر مجلّة الدليل النجفيّة السنة الثانية العدد السادس:٣٠٨.

(٢) نسبة إلى بيع الإزار حيث كان النساء يلبسنه كالعباءة وهو مؤلف من قطعتين تتّزر المرأة بواحدة وتتجلبب بالثانية وقد زال استعماله بالعراق بعد زوال الحكم العثماني.

(٣) ومعنى الأزري بياع الإزر وكان جدهم الأعلى تاجراً ببغداد يبيع الإزر ولم يبق بهذا البيت عقب إلاّ من البنات ويعرفون بالأزرية أيضاً وهم بيت شريف جليل فيهم التجار والعبّاد الصلحاء والمشتغلين بالعلم الأفاضل. أنظر السيد حسن الصدر في تكملة أمل الآمل ٤: ٢٦٥.

(٤) وهناك رأي إلى أنهم عائلة واحدة كما ذهب لذلك عبد الحسين الأزري في مقال عن شاعرنا الكاظم نشره بمجلة الغري النجفية العدد ١٤الصادر في جمادى الثانية سنة ١٣٦٤هـ.

(٥) غرة جمادى الأولى وذكر بأنه بقي في طفولته مقعداً سبع سنوات ثم مشى. وقيل أن وفاته سنة ١٢١٢هـ، تكملة الصدر٤: ٢٦٤. والمعروف أن الدار التي ولد فيها كانت قائمة في محلة رأس القرية

الأولى حسبما يذكره صاحبا الذريعة والكنى والألقاب ودفن في الكاظمية ولهم مقبرة خاصة فيها قبالة مدفن السيد المرتضى علم الهدى والآن هي في داخل بناية مقبرة السيد ولم يترك له عقباً من الذكور وكذلك أخوه الشاعر الفحل العالم الشيخ محمد رضا[١]، ولعل هذا من أهم اسباب تفرق آثارهما وضياع جملة منها.

مكانته الاجتماعية

تخلد هذا الشاعر الفحل[٢] بألفيته المشهورة بـ«الأزرية» فكان منذ ذلك الحين مثار إعجاب الأدباء والعلماء بشاعريته وأدبه وفضله، وكان لدى علماء عصره مبجلاً محترماً لاسيما عند السيد بحر العلوم، وتنقل إلى اليوم على ألسنة الناس مبالغات في احترامه وتقدير ألفيته خاصة لدى العلماء، حتى ينقل عن الشيخ صاحب الجواهر أنه كان يتمنّى

في بغداد وهي من جملة أوقاف والده التي أوقفها عليه وعلى إخوته وتاريخ الوقفية سنة ١١٥٩هـ وقد حصل نزاع بين الذرية فصفي الوقف حسب قانون التصفية. أنظر عباس العزاوي، تاريخ الأدب العربي في العراق٢: ٢٩٦.

(١) وذكر الصدر في التكملة أن «له أخوان فاضلان أحدهما أكبر منه وهو الشيخ محمد يوسف أبو الشيخ مسعود الشاعر المعروف وأبو الشيخ راضي الفاضل الأديب المصنّف المتوفّى هو وأخوه سنة الطاعون سنة ١٢٤٦هـ، والأخ الآخر للشيخ كاظم هو إمام الأدب ولسان العرب الشيخ محمد رضا..»، المصدر السابق٤: ٢٦٥.

(٢) ووصفه السيد الصدر في تكملته بأنه «كان متكلما حكيمًا أديباً شاعراً مفلقاً لا يبارى ولا يجارى تقدّم على كل شعراء عصره في كل المشرق. ومن أجلاّء فضلاء عصره معظّماً عند الوزراء والبيكوات والعلماء حتى أن السيد بحر العلوم المهدي الطباطبائي كان يقدّمه على العلماء الأجلاء إذا دخل عليه وكان يراه بالعين التي كان الإمام الصادق عليه السلام يرى بها هشام بن الحكم لما كان يظهر من حسن مناظرته مع الخصوم وبراعته في الكلام معهم في الإمامة في ذلك العصر الذي كان سوق الخصوم فيه قائماً. وكان سريع الجواب حاد الذهن متبحّراً في الحديث والتاريخ طويل الباع في الكلام والتفسير وفي علم المقالات والسير. وله مناظرات وحكايات تجري مجرى الكرامات. ثم وصفه بأنه كان من حسنات ذلك العصر وأركان الطائفة المحّقة ولسانها وسنانها وسيفها ويمينها ثم أردف قائلا عن هيئته: وكان قصير القامة سميناً لا يفارقه السلاح.

أن يكتب في ديوان أعماله القصيدة الأزرية مكان كتابه (جواهر الكلام). وجواهر الكلام هذا الكتاب العظيم في الفقه الذي لم يكتب مثله.

وكان – على ما هو المعروف – حليقاً مفتول الشاربين على عادة أهل زمانه[1]، وهذا ما ينكره المتشرّعون ولا سيما أنه تربّى في النجف الأشرف تربية دينية، ولكن أهل الدين مع ذلك لم يكونوا يتضايقون منه لما عرف به من الجهاد والدفاع عن العقيدة، وقيل أن بحر العلوم نفسه ربما كان يعتذر له بأن ما يقوم به من الدفاع والجهاد وما يقتضي ذلك من الانغمار في محيط بغداد وحكّامه هو الذي كان يدفعه إلى اختيار هذه الهيئة مجاراة لمحيطه وتعزيزاً لمواقفه المجيدة وربما كان هذا في نظره ما يبرر له هذا العمل.

نعم أن الرجل كان من شخصيات بغداد اللاّمعة الذين يشار إليهم بالبنان وكان ممن يتقى في صولته وقوة عارضته وحجته، وكان صريحاً في مخاصماته لا ينام على ضيم ولأجل ذلك كان مهاب الجانب محترماً في نظر الجميع العدو والصديق، الشعب والحكومة أضف إلى أنه كان عزيز الجانب بانتسابه إلى بني تميم وهم في جوار بغداد وهو أيضاً من بيت رفيع في بغداد وزاد في منعته اتصاله بأمراء آل الشاوي وصداقته معهم صداقة وثيقة وكان أكثر مديحه في ديوانه للحاج سليمان الشاوي الذي كانت له الصولة حتى في مقابلة الحكومة العثمانية.

شاعريته

ومن ناحية شعره كان من فحول شعراء القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، وهذا القرن الثالث عشر بالخصوص كان لامعاً من ناحية أدبية في تأريخ القرون الإسلامية بعد القرن الرابع وكان زاخراً بالشعراء المجيدين كالرابع.

---

(١) يذكر الدجيلي كما تقدم الإشارة إلى مقاله بأن الأزري كان معمّمًا ومن ذوي العلم ورجال الفقه والأدب المحترمين.

وفي الحقيقة أن الروح الأدبية في العالم العربي بعد القرن الرابع قد تدنّت وجمدت إلى حد بعيد ولم يعد الأدب في القرون اللاّحقة إلاّ صناعة لفظية باهتة وكلّما تقدّم الزمن كانت تتأخر هذه الصناعة حتى بلغ أقصى تدنّيها في القرن العاشر والحادي عشر، وفجأة بدت تباشير حركة أدبية عالية في العراق في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الذي كان صاحبنا المترجم له وأخوه الشيخ محمد رضا من ألمع شخصيّاته الأدبية. ولم تعرف إلى الآن الأسباب الحقيقية لتلك الحركة المفاجئة على التحقيق وإن كانت التكهّنات والتخرّصات كثيرة. في حين أن ذلك القرن كالذي قبله من أظلم القرون التي مرت على البلاد الإسلامية عامّة والبلاد العربية خاصة ولاسيما العراق الذي كان في تلك الأيام ساحة للصراع العنيف بين الحكومتين الإيرانية والعثمانية إحداهما مع الأخرى وبين القبائل العراقية مع إحدى هاتين الحكومتين وفيما بينها. وهذا عادة مما يسبب خمود كل حركة فكرية وغير فكرية.

ومن الغريب حقاً أن يتّفق مع ظهور هذه الحركة الأدبية ظهور حركة واسعة لم يسبق لها مثيل للعلوم الدينية في العتبات المقدسة النجف وكربلاء، وبرز في هذه الظروف علماء مجتهدون جدّدوا الفقه وأصوله وجدّدوا في نوع التفكير وأسلوبه، ولا تزال الدراسة عندنا تستقي من ينبوعهم بل هي عيال عليهم، وهنا يحيّر الباحث ويحضر عنده السؤال عن أن هذه المقارنة بين ظهور الحركتين هل كانت بمحض الاتفاق أو أن الحركتين كانتا يستقيان من منبع واحد؟ لا شك أن مجال البحث لايزال واسعاً أمام المعنيين بهذه الشؤون، بل لايزال الموضوع بكراً، ولسنا الآن بصدد علاج هذه الناحية وليست هذه الكلمة العابرة بمتّسعة لمثل هذا البحث الشائك.

وكل الذي أردناه هو الإشارة إلى اقتران الحركتين اللتين أثر إحداهما في الأخرى فكان أكثر الفقهاء من الأدباء أو المتأدّبين وأكثر الشعراء من المتفقّهين، والمترجم له

صاحبنا قد جمع بين هاتين الفضيلتين. ولا شك أن دراسته في النجف كان لها الأثر الكبير في نمو ملكته الأدبية، وما انتقل إلى بغداد إلاّ وكان من أبرز أقطاب الحركة الأدبية فيها، بل على يديه وعلى يدي نفر قلائل في بغداد والنجف والحلّة بدأ ظهور الحركة الأدبية القويّة الناضجة في القرن الثاني عشر، ومنهم استمدت هذه الحركة واستمرت إلى القرن الثالث عشر كلّه فبلغت أوجها في أخرياته، بل ما كان تطوّر الشعر والأدب في قرننا الحاضر –الرابع عشر– إلا بفضل تلك الحركة التي ابتدأت بالأزريين واستمرت إلى أوائل قرننا إذ هيّأت شعراء أفذاذاً صادفوا ابتداء طلائع الحركة التجديديّة الحديثة التي دبّت في المحيط العربي، فتمكّنوا من تغيير أسلوبهم وتفكيرهم.

فشاعرنا فضلا عن كونه من فحول الشعراء له فضل إنشاء الحركة الأدبية العالية في العراق. ولم نعرف أحداً قبل تأريخه لاسيما في بغداد يبلغ شأوه أو يجري في مضماره[1] وقد صدق فيما قال عن نفسه :

يـا أبـا أحمـد رويـداً رويـداً أنا في الشعر صاحب المعجزات

وحقاً أنّه صاحب المعجزات في الشعر، وكفى في معجزاته ألفيّته التي نقدم ترجمته لأجلها وهو ممن غرم بالشعر إلى حد الإفراط حتى صار يأكل معه ويشرب ولكنه يريد أن يوهمنا أن الشعر هو الذي يتعشّقه فيقول:

أبى الشعر إلاّ أن يحلّ بساحتي فيأكل من زادي ويشرب من شربي

(١) طبع ديوانه في الهند بالمطبعة المصطفوية في بومباي سنة ١٣٢٠ على نفقة الناشر السيد رشيد السيد داود السعدي الموصلي ثم البغدادي في ١٩٢ صفحة ولم ينشر معه الأزرية المشهورة. ثم تصدّى المحقّق البارع شاكر هادي شكر ونشر عن شعر الأزري مقالاً مفصلاً في مجلة المورد البغدادية في المجلّدين الرابع والخامس ثم بادر إلى إصدار ديوان الأزري من إعداده وتحقيقه وتقديمه بعد أن حذف من الديوان المطبوع ما ثبت بالدليل القاطع أنه ليس للأزري وأضاف إليه (٥١) قصيدة وقطعة تحتوي على (١١٦٤) على ما في الديوان. ونشرت طبعته الأولى دار التوجيه الإسلامية بيروت – الكويت ١٩٨٠ – ١٤٠٠.

إذا أنـا لم أعبأ بـه عمر ساعة تـوهـم هـجـراني فـلاذ إلى جنبي

ولأجل ذلك كان (رحمه الله) بارعاً في جميع فنون الشعر المعروفة يومئذ، فهو في الرثاء يستدر الدموع. وفي التشبيب يدغدغ القلوب. وفي المديح يحلي جيد العاطل، وفي كل فن له آية، وله من روائعه في الغزل ما يزال سائراً على أفواه الناس كقصيدته اللاّمية التي يقول في أولها:

بـأي جـنـايـة مـنـع الـوصـال أبـخـل بـالمـلـيـحـة أم دلال
تحـرم أن تمـس الـنـوم عيني مخـافـة أن يـمـر بهـا خـيـال
وفي الـركـب اليـمانيين خشف بـحبـات الـقـلـوب لـه اكتحال

إلى أن يقول ما يذوب رقّة ولطفاً:

يـمـيـنـاً أن في بـرديـه نـشراً كـمـا هـبـت بـغـالـيـة شـمـال
وفي ديـبـاجـتـيـه فـتـات مسك يـقـال لهـا بـزعـم الـنـاس خـال

وكقصيدته الميميّة الرقيقة التي يقول في مطلعها:

أي عـذر لمـن رآك ولامـا عميت عـنـك عينه أم تعامى
أو لم يـنـظـر الـلـواحـظ تهـدى سقما والـشـفـاه تشفي السقاما

وله في مراثي الحسين عليه السلام من الشعر الخالد ما يزال يقرأ على المنابر ويعد في الطليعة مثل رائيته المشهورة التي يقول في مطلعها:

هـي المـعـاهـد أبلتها يـد الغير وصـارم الـدهـر لا ينفك ذا أثر

ومن براعته في فن الأدب وتمكّنه من اللغة نظمه لعدة قصائد عامرة كل شطر منها تأريخ للحادثة التي نظم فيها قصيدته. وقد لا ترى أثراً للتكلّف إلاّ ضعيفاً كالقصيدة التي يمدح بها نقيب الأشراف سنة ١١٨١هـ وهي تبلغ ٦٥ بيتاً، ومطلعها:

قم للدنان فقدم بهجة[١] الطرب وشفف الكأس في مرعى من اللعب

وكان له ذوق خاص في ضرب الأمثال واقتفاء التشبيهات المستملحة، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من روائع ومبتكرات في هذا الباب فامتاز شعره بذلك، ويكفي للشاهد على ذلك أن نحيلك إلى قصيدته الرائعة في رثاء الحسين عليه السلام التي تقدمت الإشارة أليها وهي الرائية.

ثقافته

لم يذكر عن شاعرنا ماذا درس في النجف وعلى من تتلمذ وبأية درجة كانت ثقافته غير أن الذي يقرأ شعره يرى فيه لفتات الفاضل العالم بالمعارف الإسلامية، بل أكثر من ذلك يجد أنه قد درس الفلسفة وفهم دقائقها وإن كان يقول:

كفى رويدك واقصري يا هذي هيهات ليس الفيلسوف بهاذ[٢]

وإلا فلا تخل غير الدارس للفلسفة المتذوق لها يتمكن أن يقول في «ألفيته» في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

وهو الآية المحيطة في الكو ن ففي عين كل شيء تراها
الفريد الذي مفاتيح علم الواحد الفرد غيره ما حواها
هو طاووس روضة الملك بل نا موسها الأكبر الذي يرعاها
وهو الجوهر المجرّد منه كل نفس مليكها سوّاها
لم تكن هذه العناصر إلاّ من هيولاه حيث كان أباها

(١) يلاحظ أنّه في هذا البيت وفي غيره يعد التاء القصيرة بأربعمائة بينما يجب أن تعد بخمسة لأنها تكتب هاء (م ظ).

(٢) لعل الأصل (ليس الفيلسوف بهاذ) من الهذيان وبهذا التوجيه يزول التعارض. أنظر الديوان المحقق.

ففي هذه الأبيات:

أولاً – تلمح النزعة الإشراقية إلى القول بوحدة الوجود، ذلك قوله (ففي عين كلّ شيء تراها) وأراد بالعين الوجود العيني للشيء كما هو اصطلاحهم.

وثانياً – قوله (طاووس روضة الملك) وهو اصطلاح عرفاني المسمى عندهم أيضاً بالعنقاء ويقصدون به الملك الروحاني المدبّر أو العقل الفعال، وكذلك كلمة (ناموسها الأكبر) من اصطلاحهم.

وثالثاً – في البيتين الأخيرين يشير من طرف خفي إلى نظرية المثل الأفلاطونية في أحدث تفاسيرها الدقيقة فيطبق المثال المجرد للنوع الإنساني على الإمام كما هو رأي بعض الفلاسفة الإشراقيين، ولذلك هو يعبّر عن الإمام بالجوهر المجرد الذي منه أشخاص النوع تمتد في تكوينها وتزكية أخلاقها بتدبير المليك المصور تعالى شأنه.

ويشير إلى نظرية السببيّة استطراداً وهي عنده بموضع الاعتبار فيقول من قصيدة:

هبّي لـه تصلي إلى حـرم الغنى لابـد مـن سـبـب لـكـل مسبّب

وهكذا تجد في أبيات كثيرة إذا تدبّرتها أن الرجل صاحب فلسفة وعلم، فضلاً عما ينطق به شعره وبراعته فيه من دراسته للعلوم العربيّة والإسلاميّة.

حالته الماليّة

كان أبوه من تجّار بغداد وأثريائها، وقيل أنّ له موقوفات في بغداد لا تزال باقية إلى الآن، ولكن هل معنى ذلك أنّ ابنه هذا ورث هذا الثراء والتجارة فعاش عيشة الأثرياء التجّار، أو أنّه قد أدركته حرفة الأدب؟ أحسب أنّ الذي يستقرئ شعره يجد أثر نكبة الأدب له ظاهرة في ثناياه، فكان حليفه الفشل في الحصول على أسباب الرزق الحرّ، وإلاّ فما للثريّ أن يقول:

إنّي وإن أمسيت صفر أنامل فمعظم الأفلاك غير مكوكب
يا ناق أن حمى سليمان الندى مرعى الجديب فيمّميه لتخصبي

وسليمان هذا هو سليمان بك الحميري لا سليمان الشاوي، ويبدو أنّه كان يستعين به على زمانه، وأكثر من ذلك نجده يقول لنا معتذراً عن حاجته في استجدائه منه في قصيدة أخرى:

أيروّعني الزمن الذي لا جوده جودي ولا أقدامه أقدامي
لم يعيني طلباً ولكن ربّما أتت السهام خلاف قصد الرامي
وإذا طلبت منى ولم أظفر بها فالعضب قد ينبو نبو كهّام
ومتى وصلت إلى سليمان العلى عرّفته بمقامه ومقامي

إلى أن يقول معترفاً بفضل ممدوحه عليه:

لله أنملك اللواتي ألحمت بسدا منايحها العظام عظامي

وهذا لا شك شعر محتاج قد انسدّت في وجهه أسباب الرزق من طريق الكسب وقبل منح وهدايا ممدوحيه وله من هذا الباب شعر ليس بالقليل.

ولا شك أيضاً أنّ ضيق ذات يده وتقطّع أسباب الرزق عليه هو الذي جعله في دخيلة نفسه يؤمن بالحظوظ بالدرجة الأولى وينسب كل نجاح أو فشل إليها، وأن كان هو في عين الوقت ممن يؤمن علمياً بنظرية السببيّة كما قدّمنا قريباً، فإنّه قال مرّة:

لولا الحظوظ لما ألفيت ذابلة يجني النظار وشهم القوم يحتطبُ
تالله كم قاعد يؤتى خزائنها وربما لا ينال القوت مكتسبُ

وقال مرّة أخرى:

وما هو إلاّ الحظّ يولي معاشراً نحوساً ويولي آخرين سعودا

وله من هذا النحو في إرجاع كل شيء إلى الحظ القول الكثير الذي يدلّ على تأثّره

النفسي الذي اضطرّه إلى الإيمان بالحظ الإيمان المطلق كأكثر الناس الذين لا يكون حليفهم النجاح في حياتهم الماديّة.

وبعد هذا يستطيع الباحث أن يستخرج كثيراً من أفكاره وأحواله الشخصية من شعره لولا أنّ هذه الكلمة العابرة لا تسع لأبحاث أخرى. ولعلي أفتح الباب بهذه الترجمة المختصرة إلى من يريد أن يحيط بأحوال هذا النابغة، فمثلاً نستطيع أن نستنتج أنّه كان يلثغ بالراء ويقلبها عيناً من قوله:

ولم ألغ حرف الراء إلاّ لحكمة إذا فهت بالراوي تلفظت بالعاوي

وقالوا روى عنك الأحاديث كاذب لقد صدقوا لكنما كذب (الراوي)

ألفيّته

ونختم كلمتنا عنه بالحديث عن ألفيّته العامرة المعروفة بالأزرية التي لأجلها ترجمنا له وقد طبقت شهرتها الآفاق واقتنتها روّاد الأدب والمعرفة وحفظتها أهل المنابر والخطباء وخلّدت شاعرها في الطبقة الأولى من شعراء اللغة العربية، ولا غرو فإنّها تجمع إلى المتانة والجزالة وضوح الديباجة ورقّة الأسلوب ودقّة التعبير وتركيز الفكرة وقوّة الحجّة وسلاسة البيان وسلامة اللفظ، كما تجمع إلى الاستدلال المتين على العقيدة والحماسة الدينية المشبوبة القصص التأريخية والمناحي الأخلاقية العالية والدعوة إلى العدل الإسلامي كل ذلك مع المدح والثناء البالغ لسيد الرسل وآل بيته الطيبين (عليه وعليهم السلام) فجاءت كما تقرأها آية في الفن ومفخرة من مفاخر الشعر العربي، بل معجزة من معاجزه لم يسبقه إلى مثلها وطول نفسها سابق ولم يلحقه لاحق، وهي على طولها مع أنّها على قافية واحدة لا تجد بين أبياتها ضعفاً أو هبوطاً عن مستواها العالي.

وممّا يؤسف له حقاً أنّ ناظمها وضعها في طومار[1] للاحتفاظ بها وهي تبلغ ألف

(١) وفي تكملة الصدر: أن الذي استخرجها الإمام السيد صدر الدين الصدر (١٢٩٩ – ١٣٧٣)

بيت فأكلت الأرضة جملة منها، والذي بقي منها على التحقيق ٥٨٧ بيتاً، وهو الموجود المتداول بين أيدي الناس الذي خمسه المرحوم الشيخ جابر الكاظمي.

وهي ينبغي أن تعدّ كتاباً دينياً لا قصيدة فإنّها تمثل رأي الإمامية في النبوة والإمامة كاملاً وفيها كثير من المباحث الكلاميّة وإقامة الحجج عليها في باب الإمامة تغني بجملتها عن مجلدات ضخمة ولا شك أنّ تركيز الفكرة واختصار العرض وإيجاز الدليل وتلخيص الوقائع ودقة التعبير كل ذلك لا يحصل بالنثر كما يؤديه الشعر، مضافاً إلى أنّ للشعر تأثيره الكبير في النفوس لإقناعها وتوجيهها، فهو أكثر أثراً في الجدل الديني وغير الديني من النثر.

وإنّها طبعت على الحجر في إيران مع التخميس مرّتين وطبع بعض شعره في بومباي.

مخمّس الأزرية

الشيخ جابر الكاظمي الربيعي

(١١٢٢ ـ ١٣١٣هـ)

نشرت هذه الدراسة ملحقة بما كتبه الشيخ المظفّر عن صاحب الأزرية.

الشيخ جابر الكاظمي الربيعي

تقدمة

كان لتخميس (الأزرية) الذي برع فيه هذا الشاعر رنّة استحسان في الأوساط الأدبية والدينية، بل كان السبب في ذيوع صيته وشهرته وتخليد اسمه في مصاف (شعراء آل البيت) في القرن الثالث عشر الذي نبغ فيه جماعة كبيرة من فحول الشعراء كما قلنا في ترجمة الأزري، وكاد أن يعد بسبب هذا التخميس في الطليعة منهم.

وفي الحقيقة أنّ الشيخ جابر الكاظمي هذا شاعر كبير ممن ازدان به عصره، ولو لم يكن له إلاّ تخميس الأزرية هذا لكفى دلالة على شاعريته وبراعته الأدبية فإنّه يدل على سلامة ذوقه وجودة تفكيره وتمكّنه من اللغة ومعرفته بأساليب البيان، ومع ذلك فله ديوان شعر عامر فيه كثير من الشعر العالي المطبوع ولا يزال مخطوطاً واسمه (سلوة الغريب وأهبة الأديب) وتجد جملة من شعره العامر في (أعيان الشيعة) في ترجمته.

كانت تربيته الأولى في النجف في الوقت الذي كانت تعج فيه بالشعراء ونوادي الأدب العامرة، ولا شك أنّ لتربيته هذه التأثير الكبير في صقل قريحته وتوجيهه إلى الناحية الأدبية، ومن أجل ذلك كان يتّصل بجماعة كبيرة من ذوي البيوتات في النجف من شعراء وفضلاء وعلماء، وله أصدقاء كثيرون فيها قارضهم الشعر ومدحهم وساجلهم فيه، كآل كاشف الغطاء وآل الخرسان والشاعر المعروف السيد راضي القزويني وغيرهم.

ولذا يقول في مطلع رثاء المرحوم السيد حسن الخرسان (وهو من الأفذاذ في علمه

ومنزلته الاجتماعية وشجاعته وإباء نفسه) وذلك سنة ١٢٦٥هـ:

دمـنٌ قضيت بربعها أوطـاري وخلعت فيها للشباب عـذاري

وكان له مطارحات ومساجلات مع جملة من شعراء عصره في النجف وبغداد، منهم الشاعر المشهور عبد الباقي العمري (١٢٠٤ – ١٢٧٨) وفي ديوان عبد الباقي جملة من هذه المساجلات التي تدل على ذوق رفيع وأدب عال.

وأديبنا فضلاً عن كونه شاعراً بالعربية فأنّه كان شاعراً بالفارسية مجيداً فيها وله ولعبد الباقي العمري قصائد مشتركة ملمّعة من شطر فارسي وآخر عربي والقسم الفارسي منها لأديبنا والعربي لعبد الباقي، وكان يتّصل بالملوك والأمراء الذين كانت عندهم سوق الأدب رائجة ويعطفون على الأدباء والشعراء. وسافر هو إلى (طهران) في زمان فتح علي شاه وامتدحه بقصيدة باللسان العربي فأجازه عليها، وكذلك سافر مرة أخرى إليها في زمان محمد شاه ومدحه أيضا بقصيدة عربية.

وأصيب في أخريات عمره بمرض عصبيّ شديد، قيل حتى سكن ستّة أشهر تحت السماء في أعلى السطح مكشوف الرأس ولم يتكلم بكلمة، وكان يتخيّل في الشيخ محمد حسن آل ياسين (١٢٢٠ – ١٣٠٨) المجتهد الكبير المشهور أنّه صاحب الأمر المنتظر متستراً باسم الشيخ محمد حسن، وقد عولج بالأخير فتحسّنت حاله، وقد نقل السيد الأجل العلاّمة الأمين (١٢٨٤ – ١٣٧١) حفظه اللهّ تعالى في كتابه (أعيان الشيعة) أنّه رآه وهو شيخ كبير.

نسبه

في أعيان الشيعة: أنّه ابن الشيخ عبد الحسين بن عبد الحميد (المعروف بحميد)

بن الجـواد[١] بن أحمد[٢] بن عباس بن خضر بن عباس بن محمّد بن المرتضى بن أحمد بن محمود بن محمّد بن الربيع الربيعي ينتهي نسبته إلى ربيعة بن نزار، فهو عربي الأصل والمنشأ ولكنّه لم يلقب بقبيلته وإنّما المعروف تلقيبه بالكاظمي.

وأمّه علويّة تسمى بالهاشمية بنت السيّد جواد البغدادي، وكانت جليلة القدر عابدة زاهدة، يحكى أنّ صاحبي الفصول والجواهر[٣] كانا إذا جاءا لزيارة الكاظميين عليهما السلام يزورانها في دارها لجلالتها، ويشير هو إلى نسبه من أمّه بالأبيات التي مدح بها الشيخ محمّد الشيخ علي كاشف الغطاء، وكان الشيخ يتعهّده ويجزل له العطاء فأعطاه مرّة عباءة فاخرة فأنشأ ارتجالاً:

إنّ خـير الـورى محمّـد مـن في ... مثـلـه بـعـده عـقـمـن الـنـسـاء
شملتني منـه العـبـا فحبتني ... بـفـخـار يـــدوم تـلـك الـعـبـاء
أنـا مـن (أهلها) وقـد شملتني ... نسبة حيث جـدتي (الـزهـراء)

وهو خال السيّد الجليل المجتهد السيّد حسن الصدر الكاظمي (١٢٧٢ – ١٣٥٤هـ) رحمه الله.

(١) الجواد أبو قبيلة تعرف بالجوادات في «بلد» التي بين بغداد وسامراء.

(٢) وفي الذريعة أضاف اسم «خضر» بين أحمد وعباس والعباس هذا كان أباً لتسعة أولاد يسكنون في «بلد».

(٣) كتاب الفصول الغروية للشيخ محمد حسين عبد الرحيم الطهراني المتوفى عام ١٢٥٠هـ. وكتاب جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام للشيخ محمد حسن النجفي الذي اشتهر بكتابه المذكور وسيأتي الكلام عنه لاحقاً.

شيخ الفقهاء

الشيخ محمّد حسن النجفي صاحب الجواهر

(١١٩٢ ـ ١٢٦٦هـ)

نشرت الدراسة مقدّمة لكتاب جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام.

الشيخ محمّد حسن النجفي صاحب الجواهر

من هو؟

هو (محمّد حسن) بن الشيخ باقر بن الشيخ عبد الرحيم بن آغا محمّد الصغير بن عبد الرحيم الشريف الكبير[1].

هو عنوان الأسرة الجواهريّة العلميّة المعروفة بالنجف الأشرف، وبكتابه (جواهر الكلام)[2] عرفت، ومنه ابتدأت شهرتها وطار صيتها وانتشرت آثارها وتوطّدت أركانها[3].

وإذا كان قصير النسب فهو المطوّل لمجد أسرته والمجدّد لها الذكر الذائع وبعد الصيت وطيب الأحدوثة والفخر الخالد والمؤسس لمحتدها والباني لصرح عزّها.

ولم يقتصر جهد هذا الشيخ الجليل على تصنيف كتابه العظيم (الجواهر) فحسب – وإن كان هذا وحده ليس بالشيء القليل فقد جعله في مصاف العظماء النوابغ على ما سيأتي – ولكنّه كان من عظماء القرن الثالث عشر الهجري ونوابغه في كتابه هذا وفي

(١) كما نسب نفسه (قدس سره) في آخر كتاب القضاء والشهادات من كتابه الجواهر. أنظر جعفر محبوبه، ماضي النجف وحاضرها ٢: ١٢٨.

(٢) وعنوانه (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) ابتدأ في تصنيفه وهو ابن خمس وعشرين سنة وأول ما كتب منه كتاب الخمس فرغ منه سنة ١٢٣١ وآخر ما كتب كتاب الأمر بالمعروف كما عن خطه الشريف. محبوبه، المصدر السابق ٢: ١٣٢.

(٣) كان لأجداد الأسرة في النجف ذكر قبل ذلك في أوائل القرن الثاني عشر (الهجري) فإنّ جدّها الأعلى عبد الرحيم الشريف الموصوف بالكبير النجفي كتب له بعض تلامذته شعراً سنة ١١٤٩هـ. المصدر السابق ٢: ٩٩.

قوّة عارضته، ولسانه المفوّه، وبراعة تدريسه، وإدارته لشؤون النجف والعالم الإسلامي التابع لها، وأخلاقه الفاضلة المحمديّة وملكاته العالية الملكوتيّة، وعنايته الفريدة بتربية تلامذته أبطال الحوزة العلميّة الذين تبوّأوا بعده منصّة الزعامة الروحيّة المطلقة.

وقد انتهت إليه الرئاسة العامّة والمرجعيّة في التقليد باستحقاق، فنهض بها خير ما ينهض به المجاهدون العاملون، وتفرّد بها لا يشاركه مقارن ولا يزاحمه معارض في النجف وخارجها مع وفرة العلماء الكبار في عصره.

تولده ووفاته

لم ينصّ المؤرّخون لحياته على تأريخ ولادته – على العادة في أكثر العظماء المغفلة نشأتهم الأولى – أما وفاته فالمتفق عليه أنها كانت سنة ١٢٦٦هـ وعيّن بعضهم أنّها ظهر يوم الأربعاء غرّة شعبان[١].

وقد استنتج شيخنا آغا بزرك الطهراني حفظه الله أن ولادته في حدود سنة ١٢٠٠هـ أو ١٢٠٢هـ[٢] من **أمرين**:

(الأول) أن المسموع من الشيوخ أنّه حين الشروع في تأليف الجواهر كان عمره خمساً وعشرين سنة.

---

(١) ودفن بمقبرته الشهيرة التي أعدها لنفسه جنب مسجده الذي يقيم فيه الصلاة جماعة الماثل إلى اليوم وعلى مرقده قبّة من الكاشي الأزرق وهي مزار كما أدركناه ثم هدم والآن قيد إعماره مجدداً من قبل ديوان الوقف الشيعي، ورثاه كثير من الشعراء كالسيد حيدر الحلي والشيخ صالح الكواز وأرخ عام وفاته حفيده الشيخ عبد الحسين بن الشيخ عبد علي وقد كتبا بالحجر الكاشي على مرقده:

ذا مرقد الحسن الزاكي الذي اندرست أسرار أحمد فيه بل سرائره

أودى ومذ أيتم الإسلام أرّخه (بين الأنام يتيمات جواهره)

أنظر الشيخ جعفر محبوبه، ماضي النجف وحاضرها ٢ : ١٣٤.

(٢) أغا بزرك الطهراني، الكرام البررة ١: ٣١٠.

و(الثاني) أنه ابتدأ في تأليفه في حياة أستاذه الشيخ كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨هـ . – وستأتي الإشارة إلى ذلك – وإذا طرحنا ٢٥ من ١٢٢٨ هـ كان ما استنتجه شيخنا على نحو التقريب.

وإذا صحّ أنّ الشيخ ممّن تتلمذ على الأستاذ الأكبر الآغا الوحيد البهبهاني[١] المتوفى سنة ١٢٠٨هـ وأدرك صحبته – كما نقله الشيخ عباس القمي في الفوائد الرضويّة [٢] عن بعضهم – فلابد أن تكون ولادته أسبق من ذلك بكثير، نظراً إلى أنّه لا يصحّ في ابن ثمان أو ست – مهما كان نبوغه – أن تتلمذ على مثل الآغا البهبهاني ويصطحبه.

ثم أنّ صاحب الروضات[٣] – وهو ممن عاصر الشيخ وحضر درسه – خّمن عمره في سنة ١٢٦٢هـ بسن السبعين، فتكون ولادته– على هذا – حوالي سنة ١١٩٢هـ . فلا يبعد حينئذ أنه حضر أواخر أيام درس الوحيد البهبهاني.

ومن هذين القولين يمكن القول بتقدم تولده على ما قرّبه الشيخ آغا بزرك. أمّا أنّه ابتدأ في تأليف كتابه في حياة أستاذه كاشف الغطاء[٤] فلا يدل على أنّ ذلك كان في أخريات أيّام أستاذه، بل يجوز أن يكون ذلك في حدود سنة ١٢١٧هـ مثلاً. فتتقارب المنقولات.

وعليه فالأقرب أن تولّده في حدود سنة ١١٩٢هـ . ويساعد على ذلك الاعتبار، لا

(١) كانت ولادته في سنة ١١١٧هـ (مظ). وهناك من يذكر الولادة والوفاة (١١١٨ –١٢٠٦).

(٢) ص ٤٥٢.

(٣) الخونساري، روضات الجنّات ٢ : ٣٠٤ .

(٤) هو الشيخ الأكبر الشيخ جعفر بن الشيخ خضر الجناجي المتوفى سنة ١٢٢٨ هجرية من اكابر المراجع الدينية وزعماء المذهب وقد اشتهر بـ(كاشف الغطاء) بعد أن ألّف كتابه (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء) وعند انتشاره في الأوساط العلميّة صار يعرف بهذه الشهرة، وبها لقّبت ذريته من بعده وأصبحوا يعرفون بـ(آل كاشف الغطاء) وله الرئاسة العامة أو لمواقف العظيمة وهم أسرة علمية جليلة القدر لم يخلو منهم زمن منذ عصر جدهم من العلماء الأفاضل وأئمة الدين.

سيما – كما قيل – أنه ممن تتلمذ على السيد بحر العلوم[١] المتوفى سنة ١٢١٢هـ أو روى عنه. فهل تتلمذ عليه أو روى عنه وهو ابن عشر أو ثمان؟!

نشأته

لم يكن شيخنا المترجم له مبتدئاً في اختياره المسلك الديني بل ورث ذلك من أسرته العلمية التي ورثت هذا المسلك أباً عن جد، فإنّ جده الأعلى عبد الرحيم المعروف بالشريف الكبير هو ا لذي هاجر إلى النجف لطلب العلم وصار ممن يشار إليه بالفضيلة حتى توفي فيها في أوائل القرن الثاني عشر، وأنجب ولدين عالمين كبيرين هما آغا محمد الكبير وآغا محمد الصغير.

أما الأوّل الكبير فهو الذي تزوّج بنت العالم الجليل المولى أبي الحسن الشريف العاملي الفتوني[٢] صاحب كتاب ضياء العالمين في الإمامة المعروف الذي لا يزال مخطوطاً عند

(١) السيد محمد المهدي (١١٥٥ – ١٢١٢هـ) جدّ الأسرة العلمية المعروفة ومؤسّس مجدها.

(٢) هو أبو الحسن الشريف بن الشيخ محمّد طاهر بن عبد الحميد بن موسى بن علي بن معتوق بن عبد الحميد الفتوني النباطي العاملي النجفي (١٠٧٠ – ١١٣٨) وعرف بالشريف لأن والدته العلوية بنت السيد عبد الواسع الخاتون آبادي وآل الفتوني أسرة علميّة عربيّة معروفة في النجف الأشرف في القرن التاسع الهجري وتنسب إلى (فتون) وهي قرية من قرى جبل عامل وعبر عنه الشيخ صاحب الجواهر بالجد في بحثي الاستخارة والرضاع – ومنها انتقل الوقف إلى الشيخ وهي الدار الكبيرة المجاورة للصحن الحيدري القائمة إلى سنة ١٣٦٩ حيث هدمتها الحكومة – والشيخ الفتوني من مشاهير علماء الطائفة وصفه الشيخ النوري الطبرسي بأنّه (أفقه المحدّثين وأكمل الربّانيين، كانت تلمذته على أبيه و العلاّمة المجلسي والشيخ صفي الدين الطريحي والشيخ عبد الواحد البوراني وصفوة من الأعلام الأكابر وقد أجازه أكثرهم ممّا يدل له على السبق والتقدّم كما تشهد مؤلفاته في الفقه والأصول والتفسير والفلسفة وعلم الكلام والرجال على تضلّعه وتبحّره وتعمّقه ومن مصنّفاته كتاب (ضياء العالمين في بيان إمامة الأئمة المصطفين). توفي في النجف ودفن في الصحن العلوي. أنظر السيد الأمين، أعيان الشيعة ٧: ٣٤٢. الشيخ حرز الدين، معارف الرجال ١: ٤١ و٤٢. الشيخ محبوبة، ماضي النجف وحاضرها ٣: ٤٤. مجلة تراثنا العدد ٥٢: ١٧٠. السيد الأمين، أعيان الشيعة

الأسرة الجواهرية. فأنجب منها بنتاً واحدة فقط تزوجها الشيخ عبد الرحيم ابن عمها آغا محمد الصغير فأنجبت هي بدورها له الشيخ باقر والد المترجم له.

فالشيخ باقر هذا سبط آغا محمد الكبير وحفيد آغا محمد الصغير فهما جداه لأمه وأبيه فقد ولده الشريف الكبير عبد الرحيم مرتين.

كما أنّ الشيخ باقر سبط الشريف أبي الحسن الفتوني من جهة أمّه. ولذا كان شيخنا صاحب الجواهر يعبّر عن الفتوني بجدنا.

فشيخنا المترجم له نقطة التقاء بالأسر العلمية ومجمع فضائلها من جهة الآباء والأمّهات ووالده الشيخ باقر بالخصوص كان من فضلاء أهل العلم.

كما أن أخاه الذي يكبره سنّاً الشيخ محمد حسين كان من نوابغ طلاب العلم وقتل في ريعان شبابه خطأ وهو في طريقه إلى مسجد السهلة بطلقة ناريّة طائشة من أحد طلاّب العلم الذي كانوا – بأمر الشيخ كاشف الغطاء وتوجيهه – يتدربون في الصحراء خارج النجف على الرمي بالبنادق لغرض الدفاع عن هجمات الوهابيين التي كانت مستمرّة على النجف وكربلاء.

ومن الغريب أنّ والدتهما العلوية[1] – على ما هو المشهور عند الأسرة الجواهرية – أسفت أن يكون المقتول ولدها الأكبر محمد حسين وبقي الأصغر على قيد الحياة الذي لم تكن تتوسّم فيه النبوغ كالقتيل، ولله في خلقه شؤون. ولكنها بقيت حيّة إلى العصر الذي تسنّم فيه ولدها الصغير هذا دست الزعامة الكبرى حيث انقادت له الأمور وطبق صيته

٧: ٣٤٢.

(١) من السادة آل صعبر في قرى العذار من الحلّة وكانت تملك هناك نخيلات وقطعة أرض زراعيّة صغيرة بالميراث من آبائها حتى بقيت بعد في يد ورثة الشيخ محمّد باقر زمانا... وفي عودتها من إحدى سفراتها إلى الحلّة مع أبنائها قتل ابنها الشيخ محمد حسين بالقرب من مسجد السهلة كما أشير إلى ذلك آنفا في المتن. أنظر محمّد حرز الدين، معارف الرجال ٢: ٢٢٥.

الخافقين فرأت بأمّ عينها من اقتحمته عينها.

نسبه

أنّ نسبه الشريف كما سقناه في أول ترجمته ينتهي إلى الشريف الكبير جده الأعلى عبد الرحيم، كما أنهاه هو في آخر كتاب القضاء من كتابه الجواهر. ولم يعلم من نسبه إلى أبعد من ذلك.

كما لم يعلم من أين كانت هجرة جده الأعلى إلى النجف. ولعل في تلقيبه بالشريف ما يقرب أن يكون من أسرة الشيخ الفتوني أبي الحسن الملقب بالشريف أيضاً، وإن كان شيخنا آغا بزرك يرى أن لقب الشريف يعطي في تلك العصور لمن كانت أمّه علوية.

أما القول بأنّه من نجار غير عربي فلم يظهر لنا ما يدل عليه، والتلقيب بآغا – وقد لقب هو به جدّه الثاني محمد في آخر كتاب القضاء – ليس دليلاً على الأصل الإيراني فإنّ هذا اللقب كان معروفاً في ذلك العصر للإيرانيين وللأتراك ولغيرهم حتى للعرب ممن لهم منزلة رفيعة وتقدير واحترام.

وأما تسجيل الأسرة بالتبعيّة الإيرانيّة فقد حدث متأخّراً كسائر الأسر النجفيّة الأخرى لأجل التخلّص من الجنديّة الإجباريّة في عهد الأتراك.

ولهذا الأمر قصّة طريفة خلاصتها: أنّ الحكومة العثمانيّة شددت في إحدى السنين على تجنيد الناس بالنجف وطلبت من المرحوم الشيخ علي الجواهري المتوفى ١٣١٨ هجرية حفيد المترجم له المعروف بـ(علاوي) أن يحضر المشمولين من أسرته. وحينما رأت دائرة التجنيد تباطؤه أرسلت عليه ثلّة من الشرطة (الجاندرمة) وهو في المسجد للصلاة فأخذ مخفوراً. وكان طريقهم على دار رئيس البلدية يومئذ الحاج محمد سعيد شمسه جد رئيس بلدية النجف السابق الحاج محمد سعيد وكان هذا واقفاً على باب داره

لاستقبال الناس لمجلس التعزية عنده فلما رأى الشيخ وقد حفت به الشرطة وقع عليه مقبلاً يديه ونهرهم وأخذ بيده إلى أن أدخله المجلس، ولما علم أهل النجف بهذا التحدي ثارت ثائرتهم وعطلت الأسواق وتجمهروا مما اضطر القائم مقام إلى زيارة الشيخ في ديوانه (براني آل الجواهر المعروف) معتذراً ولكن التدابير قد سبقته فقد عزم الشيخ أن يسجل أسرته بالتبعيّة الإيرانية مع أسر أخرى نجفيّة رغبت في ذلك وأرسل إلى القنصل الإيراني للحضور فاتفق حضوره في وقت حضور القائم مقام فتشادّا في الأمر ومنعه القائم مقام من التسجيل والقنصل رفع قلنسوته (الكلاو) وأقسم ألاّ يضعها على رأسه قبل أن يتم تسجيل الأسرة الجواهرية بالتبعية الإيرانية.

وهكذا استمر الجدال مما اضطر المرحوم الشيخ جواد نجل الشيخ علي أن يسافر في يومه إلى بغداد وهو يومئذ ابن خمس وعشرين واتصل هناك بالسفارة الإيرانية وبالمقام العالي بالآستانة فاهتمّت الحكومة الإيرانية بالأمر وأوعزت إلى ممثلها عند الباب العالي أن يفهم الحكومة العثمانية بضرورة الخضوع لهذا الأمر. أمّا السلطان فقد أوعز إلى والي بغداد أن يترك هذه الأسرة وباقي الأسر النجفيّة الطالبة للتبعية الإيرانية وشأنها، ولكن الوالي لم يحفل بأمر السلطان والسلطان يكرّر عليه الأمر ثلاث مرات وهو مصرّ على عناده مما أثار حفيظة الحكومة الإيرانية حتى قطعت علاقتها مع الحكومة العثمانية فقد أمر الشاه ناصر الدين سفيره في الآستانة بإنزال العلم.

وحينما رأى السلطان ذلك أرسل إلى العراق رسولاً خاصاً بهذه المهمة وهذا الرسول جاء مع الشيخ جواد إلى النجف وحلّ ضيفاً عليه فسجّلت الأسرة بحضوره وحضور القائم مقام والقنصل في ديوان آل الجواهر كما سجلت كثير من الأسر كآل الصافي وآل سميسم في ذلك المجلس ووجه الشيخ جواد كلاماً قارصاً إلى القائم مقام مهدداً له بالتحاق جميع رعايا الدولة العلية بإيران إن بقي موظفوها على مثل هذه

الغطرسة. وكان ذلك الموقف باكورة أعمال الشيخ جواد ومنه ارتفع شأنه وعلا صيت فعاليته.

ولا شك أنّه سجل بذلك – يومئذ – نصراً مبيناً للحوزة العلميّة بالنجف وللحكومة الايرانية معاً فان النجف التي هي مرجع تقليد الأقطار الشيعية وقبلة أنظارهم كانت موضع عناية الحكومة الإيرانية واعتزازها فكيف إذا طلب عيون أهلها التبعية لهم والالتحاق لاسيما وأن النجف كانت تلاقي من اضطهاد الدولة العثمانية ما لا يوصف ولم يكن شيء يقف في وجهها غير تعهد الحكومة الإيرانية بصيانة العتبات المقدسة وأهلها ولو لا ذلك لنسفوها نسفاً وما أبقوا فيها ديّاراً.

هذا نسب شيخنا المترجم له من قبل الآباء، أمّا من جهة الأمّهات فهو ينتهي من قبل أم أبيه – كما تقدم – إلى الشيخ أبي الحسن الفتوني العالم الجليل. ومن قبل أمه إلى السادة العذاريين المعروفين بآل حجاب فإنّها علويّة منهم. ولذا كان يقضي شيخنا شطراً من أوقاته في أيام نشأته الأولى في العذارات (وهي من قرى الحلة) عند أخواله. وسيأتي في سبب تأليفه الجواهر أنه ألفه ليكون له مذكرة فقهية يرجع إليها حيث لا تتهيّأ له هناك الكتب للمراجعة عند الحاجة.

آثاره العلمية

ألّف الشيخ – عدا جواهره التي سيأتي تفصيل الحديث عنها – كتاب نجاة العباد، وهو رسالة عمليّة صنعها لمقلدّيه، وهي من الرسائل العلمية التي حظيت بالتعاليق والشروح بعد عصره، وله أيضاً عدة رسائل أخرى في الدماء الثلاثة والزكاة والخمس وأحكام الأموات وكلها ألحقت بنجاة العباد وصارت جميعها رسالة واحدة بهذا الاسم.

وله هداية الناسكين في مناسك الحج، ورسالة في المواريث وهي آخر مؤلفاته فقد فرغ منها سنة الوباء ١٢٦٤هـ.

وله كتاب في الأصول تلفت نسخته الوحيدة التي هي بخطه وقصتها أنّ له وليداً صغيراً تناول هذا الكتاب أثناء لعبه وألقاه في البئر، وبعد إخراجه وجدوا إنّه قد انمحت كلماته ولم يكن وقت الشيخ يسمح له يومئذ وهو المرجع للتقليد أن يعيد تأليفه.

ولو لم يكن له إلاّ جواهر الكلام لكفى، هذا الكتاب الكبير الواسع الذي بلغت أجزاؤه حسب تقسيمه ٤٤ جزءاً، وإن كان الناشرون حشدوا هذه الأجزاء في ستة مجلدات ضخام حشداً رعاية للاقتصاد، وسيأتي وصف هذا الكتاب الجليل.

الحركة العلمية في عصره

كانت الحركة العلمية في عهد شيخنا المترجم له في القمّة من الحركات العلميّة التي امتاز بها القرن الثالث عشر الهجري في خصوص النجف الأشرف وكربلاء.

فإنّ النهضة العلميّة التجديديّة في الفقه وأصوله – بعد الفتور العام الذي أصابها في القرن الحادي عشر وأكثر الثاني عشر – ابتدأت في كربلاء على يد المؤسس العظيم الآغا محمد باقر الوحيد البهبهاني المتوفى سنة ١٢٠٥هـ .

وبقيت بعده النجف تنازع كربلاء وتشاطرها الحركة العلمية بفضل تلميذيه العظيمين السيد مهدي بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢هـ والشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨هـ هذا تحوّل قسم من الاتجاه العلمي شطر النجف بسببهما، وإن كانت كربلاء بقيت محافظة على مركزها الأول حتى وفاة المربي العظيم المعروف بشريف العلماء وهو الشيخ محمّد شريف المازندراني المتوفى سنة ١٢٤٥ هـ الذى يقال أنّ حضّار درسه كانوا يبلغون ألف طالب وكفى أنّ أحد طلاّبه وتلاميذه الشيخ الأنصاري، وبوفاة شريف العلماء فقدت كربلاء تلك المركزيّة العلميّة حتى اتجهت الأنظار صوب النجف لوجود الشيخ صاحب الجواهر المترجم له الذي اجتذب إليه طلاّب العلم بفضل براعته البيانيّة وحسن تدريسه وغزارة علمه وثاقب فكره الجوال وبحثه الدؤوب

وانكبابه على التدريس والتأليف ولعل هناك أسباباً أخرى لهذا التحول ولا يبعد أن من أهمها أنّ كربلاء بالخصوص كانت عرضة للغارات السعودية وضغط الحكومة العثمانية وتعدياتها.

وعلى كل حال، فقد شهد هذا القرن وهو القرن الثالث عشر حركة علميّة واسعة في كربلاء والنجف مبتدئة بالوحيد البهبهاني، وبلغت غاية ازدهارها في عصر شيخنا المترجم له في خصوص النجف، فإنّ عصره ازدهر بكبار الفقهاء وفطاحل العلماء من أساتذته وأقرانه وتلاميذه مالم يشهده أي عصر مضى، ويكفي أن يكون من نتاج ذلك العصر حبر الأمّة وإمام المحققّين الشيخ مرتضى الأنصاري المتوفى سنة ١٢٨١هـ الذي أنسى الأولين والآخرين إذ تجدّد على يديه الفقه وأصوله التجدّد الأخير وخطا بهما شوطاً بعيداً قلب فيه المفاهيم العلميّة رأساً على عقب ولا يزال أهل العلم إلى يومنا هذا يدرسون على مدرسته العلميّة الدقيقة ويستقون من نمير تحقيقاته ويتغذّون بآرائه ويتخرّجون على كتبه البارعة الفاخرة.

وكان شيخنا وأستاذنا العظيم ميرزا حسين النائيني المتوفى سنة ١٣٥٥هـ يفتخر بأنّه من تلامذة مدرسته، وأنّ كل ما عنده من تحقيق ومعرفة فهو فهم أسرار آراء الشيخ الأنصاري وتحقيقاته وعرضها عرضاً مبسطاً، وكم صرح بهذا المعنى على منبر الدرس معتزّاً بذلك وفي الحقيقة كان الميرزا النائيني يعد فاتحاً مظفراً ومجدداً موصلاً لما انقطع – أو كاد – من المنهج البحثي للشيخ وهو وتلاميذه يعتزّون بهذه الصلة والوصلة العلميّة بالشيخ.

نعم لقد ازدهر عصر شيخنا صاحب الجواهر بالعلم والعلماء والطلاّب فازدحمت النجف يومئذ بروّاد العلم من كل حدب وصوب لا سيما من القطر الإيراني وبلغت القمّة في رواج العلم فيها.

ومرد ذلك – فيما أعتقد – هو الاستقرار السياسي وفترة السلم التي سادت في البلاد الإسلامية يومئذ لاسيما بين الدولتين العثمانية والإيرانية اللتين كانتا يتطاحنان ويتصارعان للتغلب على العراق مدة قرنين تقريباً أنهكت فيها الأمة العراقية إيما إنهاك وتأخّرت تأخّراً أفقدها كلّ حيويّة فسادها الوباء والجهل والفقر وأنواع الأمراض الفتّاكة.

وابتدأت الهدنة بين الدولتين قبيل عصر شيخنا المترجم له وذلك في أخريات أيام الشيخ جعفر كاشف الغطاء إذ سافر إلى إيران بقصد إطلاق سراح أسرى جيوش الحكومة العثمانيّة بعد موقعة حربيّة سنة ١٢٢١هـ توغّلت فيها إلى حدود إيران ففشل الجيش العثماني وأُسر أكثره فاستطاع الشيخ كاشف الغطاء أن يقنع شاه إيران فتح علي شاه وابنه مرزا محمّد علي قائد الجبهة بالعفو عن الأسرى وإرجاعهم إلى حكومتهم بعد أن فشلت كل الوسائط التي استعملتها الحكومة العثمانية.

فكان الصلح بعد ذلك بين الدولتين على يد مصلح الدولتين العظيم الشيخ موسى نجل الشيخ كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٤١ هـ، وفتح الباب واسعاً أمام الهجرة الإيرانية إلى العتبات المقدسة وأمام الأموال التي كانت ترسل لتعمير العتبات وصيانتها ولرجال الدين ومراجع التقليد فزاد ذلك في نشاط الحركة العلمية لاسيما أنّها كانت تحظى بتشجيع شاه إيران بتقديره للعلماء تقديراً منقطع النظير وكفى من تقديره الحفاوة البالغة التي لاقاها الشيخ كاشف الغطاء في إيران وقبول وساطته في أعظم أمر كان يحرص عليه الشاه وهو الاحتفاظ بأسرى الترك تأديباً للحكومة العثمانية لاسيما قائد الجيش كهيا سليمان باشا ابن أخ والي بغداد يومئذ علي باشا.

وبلدة النجف – مع كل هذا – أصبحت في ذلك العهد في أمان من الغارات الوهابية التي كانت لا تنقطع والتي كانت النجف وكربلاء مهددتين بها دائماً بعد أن

فشلت الغارة الأخيرة لهم سنة ١٢٢١هـ على النجف بأعجوبة ومعجزة وقد بيّتوها على حين غرّة.

نعم قد أصبحت النجف في أمان من الغارات **بسببين**:

الأول -تسليح أهلها لاسيما رجال الدين بأمر وإشراف الشيخ كاشف الغطاء فإنّه جلب لهم السلاح الكافي الرائج يومئذ وأمر بتدريبهم عليه فكانوا يخرجون خارج البلد كل يوم للتدريب وبسبب هذا قتل خطأً شقيق صاحب الجواهر كما تقدم وكان حمل السلاح والتدريب عليه فرضاً دينياً للدفاع حتى ألف السيد الجليل صاحب مفتاح الكرامة السيد جواد العاملي المتوفى سنة ١٢٢٦هـ رسالة في وجوب الذب عن النجف وهو أحد تلامذة كاشف الغطاء المبرزين وأستاذ صاحب الجواهر كما أن الشيخ كاشف الغطاء شجّع طلاّب العلم على الرياضة الدارجة في ذلك العصر وصنع (زورخانة) في نفس داره، وإن كان تسليح النجف قد أسيء استعماله بعد ذلك بوقوع الفتن بينهم لاسيما فتنة الشمرت والزكرت المعروفة التي امتدت زمناً طويلاً مدة قرن تقريباً ولا تزال آثارها باقية في التحزّبات النجفيّة إلى اليوم وإن بدأت تتضاءل على ممر الزمن.

والثاني-من الأسباب لأمان النجف من الغارات بناية سورها الأخير والخندق حوله الذي أنفق عليه مبالغ طائلة خيالية في ذلك العصر الصدر الأعظم نظام الدولة جد أسرة آل نظام النجفيّة ويومئذ كان وزيراً لفتح علي شاه وقد تم بناؤه سنة ١٢٢٦هـ أي قبل وفاة الشيخ كاشف الغطاء بسنتين.

فصارت النجف بسببه قلعة حصينة لا تستطيع أيّة قوّة في ذلك العصر أن تقتحمها وبسببه استطاعت أن تقاوم الجيوش البريطانية أكثر من شهر في حصار النجف المعروف سنة ١٣٣٦هـ.

وإذ اطمأنّت النجف على سلامتها من عادية الوهابيين من جهة وعادية الحكومة

العثمانية من جهة أخرى لاسيما بعد وساطتها وتأثيرها لدى الحكومة الإيرانية كما سبق ورعاية الحكومة الإيرانية لها ابتدأت حياة الاستقرار والاطمئنان فيها تزدهر عند سكانها والمهاجرين إليها، ونشطت فيها أيضاً – تبعاً لذلك – الحياة الاقتصادية، ونشط العمل لجلب المياه من الفرات إليها بشتى الوسائل.

إن كل تلكم الأسباب اجتمعت في عصر الشيخ صاحب الجواهر بالذات أكثر من كل عهد مضى فزادت الهجرة إليها من أهل العلم زيادة ملحوظة وانصرف أهل العلم إلى التحصيل والجد والدرس والتدريس والتأليف فلذلك كان نشاط الحركة العلمية في ذلك العهد في القمّة.

وإلى جانب ذلك نشطت الحركة الأدبية أيضاً نشاطاً لم تعهده البلاد الإسلامية كلّها بعد القرن الخامس الهجري فنبغ في القرن الثالث عشر بالنجف (والحلّة أيضاً) شعراءهم في الدرجة الأولى من الشعر العربي وفي الطليعة من شعراء كافّة العصور الإسلامية كشعراء آل الأعسم وآل محيي الدين وآل النحوي والشيخ عباس الملا علي ثم طبقة السيد حيدر الحلي والشيخ محسن الخضري والسيد جعفر الحلي ومن إليهم ممن جاء تلوهم من طبقة المجاهد الحجّة السيد محمد سعيد الحبّوبي والسيد إبراهيم بحر العلوم الذين كانوا من نوابغ القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

ولا شك أن نشاط الحركة الأدبية كان من نتائج ازدهار النجف بالعلم والعلماء واستقرارها من نواحي الأمان والحياة الاقتصادية فكثرت محافلها ومجالسها والمباريات الأدبية، وتوطدت فيها البيوت العلمية وتوطّنت.

وجميع هذا مما ساعد على ظهور نوابغ في العلم هم في جبين الدهر غرة بيضاء مشرقة وفي صفحات القرون صفحة مليئة بالمعرفة مرصوفة بالآثار العلمية القيّمة.

ونكرّر أنه في القمّة كان شيخنا صاحب الجواهر وكتابه وكان جده أيضاً كذلك

وذلك من ناحية إقبال الناس على تحصيل العلم وكثرة الطلاب حتى قيل كان مجلس بحثه يضم أكثر من ستّين مجتهداً من المعترف لهم بالفضيلة وقد تخرّج على يديه من أعلام الدين ما يفوت الحصر واستمر هذا الارتفاع في الأرقام العلميّة للمؤلّفات والعلماء حتى القرن الرابع عشر الذي ورثنا فيه ذلك المجد العلمي والأدبي.

ولولا الوباء الكاسح الذي كان ينتاب العراق والنجف بالخصوص بين آونة وأخرى، ولولا فتنة الشمرت والزكرت التي استفحلت بالنجف في تلك العهود وصارت سبباً لقلق السكان الدائم وخطراً على الأرواح والأموال وكرامة الناس لكان للنجف شأن آخر لم يحلم به المقدر.

كتاب الجواهر

تقدم في الفصل السابق وصف الحركة العلميّة في القرن الثالث عشر خصوصاً في النجف وقلنا: إنّ ذلك القرن شهد تحوّلاً جديداً في الاتجاه العلمي ابتدأ على يد الوحيد البهبهاني.

وقد برز في ذلك القرن أقطاب لعلم الفقه وأصوله هم في الدرجة الأولى علماً وتأليفاً وتقوىً وصلاحاً. وخلّفوا لنا آثاراً قيّمة خالدة تشهد على مدى التوسّع العلمي في ذلك العهد، مثل كتاب كشف الغطاء ومفتاح الكرامة والرياض والمكاسب في الفقه، والقوانين والفصول والضوابط وحاشية المعالم للشيخ محمد تقي الأصفهاني ورسائل الشيخ الأنصاري وتعليقاتها في أصول الفقه، إلى غير ذلك من كتب مطولة.

وكان في القمّة من تلك الآثار الفقهيّة كتاب (جواهر الكلام)[1] في شرح شرائع

(١) وكان مدار استنساخ الجواهر على يد الشيخ محمّد الخمايسي وصحّح نسخة منها بدقّة الشيخ حسين القمشيء بخطّه ثم سهّل على النسّاخ ما ساهمه بالتصحيح تلميذ الشيخ الجواهري الشيخ حسن بن علي السعدي الرياحي الشهير بقفطان (١١٩٩ – ١٢٧٧هـ) والمعروف أنّ الشيخ قدس سره بقي

الإسلام الموسوعة الفقهيّة التي فاقت جميع ما سبقها من الموسوعات سعةً وجمعاً وإحاطةً بأقوال العلماء وأدلّتهم فوفّق الكتاب توفيقاً منقطع النظير في إقبال أهل العلم عليه رجوعاً ونسخاً وبالأخير توفّق للنشر بعد وفاة المؤلف بقليل فطبع على الحجر بإيران خمس طبعات في ستّة مجلّدات ضخام ووقف منه مئات النسخ على طلاّب العلم بالنجف وكربلاء وإيران.

مزايا الكتاب

والسرّ في هذا الإقبال على الكتاب يرجع إلى أنّه:

أولاً – كتاب لم يؤلّف مثله في سعته وأحاطته بأقوال العلماء وأدلّتهم ومناقشتها مع بعد نظر وتحقيق. مضافاً إلى أنّه

ثانياً – كتاب كامل في أبواب الفقه كلّها جامع لجميع كتبه.

وميزة ثالثة – تفرّد بها أنّه على نسق واحد وأسلوب واحد وبنفس السعة التي أبتدأ بها انتهى إليها.

ورابعاً – أنّ به الغنى عن كثير من الكتب الفقهيّة الأخرى ولا يستغني بها عنه، فإن المجتهد – إذا حصل على نسخة صحيحة منه – يستطيع أن يطمئن إلى استنباط الحكم الشرعي بالرجوع إليه فقط وليس له أن يطمئنّ إلى ذلك عند الرجوع إلى ما سواه في أكثر المسائل الفقهيّة حتى في هذه العصور الأخيرة، ونقل عن صاحبه رحمه اللهّ أنّه قال: «من كان عنده جامع المقاصد والوسائل والجواهر فلا يحتاج إلى كتاب للخروج عن

في تصنيف موسوعته الجواهر نحواً من ثلاثين عاماً كما تشير إليه إجازاته إلى تلميذه العالم الشيخ عيسى زاهد وفي آخر كتاب منها فيه ما ملخصّه: تم كتاب جواهر الكلام في شرح شرايع الإسلام ليلة الثلاثاء ٢٣ من شهر رمضان سنة ١٢٥٤ هجرية بيد مؤلفه العاثر المقصّر القاصر محمّد حسن بن الشيخ باقر. أنظر محمّد حرز الدين، معارف الرجال ٢: ٢٢٦.

عهدة الفحص الواجب على الفقيه في آحاد المسائل الفرعية»، وهذه من الشيخ شهادة قيّمة في جامع المقاصد للمحقق الثاني الشيخ علي الكركي وهو بحق من أروع الكتب الفقهية في تحقيقاته.

وميزة خامسة – في الجواهر، أنّه احتوى على كثير من التفرّعات الفقهيّة النادرة بما قد لا تجده في غيره من الموسوعات الأخرى فهو جامع لأمّهات المسائل وفروعها.

فالجواهر جواهر بجميع ما تعطي هذه الكلمة من دلالة، فهو اسم على مسمّاه، وهذا كلّه سرّ خلوده وتفوّقه وبقائه مرجعاً للفقهاء على طول الزمن ولعدم استغناء الفقيه عنه لا تجد في جميع الأقطار العلميّة طالباً للفقه تخلو مكتبته من هذا الكتاب مهما كانت فقيرة ومهما كانت حاجته إلى المال[1].

وليس – مع هذا كلّه – يخلو الكتاب من لعلّ وعسى، فإنّ أبرز ما يلاحظ عليه أنّه قد يحتاج في جملة من مباحثه إلى إعادة نظر المؤلّف لتوضيح بعض العبارات – على الأقل – ولتنظيمه في عرض الأدلّة ومناقشتها وعرض الأقوال وأدلّتها، ولكن أنّى لمثل هذه الموسوعة الكبيرة أن يسع عمر مؤلّفها إعادة النظر فيها ولا ينقضي العجب كيف تمّ لشخص واحد تأليف كتاب بهذه الضخامة ووسعه عمره، مع أنّه أصبح مرجعاً دينياً عاماً لجميع الأقطار، وعن بعض العلماء أنّه قال: لو أراد مؤرّخ زمانه أن يثبت الحوادث العجيبة في أيّامه لم يجد حادثة أعجب من تصنيف الجواهر.

وعقدة العقد في هذا الكتاب – مع أنّه توفّق لأن يطبع عدّة مرّات – أنّ كل طبعاته

---

(١) لقد كان الشيخ صاحب الجواهر يذكر المسألة الفقهيّة وآراء الفقهاء فيها وأدلّتهم عليها من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وما تقتضيه الأصول والقواعد، ويختار ما يراه صحيحاً ويدعمه بالمستندات، ويبطل أدلّة أقوال الآخرين، ويختار فيجزم، ويثبت على رأيه لا يعدل عنه ولا يشكل ولا يتردّد كبعض الفقهاء، بل يرى التردّد مع وجود الدليل شذوذاً ووسوسة. محمّد جواد مغنيّة، مجلة النجف العدد الثالث السنة الأولى: ٥.

سقيمة في نسخها وإخراجها وتشويشها وتشويه عناوينها وأبوابها، وإن اختلفت الطبعات في هذه الميزات بل حتى ترقيم الصفحات ضنّ به بعض نسّاخ الطبعات الحجريّة مع كثرة الغلطات الفاحشة المغيّرة للمعنى خصوصاً في الطبعات الأولى حتى تكاد أن تضيع جملة من مقاصده وآرائه.

والمطالع يعاني في قراءة تلك الطبعات كثيراً من الأتعاب المضنية المجهدة التي لا يذلّلها إلاّ الشوق الجبّار الملحّ إلى استخراج كنوز الكتاب والاستفادة من اللفتات القيّمة فيه.

وكم كان جميلاً، بل واجباً، أن يطبع طبعاً سليماً صحيحاً متقناً مفهرساً ولو على الحجر كطبعات بعض الكتب الأخرى مثل شرح اللّمعة والشرائع والوافي والكافي.

ونرجو أن تكون هذه الطبعة الجديدة – على الحروف – التي نقدّمها بترجمة المؤلف قد وافاها التوفيق في إخراج الكتاب إخراجاً يليق بشأنه وبالحاجة.

نرجو أن يكون القائمون على طبعه وإخراجه ولجنة التصحيح– وهم الآن في أول الطريق – قد توفّقوا لتدقيقه وتصحيحه وإبرازه بحلّة جميلة تريح الطالب وتملأ نفس المطالع اطمئناناً وثقة وهم يملكون من أسباب تصحيحه ما لم يكن يملكها الناشرون له قبلهم وأهمّها أن تكون النسخة الأصليّة المصحّحة بخط المؤلّف تحت تصرفهم.

ونسأله تعالى أن يوفّقهم لإخراجه كلّه على نسق واحد وإن طال بهم الزمن واستدعى جهوداً جبّارة وأموالاً كثيرة لا ينهض بها إلاّ الرجال الأفذاذ المجاهدون في سبيل العلم وأجرهم غير ضائع عند الله تعالى من الثواب وعند أهل العلم من التقدير والدعاء.

تأريخ تأليف الكتاب

المعروف أنّه شرع في تأليفه من كتاب الخمس على غير الترتيب، وكتاب الخمس فرغ منه بتاريخ ١٢٣١هـ كما سجّل في آخره، وآخر ما كتبه منه كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانتهى منه سنة ١٢٥٧هـ كما سجّل في آخره أيضاً.

ولكن الشيخ أغا بزرك الطهراني – حفظه الله تعالى – استنتج أنّ أوّل كتاب شرع فيه هو كتاب الطهارة بدليل أنّه ذكر في مبحث أحكام الاستنجاء أستاذه الشيخ كاشف الغطاء وقال عنه (سلمه الله) كما تنطق به النسخة الأصلية المخطوطة ومن المعلوم أن الشيخ الكبير توفى سنة ١٢٢٨هجرية.

أما نحن فقد استظهرنا – فيما سبق – أن شروعه في تأليفه له كان قبل ذلك إذا صحّ أنّه شرع فيه وهو ابن خمس وعشرين.

سبب تأليف الكتاب

نقل عن التكملة أن الشيخ قال في جملة كلام له مع تلميذه فقيه عصره الشيخ محمّد حسن آل ياسين عن كتابه الجواهر في قصة طويلة: «والله يا ولدي أنا ما كتبته على أن يكون كتاباً يرجع إليه الناس، وإنّما كتبته لنفسي حين كنت أخرج إلى (العذارات) وهناك أسأل عن المسائل وليس عندي كتب أحملها لأني فقير فعزمت على أكتب كتاباً يكون لي مرجعاً عند الحاجة ولو أردت أن أكتب كتاباً مصنّفاً في الفقه لكنت أحبّ أن يكون على نحو رياض المير السيد علي فيه عنوان الكتابية في التصنيف».

وقد علّق صاحب التكملة على هذا الخبر بما معناه: أن نيّة الشيخ هذه وخلوصها من طلب الجاه والسمعة هي السبب في توفيق مؤلفه إلى إكماله والسبب في رواجه عند الناس.

والحق أنّ الكتاب بما فيه من البسط وعدم الترتيب شاهد على صحّة هذا النقل من أنّه كتبه ليكون مذكّرات ومرجعاً له خاصة لا على أسلوب التأليفات المنمّقة.

ومن هنا نعرف السرّ فيما كان يصنعه كثيراً من اقتطاف نص عبارات الرياض وشرح اللمعة من دون الإشارة إلى المصدر ولا إلى ما يشعر بالاقتطاف.

أعلام تلاميذه

ذكرنا فيما سبق كيف نشطت الحركة العلميّة في النجف الأشرف في عهد الشيخ المترجم له، وأقبل طلاّب العلم على الهجرة إليها. وكان درس الشيخ بالخصوص ملتقى النوابغ والمجتهدين من الطلاّب فتخرّج على يديه جماعة كبيرة من أعلام الفقه انتشر أكثرهم في البلاد حتى قيل أنّه لم تبق بلدة شيعية ليس فيها مرجع للناس من تلاميذه وكان هو يمدّهم برعايته ويسدّدهم ويغدق عليهم، وقصّة الشيخ محمّد حسن آل ياسين أحد أعلام تلاميذه معروفة فإنّ الشيخ وجّه به إلى بغداد ليكون مرجعاً للناس هناك وبعد مدّة قدم النجف أحد تجّارها يحمل إلى الشيخ من الحقوق الشرعية ثلاثين ألف (بيشلك) العملة المتداولة يومئذ فأنكر عليه أن يحمل مثل ذلك إليه مع وجود الشيخ محمّد حسن بين ظهرانيهم ورده وقال: أظن أنّ الشيخ محمّد حسن سيهلك جوعاً ثم بعد هذا توافد أهل بغداد لزيارة الغدير فحجبهم الشيخ عن ملاقاته معلناً غضبه وهم يجهلون السبب وفي عصر يوم الغدير حيث مجتمع الوفود دعا الناس للاجتماع في الصحن العلوي المطهّر وخطب فيهم مذكّراً لهم فضل العلماء ونددّ بالبغداديين إذ قصروا في حق الشيخ محمّد حسن وبيّن لهم أنّ هذا سبب غضبه عليهم وحجبه لهم فما كان من البغداديين إلاّ أن نهضوا إلى الشيخ محمد حسن وكان حاضراً معتذرين وحملوه معهم مبجّلاً إلى بغداد فكان له من الشأن ما طبق ذكره الخافقين.

وأحب أن أذكر جماعة من أعلام طلاّبه الذين كانت لهم الشهرة العلميّة والزعامة

الدينية على الحروف الهجائية:

١. ميرزا إبراهيم شريعتمدار السبزواري العلوي (المتوفى سنة ١٣١٦)، أجازه الشيخ سنة ١٢٦٥.

٢. السيد إبراهيم اللواساني (المتوفى سنة ١٣٠٥).

٣. السيد أسد اللهّ الأصفهاني (١٢٢٧ – ١٢٩٠).

٤. السيد إسماعيل البهبهاني (١٢٢٩ – ١٢٩٥).

٥. الشيخ محمد باقر الأصفهاني(المتوفى سنة ١٣٠١) ولد صاحب حاشية المعالم (الشيخ محمد تقي).

٦. الشيخ جعفر الشيخ محسن الأعسم (المتوفى سنة ١٢٨٧).

٧. الشيخ جعفر التستري (المتوفى سنة ١٣٠٣).

٨. الميرزا حبيب اللهّ الرشتي (١٢٣٤ – ١٣١٢).

٩. الشيخ محمّد حسن آل ياسين (١٢٢٠ – ١٣٠٨).

١٠. السيد حسن المدرّس الأصفهاني (المتوفى سنة ١٢٧٣).

١١. الشيخ حسن بن الشيخ أسد اللهّ صاحب المقابيس الكاظمي (١٢٣٢ – ١٢٩٨).

١٢. الشيخ حسن المامقاني (١٢٣٨ – ١٣٢٠).

١٣. الشيخ محمّد حسن الشرقي (المتوفى سنة ١٢٧٧).

١٤. الأغا حسن بن المولى إبراهيم باقر الطهراني النجم آبادي المتوفى حدود سنة ١٢٨٤.

١٥. ميرزا حسين الخليلي (١٢٣٦ – ١٣٢٦).

١٦. الشيخ محمد حسين الكاظمي(١٢٢٤ – ١٣٠٨).

١٧. السيد حسين الترك (المتوفى سنة ١٢٩٩).

١٨. السيد حسين حفيد بحر العلوم (١٢٢١ – ١٣٠٦).

١٩. الشيخ محمّد حسين بن عباس علي الطالقاني القزويني (١٢١٨ – ١٢٨١).

٢٠. الشيخ راضي النجفي جدّ الأسرة العلمية المعروفة باسمه (المتوفي سنة ١٣٠٨).

٢١. الشيخ زين العابدين بن كربلائي مسلم البارفروشي الحائري (١٢٢٧ – ١٣٠٩).[1]

٢٢. الميرزا (محمّد) صالح عرب بن السيد حسن الموسوي الشيرازي المعروف بالداماد توفي في الثاني من ربيع الثاني سنة ١٣٠٣.

٢٣. الشيخ عبد الحسين بن علي الحائري النجفي الشهير بشيخ العراقين الطهراني توفي في الثاني والعشرين من شهر رمضان ١٢٨٦.

٢٤. الشيخ عبدالرحيم بن الميرزا نجف المستوفي بن محمّد علي الشيرازي النهاوندي توفي في شهر ربيع الثاني ١٣٠٤.

٢٥. الشيخ عبد الله نعمة العاملي (المتوفي ١٣٠٢).

٢٦. السيد علي حفيد بحر العلوم (المتوفي سنة ١٢٩٨).

٢٧. المولى علي الكني (١٢٢٠ – ١٣٠٦).

---

(١) ومن تلامذة الشيخ السيد زين العابدين بن السيد حسين بن السيد محمّد المجاهد الطباطبائي الحائري عالم فقيه جليل من أجلاء تلاميذ صاحب الجواهر من مشاهير علماء كربلاء وأكابر مراجع الدين توفي في الثامن من ذي القعدة سنة ١٢٩٢هـ.

٢٨. المولى علي الخليلي (١٢٢٦ – ١٢٩٧).

٢٩. الأغا ميرزا علي نقي الطباطبائي(المتوفي سنة ١٢٨٩).

٣٠. الشيخ عيسى زاهد (المتوفي سنة ١٢٨٠).

٣١. ملا محمد الفاضل الإيرواني (١٢٣٢ – ١٣٠٦).

٣٢. الملا محمّد الأندرماني الطهراني (المتوفي سنة ١٢٨٢).

٣٣. الملا محمّد بن محمّد مهدي البارفروشي الأشرفي (المتوفى سنة ١٣١٥).

٣٤. السيد محمّد بن عبد الصمد الحسيني الشهشهاني الأصفهاني (المتوفى سنة ١٢٨٧).

٣٥. السيد محمّد الهندي (١٢٤٢ – ١٣٢٣).

٣٦. السيد ميرزا محمود بن الميرزا علي نقي الطباطبائي البروجردي.

٣٧. الشيخ مهدي الكوجوري (المتوفى سنة ١٢٩٨).

٣٨. ميرزا نصر اللهّ الخراساني (المتوفى سنة ١٢٩١).

٣٩. الشيخ نعمة الطريحي (١٢٠٧ – ١٢٩٣).

٤٠. الشيخ نوح القرشي النجفي (١٢١٣ – ١٣٠٠).

آثاره ومآثره

أشرنا – فيما سبق – إلى الأمور التي رافقت حياة شيخنا المترجم له لاسيما أيام زعامته الدينية من الاستقرار السياسي والتقدم الاقتصادي واطمئنان النجف على سلامتها وهذه الأمور – بطبيعة الحال – كان لها أثر كبير في رفعة شأن المقام الروحاني والزعامة الدينية في ذلك العصر حتى أصبح الزعيم الديني في النجف الرجل الأول في

البلاد وله الكلمة العليا في الدول الإسلامية.

وقد تمثل هذا النفوذ الكبير للزعيم الديني في شخص شيخنا المغفور له فأحسن الاستفادة منه في مجالات كثيرة للتوجيه وتربية رجال العلم وإعزاز شأنهم وإعلاء كلمتهم فوجّه بأقطاب العلم إلى أنحاء كثيرة في البلاد ونشرهم في شتى الأصقاع وثبّت مراكزهم كما قرأت في نصبه للشيخ محمّد حسن آل ياسين علماً في بغداد وهو من أفذاذ المجتهدين وكيف وجّه إليه الأنظار وفتح له المجال حتى صار من مراجع التقليد بعد ذلك، ولا شك أنّ هذا من سعة أفقه وبعد نظره وحسن تدبيره.

ومن سعة أفقه وبعد نظره وإخلاصه تنصيبه للشيخ الأنصاري خلفاً له فقد دعاه في مرض موته بحضور أكثر أعلام تلاميذه وأولاده الذين يرى كل واحد منهم في نفسه الكفاية لهذا المنصب الرفيع ولقد اشرأبّت إليه أعناقهم، ولكنه عهد إليه دونهم بهذا المنصب حتى- قيل - عضّ أحد تلاميذه على إصبعه فأدماها وهو لا يدري، والأنصاري يومئذ مغمور لا يعرفه كل أحد، فقد كان (ملا مرتضى) وخرج من ذلك المجلس وهو (الشيخ مرتضى) على أنه لم يكن معدوداً من تلاميذه وإنّما كان يحضر درسه وفي أواخر أيّامه تيمّناً لحضور التلميذ المستفيد ولذا كان يعبّر عنه في كتبه ببعض المعاصرين لا أكثر، ولما رأى شيخنا فيه الأهلية لهذا المنصب الإلهي في علمه وتقواه وورعه قدّمه على جميع تلامذته فكان في اختياره موفّقاً كل التوفيق وأعطى بذلك درساً بليغاً في القدسيّة ونكران الذات لا يُنسى تغمّده اللهّ تعالى برحمته.

ومن الأمور الجليلة التي استغل فيها نفوذه للصالح العام واستعمل كل براعته فتح النهر المعروف باسمه لإرواء النجف التي كانت تعاني من العطش ما تعاني من قرون طويلة فإنّه - رحمه اللهّ - فكّر أن يفتح من نهر الفرات قناة كبيرة إلى وادي النجف مهما كلّفه الأمر ولما قيل له أنّ هذا المشروع يتطلّب نفقات هائلة يعجز عنها الملوك إذ يجب

حفر القناة إلى مقدار عمق الآبار النجفيّة قال: أعلم بمقدار ما يتطلب من مال وقد قدّرت له ما يقابل وزن ما أخرجه من الرمل ذهباً، فهل هذا لا يكفى أيضاً؟ هذا هو التصميم والإرادة الجبّارة التي تذلّل كل صعب.

وبالفعل تم حفر النهر المعروف باسمه الواقع على يسار الذاهب إلى الكوفة قرب سور النجف وقد شهدنا آثاره قبل أن تمتد دور الجديدة إليه ومنبعه يتصل بأراضي بني حسن العشيرة المعروفة وجرى الماء فيه حتى قيل أنّ الشيخ منّاع[١] المعروف بطول القامة (الذي كان يهتف به الناس باللغة الدارجة: (شيخ منّاع. رأسك بالسما ورجليك بالكاع) أنزله الشيخ إلى النهر لقياس عمق الماء فغمره الماء إلى أعلى أطراف أصابعه وهو رافع يديه وكان الشيخ منّاع يتحدّث بهذه المكرمة لنفسه وقد عمّر بعد هذا إلى زمن طويل حتى أدركه أحفاد الشيخ وسمعوا منه القصّة منهم العلم المعروف الشيخ محسن ابن الشيخ شريف الجواهري[٢].

ولكن النهر كانت تعوزه أمور فنيّة غير متهيّئة في ذلك العصر فقضت عليه بسرعة إذ انهارت الرمال في كثير من مواقعه. ولم ينفع معها بعده قيام تلميذه الجليل السيد

---

(١) تقي زاهد عابد عارف بأحوال علماء النجف الأشرف توفي مطلع القرن التاسع عشر بعد أن ناهز المائة عام اعتمد عليه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في كتابه (العبقات العنبرية) وقال عن تعريفه: (كان من عباد الصالحين الملازمين لخدمة العلماء والسعي في مصالحهم ومن منن الله عليه لحسن نيته وصحبته لأوليائه أنّه مدّة عمره لم يسقط له ضرس ولم تعم له عين ولم يحن له ظهر ولم تصبه عاهة ولا آفة بجميع أنواعهما حتى قبضه الله إليه وكثيراً ما أروي عنه مرسلاً أو مسنداً لشدّة الاطمئنان إليه..) ونقل عنه السيد حسين البراقي نقولاً في مؤلّفاته ووصفه بأنّه رجل أمّي شرّفه الله بخدمة العلماء وحفظ من أحاديثهم حتى صار واعظاً لحفظه للأخبار والأحاديث والمواعظ وهو من أهل الورع والصلاح. السيد أحمد الحسيني، تراجم الرجال ٣: ٤٧٧.

(٢) عالم جليل مجتهد مجاهد ولد سنة ١٢٩٥ وتوفي سنة ١٣٥٥. الشيخ آل محبوبه في ماضي النجف وحاضرها ٢: ١٢١.

أسد اللهّ الأصفهاني عالم أصفهان المعروف إذ سعى – بعد أن زار النجف بعد وفاة أستاذه – إلى إكماله وصرف عليه مدّة ست سنوات أموالاً طائلة حتى جرى الماء فيه سنة ١٢٨٨ هجرية مرة أخرى ثم انطمس وترك إلى الأخير تذروه الرياح وعادت النجف إلى عطشها المعهود تشكو إلى الله تعالى عناءها.

ومن (آثار الشيخ) بناء مأذنة مسجد الكوفة وروضة مسلم بن عقيل وصحنها وسورها الذي لا يزال ماثلاً وكان ذلك ببذل ملك الهند أمجد علي شاه، وقد أرّخ الشيخ إبراهيم صادق ذلك من قصيدة مدح بها الشيخ والملك هذا، فقال مؤرخا المأذنة في آخرها:

واستنار الأفق من مأذنة أذن اللهّ بأن ترقى زحل
لهج الذاكر في تأريخها: (علناً حي على خير العمل)
(١٥١+١٨+١١٠+٨١٠+١٧١ =١٢٦٠هـ)

ومن (آثاره) البناية الملاصقة لمسجد السهلة من حيث الدخول من بابه فإنّه بناها للمحافظة على قدسيّة المسجد لتكون مسكناً لخدّامه وموضعاً لقضاء حاجات المصلين والمتردّدين إليه، وكانت للشيخ عناية خاصة بهذا المسجد، فإنّه هو الذي سن عادة الخروج إليه ليلة الأربعاء للاستجارة وكان يصطحب معه في كل مرّة تلاميذه ويهيئ لهم جميع ما يحتاجون إليه للمبيت هناك من أكل وفرش ومركب ويتأنّق لهم في كل ذلك، وتروى عن اجتماعات تلك الليالي وإحيائها نوادر وطرائف تعطي صورة لذيذة عما كان يجري فيها وتشهد على ما كان يتمتّع به الشيخ من روح عالية ونفس كبيرة موجهة وأبوّة شفيقة على طلاّب العلم.

أخلاقه وسيرته

من الأشياء المعروفة عن شيخنا مغالاته في التأنّق والظهور بمظهر الأبهة في ملبسه

ومنزله وإغداقه على طلاّب العلم والشعراء، ولا شك أنّ عامل الزمن كان له الأثر الكبير في اختيار هذه الطريقة لرفع شأن رجال الدين أمام الحكومة العثمانية التي بدأت في عصره تتدخّل في شؤون الناس وتختلط بالأمّة العراقيّة وتفرض سيطرتها وتستعمل عتوّها وتغرق في استعمارها.

وإلى جنب ذلك كان على جانب عظيم من التواضع وكسر النفس فكان مع تلاميذه كأحدهم ومع الناس كالأب الرؤوف، ومما يصوّر لنا ذلك الخلق الرفيع ما تنقل عنه من كلمات قيّمة تدلّ على إنصافه وما يتحلّى به من تواضع للحق وكسر النفس، مثل:

١. كلمته المتقدّمة في الثناء على الرياض بما يشعر أن كتابه دوّنه في منهج التأليف.

٢. كلمته في كشف اللّثام بما معناها أني لو لم يحضرني كشف اللثام لما استطعت تأليف كتابي[١].

٣. كلمته في القصيدة الأزرية وتمنّيه أن تكتب في صحيفة أعماله بدل الجواهر ليكتب في صحيفة أعمال شاعرها[٢].

أساتذته

تلمذ رحمه اللهّ في أول نشأته – شأن كل طالب مبتدئ – على جماعة من الأساتذة، وليس من العادة أن يذكر مثلهم في ترجمة أحد الأعلام، ولكن الشيخ ذكر مترجموه واحداً من أساتذته في السطوح هو الشيخ قاسم محيي الدين المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ فإنّه أحد العلماء الأعلام المدرسين في النجف تلمذ عليه أقطاب العلم في عصره.

---

(١) الكنى والألقاب للشيخ عباس القمي ٣: ٨.

(٢) أورد الشيخ القمي أن (الشيخ – قدس سره – كان يتمنى على ما يروى عنه أن تكتب له القصيدة في ديوان أعماله ويسجّل كتاب الجواهر في ديوان أعمال الأزري)، أنظر مفاتيح الجنان:٣٢٨، والكنى والألقاب في ترجمة الأزري.

وتلمذ في دروسه العالية على الشيخ الكبير كاشف الغطاء، وعلى ولده الشيخ موسى، وقيل تلمذ على ولده الآخر الشيخ محمد كما تلمذ أيضاً على السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة، وقيل على السيد محمد المجاهد صاحب المفاتيح المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ وربما قيل بتتلمذه على السيد بحر العلوم بل قيل بتتلمذه – كما في الفوائد الرضوية وروضات الجنات – على الوحيد البهبهاني وإدراكه لصحبته وهو بعيد.

أما روايته فقد روى عن جملة من هؤلاء الأعلام، وعن الشيخ أحمد الاحسائي المتوفى ١٢٤٣هـ.

أولاده

أنجب رحمه الله ثمانية أولاد ذكور أعقب كلهم إلاّ الشيخ حسين الذي توفّي في شبابه قبل أن يتزوّج ذكرهم بأسمائهم مجرّدة وهم أكبرهم محمد (المعروف بالشيخ حميّد بالتصغير) توفّي في حياة والده وكان مبرزاً ويقيم الجماعة في مسجدهم ووالده في مسجد الشيخ الطوسي، والباقون: عبد علي وعبد الحسين وباقر وموسى وحسين وحسن وإبراهيم وهم ليسوا لأم واحدة، فإن الشيخ تزوج أربع نساء كلهنّ أعقبن، وأخيرتهن العلويّة كريمة السيد رضا بحر العلوم التي توفّيت بعده وكان أوصى أن تدفن معه.

وقد توارث أولاده وأولادهم كابراً عن كابر العلم والفضيلة وزعامة النجف فأصبحت بعده أسرته من أشهر الأسر العلمية التي لها مكانها المرموق وزعامتها المعترف بها.

أقوال العلماء فيه

ترجم لشيخنا من قبل جماعة من العلماء في عدّة كتب – على ما يأتي في الفصل الآتي – ونذكر هنا كلمة لبعضهم لأجل أن نعطي صورة من ثنائهم عليه وعلى كتابه لتكون

شهادة على ما سقناه من ترجمة له، فنقول:

قال الشيخ المحدّث النوري الثقة الثبت المتوفى سنة ١٣٢٠ هجرية[١]: «مربيّ العلماء وشيخ الفقهاء المنتهى إليه رئاسة الإمامية في عصره الشيخ محمّد حسن بن الشيخ باقر النجفي صاحب كتاب جواهر الكلام الذي لم يصنف في الإسلام مثله في الحلال والحرام».

وقال أيضاً: «حدّثني الشيخ المتقدم – يعني أستاذه الشيخ عبد الحسين الطهراني – عن بعض العلماء أنه قال: لو أراد مؤرخ زمانه أن يثبت الحوادث العجيبة في أيامه ما يجد حادثة بأعجب من تصنيف هذا الكتاب في عصره، وهذا من الظهور بمكان لا يحتاج إلى الشرح والبيان» وقد تقدمت الإشارة إلى هذه الكلمة الأخيرة.

المترجمون له

١. السيد محمّد الهندي في (نظم اللآلي).

٢. السيد حسن الصدر في (تكملة أمل الآمل).

٣. السيد حسين البروجردي في (نخبة المقال).

٤. السيد محمّد باقر الخونساري في (روضات الجنات):١٨١.

٥. الشيخ علي كاشف الغطاء في (الحصون المنيعة).

٦. الشيخ عباس كاشف الغطاء في (نبذة الغري).

٧. الميرزا حسين النوري في (مستدرك الوسائل) ٣ :٣٩٧.

٨. الميرزا محمّد التنكابني (قصص العلماء):٨٢.

٩. المولى محمّد علي في (نجوم السماء): ٤٠٩ – استطراداً.

(١) في مستدرك الوسائل ٣: ٣٩٧.

١٠. الفاضل المراغي في (المآثر والآثار): ١٣٥.

١١. المولى محمّد علي المدرس في (ريحانة الأدب) ٢: ٤١٩.

١٢. الشيخ عباس القمي في (الفوائد الرضوية) ٢: ٤٥٢ و (الكنى والألقاب) ٢: ١٥٦ – استطراداً، و (هدية الاحباب):١٧١.

١٣. الشيخ أغا بزرك الطهراني في (أعلام الشيعة) الجزء الثاني –الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة:٣١٠ و (الذريعة) ٥: ٢٧٥.

١٤. الشيخ جعفر محبوبة في (ماضي النجف وحاضرها) ٢: ١٣٨.

١٥. والأخير – وليس آخراً إن شاء اللهّ تعالى –

هو المخلص الراجي رحمة ربه

محمّد رضا المظفر

عقوق النجف للشيخ البلاغي

الشيخ محمد جواد البلاغي

(١٢٨٠ ـ ١٣٥٢هـ)

نشرت في مجلة الغري، السنة ١٧، العدد ٢، ٤ نيسان ١٩٥٥م.

الشيخ محمد جواد البلاغي

لم يُظلم رجل في جهاده العلمي كظلامة المرحوم الحجّة المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي حياً وميتاً. أمضى حياته المنغّصة في جهاد دائب لم يعرف الكلل والملل. فكان شعلة من إيمان وحماس، وبركاناً من غيرة على الدين والحق، ونوراً من المعرفة واليقين، وملاكاً من التقوى والصلاح. بحث... وحقّق... وكتب... وألّف... وطبع... ونشر، ووقف طوداً شامخاً أمام المبشّرين والمادّيين المتحذلقين ودعاة الفساد المسخّرين. وهو في كل ذلك أعزل من المال... والصحة... والأنصار والأعوان. لولا أنّه كان مسلّحاً بمضاء العزيمة وبقوة الشخصيّة في الثبات على الجهاد والكفاح.

جمع بين المعرفة والذكاء ونكران الذات والغيرة على الدين والصبر على العمل، وكان في ذلك مضرب المثل بين الناس، ومع ذلك عاش بينهم كأفقرهم مالاً... وأدناهم جاهاً... وأخملهم ذكراً. مغموراً في بلد كان يعجُّ بمئات من نظرائه وهو نسيج وحده. فكان من تقدير جهاده مثلاً أنّه يعاني في سبيل طبع كتبه المنافحة عن الإسلام، آلام الحاجة الخانقة التي قد تتطاول فيمدّ يده على أثاث بيته بل مكتبته ليبيعها في سبيل نشر كتاب أو رسالة يوزّعها مجّاناً. أما تقدير المخلصين له في ذلك فكان في تقبّل الهدية من آثاره لمكتباتهم، أو في الحب المجرد الخالص لله في الله ثمناً لخسائره.

هكذا مضى... وكان حتى أخريات شيخوخته يحمل بُلغَةُ العيش لعائلته بيده الكريمة المخلوقة للقلم والقرطاس، فلم يجد حتى لمثل هذا العمل البسيط معاوناً، وأقل تقدير لمثله أن يحمل على الرؤوس احتراماً.

وهل كان ينتظر من الناس يوم ألاّ يذرفوا الدموع عليه مدراراً حينما شعروا بالفراغ الذي أحدثه فقده. ثم رقأت الدمعة فأصبحنا وأصبح هذا المجاهد نسياً منسيّاً وعاد ذكره كما كان في حياته مغموراً.

في يوم ٢٢ من هذا الشهر (شهر شعبان) يمر ٢٢ عاماً على وفاته ولم تُجد ذكراه حتى مرّة واحدة وهو أحقّ عالم في تجديد الذكرى في كل عام تقديراً للعلم ولوجه الفضيلة والخلق الرفيع والجهاد الديني. وإذا كان هناك تقصير فأنا أتحمّل منه قسطاً كبيراً بطيب خاطر، اعترافاً بالذنب، وعسى أن أكفّر عن بعضه بهذه الكلمة العابرة وقد حداني إليها مرور ذكرى وفاته في هذا الشهر، فشعرت بعقوقنا له وهو الذي كان لنا كالأب الرؤوف بأبنائه.

وأني لأدعو أبناء النجف البررة من أهل الأدب والمعرفة ورجال العلم والدين وذوي الثروة والجاه إلى التكفير عن سيّئاتنا في حق هذا الرجل بإحياء ذكراه وذلك بشيئين:

أولاً: بإحياء مؤلّفاته ونشرها من جديد نشراً يليق بشأنها.

وثانياً: بأن تعد أنفسنا من الآن لإقامة حفلة كبرى بمناسبة مرور ربع قرن على وفاته بعد أن نكون قد جدّدنا طبع مؤلّفاته.

ومن يلبّي الدعوة فأني أصافحه على البيعة وأعاهده العمل فعسى أن نعوّض بعض ما يجب أن نعمله من التقدير لهذا المسلم المجاهد والمجتهد المنافح.

والله ولي التوفيق

محمد رضا المظفر

النجف

ميزان الرجال

الشيخ جواد الشيخ علي آل صاحب الجواهر

(توفي ٢٥ شهر صفر سنة ١٣٥٥)

الكلمة التي ألقيت في تأبينية الشيخ آل صاحب الجواهر، ثم نشرت في مجلة المصباح السنة الأولى المجلد الثاني الجزء الخامس (رمضان ١٣٥٥/ كانون الأول ١٩٣٦).

الشيخ جواد الشيخ علي آل صاحب الجواهر[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

حاول أن تستعرض ذكريات النجف الأشرف قبل نصف قرن تقريباً فستشاهد انقلابات العالم الإسلامي المدهشة وتطورات الحركات الدينية الجذّابة وصرخات الحوادث السياسية المزعجة ستشاهد كل هذا يتمثّل في نوادي النجف وبالأحرى في زواياها كأن العالم الإسلامي كلّه هذه البقعة المقدّسة أو هذه البقعة الصغيرة هي كل ما في البلاد الإسلامية من شعور وعاطفة وقوّة وإيمان. هكذا كانت النجف في مركزها الديني ملتقى لخطوط البلاد الإسلامية تنظر إليها الأمم نظرة المتطلّع لإشاراتها المتّبع لإرشاداتها.

أولاً وأخيراً هي النجف تربض ربضة الأسد الحادر يحيطها سياج منيع من الأبهة الدينية والزعامة الإسلامية وفي قلبها نوابغ العلم لهم دستهم الأعلى تجري بهم الدورة الدموية في جسمها الحي وعرقها النابض وإلى جنبهم عقول ناضجة قد عركوا الدهر وقتلوا الليالي تجارباً وبهم تمحّص الحقائق عن شوائب النزغات، بأولئك وهؤلاء تقف النجف مواقفها المشهودة وتطلع على العالم الإسلامي بقيادتها في ساعات الشدّة

---

(١) الشيخ جواد (محمّد جواد) بن الشيخ علي بن الشيخ محمّد (حميّد) بن الشيخ محمد حسن النجفي الكبير صاحب كتاب جواهر الكلام.

عالم فاضل زعيم أسرته في عصره بل زعيم النجف الرائد في المواقف الوطنية والثورة العراقية حيث كان السفير والواسطة وحديث الرأي العام في الأمور المعضلة له آثار جليلة ومواقف مشهودة.

أنظر الشيخ محبوبة في ماضي النجف وحاضرها ٢: ١٠١.

والرخاء.

إذا استعرضنا كل هذا فتذكّرنا الانقلابات والتطوّرات والصرخات وعرفنا للنجف مركزها الثابت وموقفها الحاسم ثم فتّشنا عن ذلك العقل الناضج واليد العاملة في هذه الأدوار الخطيرة لوجدنا أعظم عبقريّة نادرة ونفسية جبّارة وفصاحة ساحرة ولباقة مؤثّرة تتجلّى في نابغة النجف وفلذة كبدها وكبير شيوخها ودليل مسترشديها أعني فقيدنا العظيم الراحل أبا الحسن الجواد تغمده الله برضوانه.

فتاريخ حياته تاريخ النجف في نصف قرن وتاريخ النجف تاريخ العالم الإسلامي في هذا الأمد الطويل فمن للكاتب أن يقتحم درس حياة أمّة مرت عليها أهم الأدوار العالمية وأعظم الانقلابات الكونية فيقف هذه الوقفة القصيرة ويؤدّي بعض الواجب. هيهات! وكتاب ضخم لا يقوم بشيء من ذلك فللقلم الواسع أن يتلجلج فيكبو ويتلعثم فيهفو.

وإذا كان الكاتب يريد في هذا الموقف أن يستطرد حياة الفقيد العامة فيحمل للسادة الحضور إضمامة مجمّلة من أعماله الخالدة فما أغنى الكثير عنها وهم يعرفون الشيء الكثير عن تفصيلها المسهب ولكن له العذر أن يخلّد شيئاً لا يعرفه أبناء المستقبل وسوف ينساه رجال الماضي وفي تسجيل حياة العظماء تذكرة وعبرة لا يستغني عنها الناس في كل يوم.

نعم كان فقيدنا رحمه الله في رجوليته الصادقة وعبقريّته الممتازة وعقيدته النافذة مقداماً لا يتأخّر ومجداً لا يهن وسيفاً لا يفل وجواداً لا يكبو، ما عرف الوهن موضعاً من قلبه فيختلسه ولا وجد التقهقر عنده رجلاً للتأخّر فمضى في كل ميدان جواده المجلي وراح في كل ملحمة سيفها القاطع وكان في كل خميس رعيله المقدّم وما فتئ دائباً على عادته وسيرته حتى لفظ النفس الأخير وا أسفاه.

كان رحمه الله كالشمس إن تطلعت إليها بهرت العين بوهج نورها وشغلت القلب

بجلال روعتها وبعد ذلك تفسد عليك مناظر الجمال في الآفاق وتحجبه عنك محاسن غيرها. وما كان كسائر العباقرة عظمته في بعض حدوده ونبوغه في جانب من حياته ولكنّه عظيم في كل ناحية ارتادها ونابغة في كل باب ولجته عبقريته.

عرفناه عالماً درس كما يدرس الناس منذ نشأته فأخذ علمه عن عظماء العلم في يومه ولكن مرونته لم تشأ له أن يتكلّف الظهور بلباس المعتز بنفسه المغتر بما عنده فكان عالماً من غير مظهر ومثقفاً من غير تدليل وهذا أحد أسرار عظمته وأحد اتجاهات نبوغه الفطري ومع ذلك فنبوغه في عبقريته السياسية ومطلعه لخدمة الصالح العام دفعاه إلى الخروج على شخصيته العلميّة والتمرّد على مركزه الثقافي. ولوشاء أن يضع نفسه الموضع اللائق بكرامته لكان من بيته الرفيع ما يؤهله لدست في العلم عال ومن نفسه ما يجعله في مقام أعلى.

عرفناه عالماً كما عرفناه خطيباً مصقعاً إذا جدّ الجد وحمي الوطيس وقصر البيان فكان في فصاحة المنطق الساحر وفي صرامة العقيدة فحلاً هدّاراً.

تهزّ العواصف الكونية البلاد فتنتظر الأمة من النجف قيادتها ومن رجالها زعامتها وقد تكون النجف يومئذ في مكمنها لا تلمس خطر الموقف ولا تحس بهاجس الألم فيلاذ بظل هذه الشخصية الفذّة لثورة الحميّة في الرؤوس وتجهيز الرأي العام للوثوب حتى يقف الفقيد ساعة على يابس الأعواد فتورق بالجني من لسانه العذب ما يثير من القرائح جوامدها ومن النفوس الشاعرة غرائزها وقد شاهدناه في جهاد المستعمرين خطيب المسلمين وفي الدفاع عن حقوق البلاد خطيب الوطن حتى كان على يديه إعلان جهاد الإسلام للصليب وبقيادته الوطنية ثورة الوطنية على الاستعمار المريب.

وعرفناه بعد هذا وقبله إماما في السياسة تؤمّه زعماؤها وداعياً للإصلاح تقصده رواده لا تعرف عبقريّته النادرة لآماله الإصلاحيّة الحدود والقيود ولا تسمح عزماته

الصارمة للسبل والخطط أن تضيق في وجه إصلاحه.

فكان يحسب لكل نقص حسابه ليضع له نهج الإصلاح الكافل لولا أن الظروف القاسية أو نشأته الخاصة كانت تحول دون تلك الأماني الجسام التي كانت تظهر على أحاديثه بين يوم وآخر وإحدى آماله الإصلاحية التي كانت تساوره ووقف لفرصتها السانحة بالمرصاد هي إصلاح الحالة العلمية في جامعات النجف ومدارسها والنجف في نظره ونظر كل شاعر مصدر الثقافة الإسلامية وعاصمة العلوم الدينية ورأس لجسم العالم الإسلامي وقد أخذت طلائع الانهيار تبدو يوم ثارت هوجاء الغرب بجبال الإسلام الراسي فأهالتها هباء في الرياح فكان رحمه الله في يوم يجد هاجس الخوف يخز في ضميره الحيّ فيهمس به لأصحابه تارة ويهيب بقومه إلى النهضة الكبرى تارة أخرى- ويالللأسف تستمر الحال ويتحقق المنتظر ويتضخم الخطر والناس لا يحتفون بهذه الظواهر ولا يجدون للأمر بأسه المحدق بهم - فينقلب يائساً آسفا وتذهب تلك الأماني أدراج الرياح.

على رسلك أيها الراحل العظيم لا يهوّلنّك ما لقيت فللحق أنصاره ونم قرير العين فقد لقيت صالح ما عملت، وإنّما المرء أن يسعى وله ما سعى.

نعم لقد عرفناه عالماً وخطيباً سياسياً ومصلحاً وبعد هذا فهل ننساه مأوى اللاجئ وسند المستجير فكان للضعيف يداً وللمظلوم لساناً وللحق حساماً صارماً فما أعلى تلك النفس الطاهرة وما أعظم تلك العبقرية النادرة وما أرقّ ذلك الحنو والعطف وما أجمل ذلك الشعور اللطيف وبعد هذا تخسره الأمة وا أسفاه ..

ومن أين للنجف أن ترفع صوتها عالياً ولسانها الذرب أسكته الدهر وصمت ذلك القلب الذي نبض ثمانين عاماً في سعادة الأمة وفي سبيل استقلال البلاد وصالح المسلمين؟؟

وا أسفاه! من أين للعراق ذلك العقل المدبّر والنفس الجبّارة والشعور الفيّاض في مآزق تضيق فيها سبل النجاة يوم رفرفت أعلام الاستعمار على رقاب خضعت لنيرها واستعبدتها الرقاق الخضر لخنق حريتها وقتل استقلالها وأبو الحسن قائدها يقتحم بها اللهوات لعزّها الخالد وفخرها الأبدي فسلام عليك أيّها الراحل العظيم.

فقيدنا الراحل وفكرة الإصلاح

السيد موسى السيد علي الحسيني

النجفي الجصاني

(١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م)

استفدت هذه الكلمة التأبينية من أخي الكريم الأستاذ

محمد رضا القاموسي

السيد موسى السيد علي الحسيني النجفي الجصاني[1]

ليست هذه هي المرة الأولى التي تخسر فيها النجف الأشرف علماً من أعلامها وسيداً من سادات أفاضلها ورجلاً من خيرة أبنائها تغذى في لبان العلم وارتضع من ثدي الإيمان وتربى في حجر الإخلاص في الطلب ونشأ على الجد والتضحية وترعرع في جهاد العلماء الميامين في سبيل الحصول على الدرجة العالية من الاجتهاد التي يتنافس عليها المتنافسون ولا ينالها إلاّ ذو حظ عظيم.

أقول ليست هذه الخسارة الأولى من نوعها للنجف الأشرف وهي لما تزل تشاهد في كل عام رجالاً أفذاذاً وعلماء عظاماً هم قادة الفكر ودعامة العلم في هذا البلد يذهبون إلى روح الله تعالى وريحانه ويعافون هذه الدنيا الدنية وما فيها من مكاره وغصص لأهليها كهذه الغصّة التي تجتازها اليوم بمضض ومرارة ولكنها فيما أعتقد هي المرة الأولى التي تشعر فيها النجف شعوراً عميقاً بوقع هذه الخسارة الفادحة ويلتهب شعورها حماسة وشجنا بتقدير تأثيرها حق التقدير.

نعم، لقد خسرت رجلاً لامعاً من بين رجالها القلائل الذين تنتظر لهم مستقبلاً حافلاً بجلائل الأعمال، وتستشرف منهم على مجتهد تنتهي إليه الرئاسة الدينية في أشد ظروف الحاجة إلى مثله وهي تعلم اليوم حق العلم أن المستقبل الذي ينتظرها يبعث على التشاؤم وقد تمسي هذه الأرض المزدانة بنور رجال العلم ونورهم جرداء قاحلة، وسوداء مظلمة والمجتهدون يومئذ كالكبريت الأحمر يستنجدون بهم ولا ينجدون

(١) السيد موسى السيد علي الحسيني النجفي الجصاني عالم مجتهد جليل أنظر الشيخ الطهراني، نقباء البشر ٤: ١٤٠٤. الأميني، معجم رجال الفكر والأدب ١: ٣٥٤.

ويبحث عنهم في الزوايا وهم خبايا.

يموت الميت من أهل العلم بالأمس فيقول المستشهد (إذا غاب منهم سيد قام سيد)، أما اليوم إذا مات واحد منهم فماذا ترى أن يقول القائل؟ لا أحب أن أستشهد بما يخدش عواطفكم – ويكفي هذا الوجوم الساخط في محافل النجف أن ينطق عني بلسانه الفصيح اللاذع وما أشد ألمنا بشعورنا بالخسارة العظمى التي لا تتدارك وبالفراغ الذي أحدثه هذا الراحل الكريم وقد لا يسد.

أسيادي: اسمحوا لي هنا بكلمة (قد) التي جئت بها وهي تشعر بالاحتمال والشك فتبدو معجمة، ومجرى الحوادث يعطينا فكرة اليأس من أن تمخض النجف بعد اليوم عن مثل فقيدنا الذي نحتفل الآن بأربعينه مع كل أسف، ونحن شاهدنا بأم رؤوسنا جامعات النجف وجوامعها ومعاهدها ومدارسها كيف كانت تغصّ بآلاف الطلاّب والمشتغلين وتعجّ بأصوات البحث والتدريس ومع ذلك نتائجها هم هؤلاء الصفوة المعدودة بالأنامل من علمائنا وأفاضلنا، ونشاهد اليوم – واضيعتاه – ما نشاهد من سوق للعلم كاسدة وناشئة من أبنائها تذهب في تيار هذا العصر الجارف إلى ما تعلمون، فماذا ستكون النتائج في غد؟! وأقول فكرة اليأس حق أن تأخذ بخناقنا فتحطم من عزائمنا لولا بارقة من الأمل تنبعث من تحسس بعض رجالنا المخلصين أمثال فقيدنا الراحل نبني عليها العلالي والقصور وننتظر أن يقوموا بقوتهم الجبارة.

رحمك الله – يا سيد موسى – لقد كنت من أشد الناس شعوراً وتحسساً بهذا الخطر الذي يستقبل الجامعة النجفيّة وتستقبله فكنت تود أن تعمل لدرأه بتربية الناشئة الدينية تربية تكفل البقاء للنجف العلميّة وسمعتها العالية ليكون منهم الخلف لسلفهم والوارث لآبائهم والسدنة للدين الإسلامي والخدّام لشريعة جدّك المصطفى – صلى الله عليه وآله – والمرشدون للأخلاق الفاضلة والناشرون لتعاليم آل البيت المطهّر من

الرجس عليهم السلام.

لقد كنت تودّ أن تعمل فتعمل وتبرهن على صدق عملك وكفاك برهانا على عقيدتك الراسخة وإيمانك الثابت قيامك بقسطك من العمل كرجل ديني مسؤول عن الحوزة العلمية المتداعية إلاّ وهو توجيهك التوجيه الصحيح لشبلك (محمّد) نحو ما تدعو إليه من التربية الدينية فصدق قولك فعلك وليس هذا بقليل في هذا العصر ونرجو من الله أن يصدق ظنّك وظنوننا به ليكون لك ذكراً باقياً وحياة ثانية وسلفاً صالحاً لخير خلف بارك الله فيه وجعله من العلماء العاملين وقرّة عين لأهل العلم ممن يسعى لتكثير هذه الصفوة المختارة أمثالك.

عفواً أبا محمد: لا تؤاخذني إذا لم أقف اليوم موقف المؤبّن لك والمترجم لحياتك التي تصرّمت كحلم لذيذ أعقب لنا حسرة وألماً فإنّك في غنىً عن كل قول وقيل وقد صرت إلى النعيم الدائم وعسى أن أجلب لك السرور بكلمتي هذه التي لا تتعدى تحليل خواطرك وأفكارك في سبيل النهضة العلمية التي كانت تقض عليك مضجعك وتملك عليك تفكيرك وتذهب فيك كل مذهب لعلاج الموقف المعقّد فتجد الأبواب أمامك موصدة والأفكار معطّلة والآمال ضعيفة واليأس مخيماً على النفوس.

سادتي: لا أحب أن أكون من ناقلي التمر إلى هجر فأشرح لكم مكانة النجف العلميّة وسرّ عظمتها وقد قيل عنها: دماغ العراق المفكّر والعاصمة الدينية للعالم الإسلامي وهي بحق كما قيل عنها أو أكثر ولكن أناشدكم الله يا قوم أيصحّ منّا أن نبقى نتغنّى بهذه الكلمات الخلاّبة ونغتبط بالثناء وحده ووراء الأكمّة ما وراءها! فنغفل عما يرادبنا وما أعدّ الزمن لنا من معاول لتهديم هذا الصرح السامي! ونقض هذا الحصن الحصين ثم لا نموت أسفاً ولا ندافع ولا بحركة محلّية لتوجيه شبابنا الديني! بل ولا ننبس بكلمة نافعة.

لقد مضت تلك السنون التي كان يتنبأ فيها المفكّرون بمصير الجامعة الدينيّة من طلائع المدنية الحديثة الهاجمة علينا من الغرب، وجاء اليوم الموعود وهاتيك مدارسنا ومعاهدنا لم يبق فيها من الشباب الديني إلاّ عصابة محدودة متشاغلة بالعلم! وصبابة كصبابة الإناء لا أظنها تثبت أمام أقل عاصفة تبخر ما فيها من ماء بأقل من لمح البصر! فماذا عملنا من عمل يستحق أن يذكر في مجابهة الخطر الداهم وقد مرّت علينا الفرص كمر السحاب وشيوخ اليوم الذين هم كانوا شباب الأمس الغابر وإن كانوا الآن كيان هذه الأمة وسور العلم المنيع مدّ الله تعالى في أعمارهم الغالية وكثر من أمثالهم، أتراهم يعمّرون إلى آخر الدهر فيحفظون للأمة كيانها أم أن السلسلة ستنتهي بهم وهي أمانة في أيديهم وقد جاءتهم من القرون الماضية التي تتّصل بالأئمة عليهم السلام.

وماذا يصار بنا إذا يوم يأتي الدور لشباب اليوم وشيوخ الغد؟؟

وماذا سيحل بالجامعة الدينية وكل نهر ينضب ويأسن بالأخير إذا انقطع منبعه؟؟ والشباب ينبوع حياة الأمة ومصدر قوتها وعلى تربيتهم يتوقف مصيرها فإذا مات الشباب فقل هلكت الأمة! وإذا فسد الشباب فأقرأ على الأمة السلام!.

أتحسون أيها الإخوان بهذه النتيجة التي تنتظرنا!؟ أم أني أضرب في حديد بارد؟!

إن النجف اليوم وبعد اليوم هي مطمح أنظار العالم الشيعي في أقصى الأرض وأدناها وبيدها قيادته ومن معاني زعامتها قوته، تصوّروا هذه العظمة التي هي فوق حدود العظمة وقد أدركها من أدركها فعزّ عليه بقاؤها وما زال يعمل لتقويضها وتصوّروا جيداً هذا الشباب الديني الموجود الآن عندنا المتذمّر الذي لا يعرف له مستقبلاً وهو معدود بالأصابع والأمواج تتقاذفه من كل حدب وصوب والقوى تكتنفه من كل جانب وهو ضعيف في أقصى حدود الضعف مالاً وجاها وإيماناً فهل تتصورون باستطاعته أن يحتفظ بهذه العظمة المتوارثة في غده إذا نحن لم نحافظ عليه

وعليها ولم ننفخ فيه من روح الإيمان ما يثبّت به أقدامه ويسلك به سبيل النجاة ويزيل عنه المعاثير.

الله معكم يا شباب اليوم فإنّا نحن المسؤولون عن تربيتكم وتوجيهكم وتكوينكم من جديد، فهل نحن فاعلون كما تصنع الأمم لتربية شبابها؟؟

رحم الله السيد موسى أعود إليه من جديد فإنّه من أولئك الذين يتحسّسون بكل ذلك فكان يتوجّه بنفسه وروحه إلى كل حركة يتوقع فيها الخير لجامعة النجف فقد انضم إلى هيأة مدرسة كاشف الغطاء العامرة، وكان عضواً في منتدى النشر وكان أوّل المشجعين لمدرسته وكنت أراقب منه سهراً على حركته وتشجيعاً لعمله وحرصاً على تقدّمه وتفكيراً في مستقبله وتوجيهاً لتربيته فيتجلّى لي الإخلاص في التفكير والجدّ في الأقوال والصدق في الأعمال (تغمّده الله برحمته واسكنه فسيح جنّته) وعوضنا عن هذه الخسارة الجسيمة بنجله، ولئن أوجه بالتعازي إلى عامة رجال العلم والدين فأكثر ما نخص عميد آل كاشف الغطاء وشيخ الطائفة حجة الإسلام الشيخ محمّد الحسين – مدّ الله في عمره – فله أحرّ تعازينا وبه السلوة عن كل حادث جلل وخطب فادح ونهيب به إلى المضي في مؤسسته العلمية غير هياب ولا وجل متوكلاً على الله تعالى لإعادة الأمور إلى مجاريها بتربية الناشئة الدينية تربية صالحة تستطيع به أن تكافح الزمن وتنافحه وتحتفظ بمجد النجف وجامعتها.

وأهيب بالشباب الديني المتحمّس أن يترك زخارف الدنيا وبهرجتها وينصرف إلى طاعة الله الرحمن ليحتفظ بكرامته وعزّه وليعد نفسه للمستقبل والمستقبل وحده وعلى مقدار يقظته يؤسّس كيانه وليعتبر بالماضي من آبائنا الذين لاقوا الشدائد وضحّوا بكل غال ورخيص في سبيل تدعيم الأمة وتسديدها من الطوارئ المفاجئة، ومن الخطل أن نتصور أنّهم كانوا يتمتّعون بالنعيم وبلغوا العلم من طريق السعادة ووفور الراحة بل

بالعكس من كل ذلك فإنّهم لم يبلغوا الدرجات العالية إلاّ بالفقر والحاجة ولم يسلكوا إلى النجاح إلاّ من طرق ملتوية يكتنفها الضغط والظلم والعدوان من كل جانب حتى سلُوا إلينا من بين منعرجات تلك القرون الخالية هذا الكيان المتين وهذا الصرح الممرّد ومهّدوا لنا بجدهم واجتهادهم هذه الصولة التي بلغت أقصى الأرض وهذه الأمانة وضعوها بين أحضانكم.

أيها الشباب فهل أنتم تؤدّوها بإخلاص إلى من بعدكم من الجيل الآتي؟

حقّق الله الآمال بكم، وبالختام أدعو الله تعالى أن يجعل لنا في الماضين عبرة وفي الموجودين قدوة وأسوة، وأن يحفظ لديننا المقدّس صولته وعزّه وللعلماء ودورهم والسلام عليكم.

الأستاذ العظيم المتألّه العارف

الشيخ محمد حسين الأصفهاني الكمباني

(١٢٩٦ ـ ١٣٦١هـ)

نشرت هذه الدراسة مقدمة لكتاب حاشية المكاسب
للشيخ الكمباني (قدس سره) – الطبعة الأولى.

الشيخ محمد حسين الأصفهاني الكمباني

نسبه

هو الشيخ محمد حسين الأصفهاني ابن الحاج محمد حسن بن علي أكبر بن أقا بابا بن أقا كوچك بن الحاج محمد إسماعيل[1] بن الحاج محمد حاتم.

ولادته ونشأته ووفاته

ولد أستاذنا الشيخ (قدس سره) في ثاني محرم الحرام من سنة ١٢٩٦هـ في النجف الأشرف من أبوين كريمين وكان أبوه – رحمهالله – الحاج محمّد حسن من مشاهير تجار الكاظمية الأتقياء الذين يشار إليهم بالأنامل المحبين للعلم والعلماء فعاش في كنفه عيشة ترف ونعمة وخلّف له من التراث الكثير الذي انفقه كلّه في سبيل طلب العلم فنشأ نشأة المعتز بنفسه المترفع عما في أيدي الناس وهذا ما زاده عزّاً وإباءً وقد حدب والده على تربيته تربية علمية صالحة ومهّد له السبيل إلى تحصيل العلم فظهرت معالم النبوغ الفطري على هذا الطفل الوادع حين تعلم الخط فاظهر في جميع أنواعه براعة فائقة حتى أصبح من مشاهير ذوي الخط البارعين وللخط قيمته الفنية يومئذ ولكل فنّ موهبة يمنحها الله لمن يشاء من عباده.

وطلب العلم مترجمنا في سن مبكرة وانتقل إلى النجف الأشرف في أخريات العقد الثاني من عمره بعد أن قضى حداثته وشطراً من شبابه في الكاظمية فحضر عند رجوعه إلى النجف الأشرف في الأصول والفقه على علاّمة عصره المحقق الآخوند الشيخ محمد

(١) وهو الذي هاجر من نخجوان إلى أصبهان وسكن بها.

كاظم الخراساني – قدس سره – واختص به إلى أن توفي فكان من مشاهير تلامذته وكان مدّة حضوره عليه ثلاثة عشر عاماً كتب في خلالها أكثر حاشيته على (كفاية الاصول)[١] وبهذه المناسبة نسجل أسفنا على ما فات الطابعين للجزء الأول من هذه الحاشية الشريفة تلك الناحية التاريخية إذ حذفوها حباً بالاقتصاد في الورق والطبع كل كلمة (مد ظله) وكلمة (قده) اللتين يميزان بين ما كتب في عهد صاحب الكفاية – قدس سره – وما كتب بعده وإن كانت النسخة المخطوطة بخطه الشريف لا تزال محتفظة بهذه المزية وكذلك نسختي التي كتبتها لنفسي وطبع عليها الجزء الأول وحضر أستاذنا أيضاً في الفقه وأصوله قليلاً على العلاّمة المحقّق الشهير السيد محمد الأصفهاني وبعد وفاة أستاذه المحقّق الآخوند استقلّ بالبحث والتدريس وحضر عليه كثير من مشاهير علماء العصر الذين استقلّوا بعده بالتدريس وأنهى عدة دورات في الأصول والفقه وآخر دورة كاملة له في الأصول شرع بها في شوال سنة ١٣٤٤هـ وأنهاها سنة ١٣٥٩هـ وهي أطول دورة له حقق فيها كثيراً من المباحث الغامضة وكتب فيها جملة من التعليقات النافعة على حاشيته لاسيما الجزء الأول المطبوع ولا يستغنى بهذا المطبوع عن التعليقات، كما كتب خلالها جملة من الرسائل الصغيرة في عدة مسائل منها رسالة أخذ الأجرة على الواجبات التي لم يكتب مثلها في هذا الموضوع، وشرع في دورة جديدة في أسلوبها اعتزم فيها تهذيب الأصول واختصاره وترتيب أبوابه ترتيباً فنياً فوضع في المبادئ ما كان يظن ويحرر من المسائل، وفي المسائل ما كان يحرّر في المبادئ وقسم الأصول إلى أبواب جديدة غير معهودة عند المؤلفين وأماط اللثام عما كان يقع من الخلط بين المباحث ووضع في كل باب ما يناسبه من المباحث وكان يكتب درسه هذا الذي كان أمنية أهل العلم ولكن المرض الذي دام معه سنة واحدة ثم المنية المفاجئة هما اللذان أحبطا هذا المشروع الخطير

(١) وعنوانه (نهاية الدراية في شرح الكفاية) طبع عدة طبعات منها الطبعة المحققة لمؤسسة آل البيت عليهم السلام حيث صدر بستة أجزاء.

الذي كان ينويه في تأليفه الجديد الذي لو قدر له أن يتم لوفّر على أهل العلم كثيراً من وقتهم الذي يذهب سدىً ولفتح عليهم أبواباً ملذّة جديدة من البحث العالي والتفكير المستقيم وهذه واحدة من تفكيراته الإصلاحية الكثيرة التي كانت تجول في خاطره. ويُحَرّق الأرَم[1] أنّ الوقت لم يحن لتنفيذها أو لإبرازها على الأقل، وكثيراً ما كان يوحي إلينا في الخلوة به من خواطره في سبيل إصلاح الحركة العلمية والمجتمع الروحي ولم يكن يواتيه يومئذ أن ينهض بواحد منها حتى خسره العلم والدين عماداً لقبّة الإسلام، وعميداً لخزّان الشريعة، وخزّانا للفيض القدسي، وترجماناً للكلام النفسي، وإماماً للخلق، وهادياً للحق، ومصباحاً للمهتدين إلى عين اليقين فقد انتقل بالموت الفجأة إلى رحمة الله تعالى فجر الخامس من شهر ذي الحجة عام ١٣٦١ هـ مأسوفاً على تلك الشعلة الإلهية الوهاجة أن تنطفي في وقت الحاجة إليها.

لقد اتجه – قدس سره – في حياته إلى كل مناحي المعارف وكرّس أيامه لنيل كل مكرمة فكان في الأدبين الفارسي والعربي الفنان الماهر، وفي الفلسفة الحكيم العارف، وفي الأخلاق خزانة الأسرار الفائز بأسمى رتب الشهود، وفي الفقه والأصول الإمام الحجة، نسيج وحده وعلاّمة دهره.

منزلته العلميّة

كان (قدس الله نفسه الزكية) من زمرة النوابغ القلائل الذين يضنّ بهم الزمان إلاّ في الفترات المتقطعة، ومن أولئك المجدّدين للمذهب الذين يبتعث الله تعالى واحداً منهم في كل قرن وكان من تلك الشخصيات اللاّمعة في تاريخ قرون علمَي الفقه والأصول، وإذا كان أحد يصح أن يقال فيه أنّه جاء بما لم يجيء به الأوائل فهو هذا العمود لفجر الإسلام الصادق الذي انطفأ قبل شروق شمس نهاره لتراه كل عين ما سلك بحثاً للعلم

(١) يقال: فلان **يُحَرِّقُ** عليك **الأَرَم** إذا تغَيَّظ فَحكَّ أَضرْاسه بعضها ببعض.

إلا وتطاير فضول ما علّق به من الأوهام هباءً وما حبّرت براعته مسألة إلاّ وحيّرت العقول كيف تذهب إزاء الباحثين جفاء، ولو قدّر لهذا النابغة العظيم أن يمدّ في عمره إلى حيث تثنى له الوسادة ويتربّع كرسي الرئاسة العامة لقلب أسلوب البحث في الفقه والأصول رأساً على عقب ولتغيّر مجرى تأريخهما بما يعجز عن تصويره البيان ولعلم الناس أن في الثريا منالاً للنوابغ تقرّبه إلى البشر إلى حيث يحسون ويلمسون، ولكنّ لله في خلقه وتقديره شؤون، فلقد كانت فاجعة العلم بموته فاجعة قطعت على البحث طريقه اللاحب إلى ساحة الحقائق الواسعة وأخّر عليه شوطاً بعيداً قد يتوفّق لبلوغه الجيل الآتي إذا قدّر لكنوز مؤلّفات شيخنا المترجم أن تدرس وتحقّق من جديد ليعلم الناس أن في هذه الكنوز الثمينة من الآراء الناضجة ما يعطي للعلم صبغته الجديدة التي يستحقها ومن التحقيقات ما ينسخ كل ما نسج عليه المتقدّمون فيصبح مهلهلاً.

وعسى أن يخال للقارئ أن كلمتي هذه جرت على عادة الكتّاب في مبالغاتهم عمّن يترجمون ولكن أسجل كلمتي هذه للجيل الآتي ليشهد هو على صدق مقالتي لأنه هو الذي سيفهم ما أقوله وما يدريني لعله سيوجّه إليّ كلمة العتاب القارصة إذ لم أستطع أن أقوم بواجب تحليل شخصية هذا العظيم الذي سيعرفها هو حق عرفانها، ولكن ليذكر هذا الجيل الآتي أني أنا الذي تفاءلت له بعرفان هذه الشخصية العظيمة وبشرّته أنه سيبني كلّ أبحاثه الآتية في الفقه والأصول على أساس نظريات هذا العظيم المحكمة وسيتّخذ طريقته المثلى منهاجاً للبحث فسبقت إلى فضيلة هذا التفاؤل العلمي، وما يضيرني أن يظن بي البعض الظنون فيرميني بالغلو كما ترمى كل تلامذة هذا الأستاذ الذين لهم مثل هذا الاعتقاد طبعاً إلاّ أنّه ليعلم أنّ أوّل فتح لهذا الفأل نشر هذا الكتاب الذي بين أيدينا (حاشية المكاسب) إذ يصبح في متناول كل باحث مفكر، وهل يلذّ لمقتطف هذه الشجرة الطيّبة التي تأتي أكلها كل حين شهيّاً أن يقتطف من غير هذه

النبعة وهل يطيب لمن عبّ من هذا البحر الفرات أن يحتسي من غير ورده أني أباهلك أيّها المطالع إن كنت من ذوي العلم والبصيرة.

فلسفته

تلمذ وتخرّج في الفلسفة على الفيلسوف الشهير الحكيم العارف الرباني الميرزا محمد باقر الأصطهباناتي[1] فاستبطن كل دقائقها، ودقّق كل مستبطناتها له من كل مسألة رأي محكم، وفي كل بحث تنقيح نادر، وتظهر آراؤه وتحقيقاته الفلسفيّة واصطلاحات الفلسفة على جميع آثاره وأبحاثه حتى في أرجوزته في مدح النبي المختار وآله الأطهار عليهم جميعاً الصلاة والسلام بل **أرجوزته هذه قطعة فلسفيّة رائعة أفرغها في** ثوب من الأدب العالي قد أوضحت رأي الفلاسفة المؤمنين في محمد وآل بيته نور الأنوار وعلل الكائنات على ما أشارت إليه الآيات القرآنية وصرّحت به الأحاديث الصحيحة فقال في النبي المختار (صلى اللهّ عليه واله):

لقد تجلّى مبدء المبادي ... من مصدر الوجود والإيجاد
من أمره الماضي على الأشياء ... أو علمه الفعلي والقضائي
رقيقة المشية الفعلية ... أو الحقيقة المحمدية
أو هو نفس النفس الرحماني ... بصورة بديعة المعاني
أو فيضه المقدّس الأخلاقي ... فاض على الأنفس والآفاق
إذ أنه حقيقة المثاني ... وعند أهل الحق حق ثانِ
لا بل هو الحق فمن رآه ... فقد رأى الحق فما أجلاه

(١) وقد يسمى بالشيخ (باقر) بن عبد المحسن الشيرازي الفقيه العالم الحكيم المدقّق وبعد وفاة السيد المجدّد الشيرازي (١٣١٢هـ) عاد إلى مدينة شيراز واستشهد على أثر ما حدث فيها حول حركة المشروطة وكانت وفاته في السابع من شهر صفر ١٣٢٦هـ أنظر حرز الدين الشيخ محمّد، معارف الرجال ١: ١٢٩.

إذ مقتضى الفناء في الشهود عينية الشاهد والمشهود

إلى أن يقول:

أصل الأصول فهو علّة العلل عقل العقول فهو أوّل الأول

وقال في أمير المؤمنين عليه السلام:

وقلبه في قالب الوجود حياة كل ممكن موجود
ونسخة اللاهوت وجهه الحسن لو رام لقياه الكليم قيل لن
غرّته الغراء في الضياء جلّت عن التشبيه بالبيضاء
وكيف وهو فالق الإصباح في أفق الأرواح والأشباح

وعلى هذا الأسلوب جرى في جميع أرجوزاته العالية البالغة (٢٤) أرجوزة فجاء أسلوباً فلسفياً عملياً مبتكراً لم يمدح بمثلها أئمتنا وساداتنا عليهم السلام وما أبدع ما مدح به إمامنا زين العابدين عليه السلام ذاكراً صحيفته السجادية فقال:

ونفسه اللطيفة الزكية صحيفة المكارم السنية
بل هي أم الصحف المكرمة جوامع الحكمة منها محكمة
بل الحروف العاليات طراً تحكي عن اسمه العلي قدراً
هو الكتاب الناطق الربوبي ومخزن الأسرار والغيوب
يفصح عن مقام سرّ الذات يعرب عن حقائق الصفات

إلى أن يقول:

وحاله أبلغ من مقاله جلّ عن الوصف لسان حاله
فإنه معلّم الضراعة والاعتراف منه بالإضاعة
مقامه الكريم في أقصى الفنا تراثه من جدّه حين دنى

وأعلى آثاره الفلسفية وأعلاها أرجوزته في الحكمة والمعقول (تحفة الحكيم) التي

هي آية من آيات الفن مع أسلوبها العالي السهل الممتنع جمعت أصول هذا الفن وطرائف هذا العلم بتحقيق كشف النقاب عن أسراره وأزاح الستار عن شبهاته، وإن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ ناظمها من أعاظم فلاسفة الإسلام الذين لا يسمح بمثلهم الزمن إلاّ في فترات متباعدة أمثال ابن سينا والخواجه نصير الدين الطوسي وصدر المتألهين لولا إنّ شيخنا غلب عليه الفقه والأصول وانقطع إليهما عن الظهور بالفلسفة.. وإليك بعض أبيات أرجوزته هذه الشاهدة على سلامة ذوقه وطول باعه في الأدب وقدرته على التصرف في الألفاظ العربية السهلة الواضحة في أدقّ المعاني العلميّة، فقد قال في أصالة الوجود:

يختص بالوجود طرد العدم ... إذ ما سواه عدم أو عدمي
وليست العلّة للمعلول ... مناط طرد العدم البديل
وهو مدار الوحدة المعتبرة ... في الحمل بل كانت به المغايرة
ومركز التوحيد ذاتاً وصفة ... وفعلا ايضا عند أهل المعرفة

وقال في مبحث تعريف الوجود:

الحد كالرسم على التحقيق ... يوصف بالإسمي والحقيقي
ولا يقال في جواب الشارحه ... إلا حدوداً ورسوم شارحه

وقد كشف في هذين البيتين عن حقيقة الشارحة تنبيها على الغلطة التي علقت في أذهان أهل العلم عن مرادفة التعريف اللفظي لشرح الاسم ومطلب ما الشارحة وإن كان قد يراد من شرح الاسم التعريف اللفظي أحياناً ومنشأ هذا الاشتباه ما ذكره الحكيم الفيلسوف السبزواري[1] في شرح منظومته من ترادف التعريف اللفظي ومطلب ما

(١) الملا هادي بن مهدي بن هادي السبزواري (١٢١٢ – ١٢٨٩ هـ) من كبار الفلاسفة واشتهر بمنظومة الحكمة (غرر الفوائد) نظمها في بحر الرجز مع شرحه المنثور بدأ بتأليفها عام ١٢٤٠هـ وانتهى من شرحها عام ١٢٦١هـ وعليها شروح عدة.

الشارحة.. فأوقع الباحثين في هذا الاشتباه حتى كشفه شيخنا في هذين البيتين الرصينين وأوضحه في شرحه الكفاية في المطلق والمشروط من مقدّمة الواجب. وقوله في الجعل والمجعول بالذات:

الجعل للشيء بسيطاً يعرف وجعل شيء شيئاً المؤلف
وليس جعل الذات ذاتاً يعقل إذ ليست الذات لها التخلّل
كذاك لا يعقل جعل الذاتي أو عرضي لازم للذات
ولا كذاك العرض المفارق فإن إمكان الثبوت فارق
والحق مجعولية الوجود بالذات لا ماهية الموجود

فانظر إلى هذا البيان الجزل والقول الفحل والأسلوب السهل والتعبير الرصين عن أدق معاني الفلسفة وأسماها بغير تكلّف وبلغة سليمة ناصعة لا تجد فيها فضولاً ولا خللاً كما وجدنا المنظومات الأخرى في الفنون لاسيما بعض المنظومات الفلسفية النابية ومن أين متحت دلوك في هذا القليب تغترف الماء الزلال بل الدرّ الثمين وما سقناه من الأبيات إنّما هو غيض من فيض كشاهد على ما نقول.

أدبهُ

نشأ أستاذنا ميّالاً لكل علم وفضيلة وكانت عبقريته تساعد على إتقان كل ما تصبو إليه نفسه من الفنون والعلوم فلم يفته أن يتّجه إلى ناحية الأدب العربي في عصر كان للأدب فيه سوق رائجة فيضرب فيه بسهم وافر وساعدته نشأته العربية في محيطي الكاظمية والنجف الأشرف على أن يكون أديباً يقرض الشعر ويجيد النثر وله في الشعر قصائد رقيقة تدل على ذوق عال وطبع مستقيم ولكنّه كان لا يحتفل بها فلم يحتفظ بها ولم يطلع عليها إلاّ القليل من خواصه ويظهر أدبه الفياض في أرجوزاته العلمية وفي مدح آل البيت وقد تقدم أنموذج منها يشهد على علو كعبه في الأدب العربي على أنّ له اليد

الطولى في الأدب الفارسي فله ديوان منه في مدائح آل البيت ومجموعة في الغزل العرفاني الرمزي أودع فيها من المعاني الفلسفية ما يبهر عقول المتأدبين.

أوصافهُ

كان رحمه الله تعالى مربوعاً يميل إلى القصر نحيف الجسم متماسكاً تعلو على وجهه في أواخر سني حياته النحافة والصفرة ساهم الطرف أكثر نظره إلى الارض لا ينظر لمحدثه إلاّ ملاحظة، يبدو للناظر مثقلاً بالهموم والتفكير المتواصل على أنّه حاضر النكتة المرحة حتى في أثناء درسه أنيس المحضر رقيق الحاشية يجلب السرور إلى جليسه متواضعاً حتى للصغير خافض الصوت إلى حد الهمس فكان ذلك من أكبر المشكلات على تلاميذه في درسه وكم طالبه البعيد عن مجلسه أن يسمعه فتكثر الشكوى ولكنّه لايزال هو هو في همسه وهم هم في شكواهم ويزيد في المشكلة بعد أنظاره الشريفة ودقّة مباحثه ونكاته.. أمّا ما كان عليه من التهجّد والعبادة فهذا ما يكشف عنه أنّه كان عارفاً إلهياً متفانياً في مقام الشهود منقطعاً إلى حظيرة القدس لا يلتذّ إلاّ بالمناجاة الروحانية ولا يأنس إلاّ بالوحدة والانقطاع إلى مقام المقربين.

مؤلّفاته

كان لمترجمنا – أعلى الله مقامه – قلم سيّال ورغبة في التأليف والانتاج يقصر عنهما كل قلم ورغبة وكان من ميزاته أن يفرغ كل مؤلّفاته لأوّل مرة من المبيَّضة التي يعدّها للتأليف لأعلى عادة أكثر المؤلفين في اتخاذ المسودّة فلا يحتاج إلى إعادة النظر وتعديل ما يجود به قلمه الشريف وذلك دليل القريحة الوقادة التي لا تجارى... فأنتج طيلة حياته عدّة مؤلّفات قيّمة هي مفخرة العلم والأدب وإليك بعضها:

١. حاشية على كتاب كفاية الأصول وقد طبع منها الجزء الأول في إيران وأضاف

عليها بعد طبعها تعليقات نفيسة لا يستغنى عنها.

٢. تعليقة ضافية على المكاسب وهي التي بين أيدينا.

٣. تعليقة على رسالة القطع للشيخ الأنصاري – أعلى اللهّ مقامه –.

٤. رسالة في الإجارة مطولة.

٥. رسالة في الاجتهاد والتقليد والعدالة.

٦. رسالة في صلاة المسافر.

٧. رسالة الطهارة.

٨. رسالة في صلاة الجماعة.

٩. رسالة في تحقيق الحق والحكم وقد أدرجت في أول البيع من تعليقة المكاسب هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

١١، ١٢. رسالتان في المشتق.

١٣. رسالة في قواعد التجاوز والفراغ وأصالة الصحة واليد.

١٤. رسالة في الصحيح والأعم.

١٥. رسالة في موضوع العلم.

١٦. رسالة في المعاد.

١٧. منظومة في الفلسفة العالية (تحفة الحكيم).

١٨. منظومة تشتمل على (٢٤) أرجوزة في مدح ومراثي النبي والأئمة الأطهار.

١٩. منظومة في الصوم.

٢٠. منظومة في الاعتكاف.

٢١. ديوان شعره في الغزل الفارسي.

٢٢. ديوان شعره الفارسي في مدح ومراثي النبي وآله المعصومين.

٢٣. رسائله العملية في الفقه مختصرة في اللغتين العربية والفارسية.

٢٤. رسالة في المشترك.

٢٥. رسالة في الحروف.

علاقة تلاميذه به

من الظواهر العجيبة التي تسترعي النظر تفاني تلاميذه في حبّه وشدّة تعلّقهم به وإعجابهم بشخصه الكريم إلى حد التقديس ويعزى ذلك إلى **أمرين**:

الأول – إلى ما يرونه فيه من المواهب النادرة التي لم يجدوها في غيره ممن رأوا وسمعوا تلك المواهب التي يمنحها اللّه تعالى للنوابغ من خلقه في الفينة بعد الفينة وفي الفترة بعد الفترة مواهب العقل الجبّار والخلق الإلهي.

الثاني – وإلى ما كانوا يرون فيه مثالاً للأدب الرؤف والأستاذ العطوف يحنو على الصغير والكبير ويعنى بحيويتهم العلمية بالصغيرة والكبيرة فهل من اللوم على من لم يستوف حظه من معارفه إذا بقي بعده في حيرة التائه ووحشة المنفرد والذي لا يجد من يركن إليه ليتمّ ما أطرد من حياته العلمية.

إن مفاجئة موته كانت صدمة عنيفة على تلاميذه لم يحسبوا لها الحساب فإنا للّه وإنا إليه راجعون.

ولقد كنت أرجو ان أؤدّي بعض ما عليَّ من واجب شكر فضله بترجمة ضافية له عسى أن تكشف للقارئ بعض الصفحات المطوية من حياته – أعلى الله مقامه – ولكن الفرصة لم تكن مؤاتية لي وقد أعجلت على هذه الكلمة المختصرة العابرة فمعذرة إليك

أيها الأستاذ العظيم إني لم أستطع أن أقوم ببعض ما عليّ من حقوقك التي لا تحصى وعهدي بك لغض النظر عن كل هفواتنا فاجعل هذه من تلك وأرجو من الله تعالى أن يساعدني على استلهام بعض روحانيّتك لأتمكّن في فرصة أخرى من التكفير عن هذه الخطيئة.

تقديم المظفر لكتاب
منظومة تحفة الحكيم

نشرت هذه الدراسة عن كتاب الشيخ الكمباني، مطبعة النجف ١٣٧٨ - ١٩٥٩.

منظومة تحفة الحكيم

هو الشيخ محمد حسين ابن التاجر المعروف الحاج محمد حسن الأصفهاني الذي سكن الكاظمية المنتهي نسبه إلى الحاج محمد إسماعيل الذي ارتحل من نخجوان إلى أصفهان وسكن فيها.[1]

ومن أجل هذا لقّب شيخنا بالأصفهاني وإلاّ فهو نخجواني الأصل، ولقب شيخنا أيضاً بالغروي لأن الغري مسقط رأسه وكانت ولادته فيه أول محرم سنة ١٢٩٦هـ ولأنّه معهد دراسته ومهد نبوغه وكان انتقاله ثانياً إلى النجف الأشرف من الكاظمية في أول شبابه في أخريات العقد الثاني من عمره، وبقي فيها إلى أن وافاه الأجل في الخامس من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦١هـ.

فقد توفي وهو ابن خمس وستين سنة ودفن في الحجرة الملاصقة لمنارة الحرم العلوي الشمالية من الجانب الشمالي لها وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً في الغري فأقيمت له عدة مجالس للفاتحة في كبريات مدارس النجف الدينية وجوامعها عدا المدن العراقية والإيرانية.

وقد سبق أن ترجمت لأستاذنا العظيم في مقدمة حاشيته القيّمة على مكاسب الشيخ الأنصاري (قدس سره) حينما طبعت سنة ١٣٦٣هـ أي بعد وفاته بسنتين ونشرت هذه الترجمة مرّة أخرى – بعد إجراء التعديلات الطفيفة عليها – في مقدمّة كتابه (الإجارة)

---

(١) آثرنا نشر هذه الدراسة لما فيها من معلومات إضافية على سابقتها المتعلّقة بحياة الشيخ الأصفهاني الكمباني (قدس سره).

المطبوع سنة ١٣٧٥هـ.

أمّا الآن – وقد طلب منّي تقديم منظومته (تحفة الحكيم) هذه – فما أراني بحاجة إلى تكرار ما كتبته عنه سابقاً وقد أصبح في متناول الجميع، وإنّما المهم في هذه المقدّمة أن نتحدث عن نفس هذه المنظومة الجليلة وقد قلت عنها سابقاً في تلك المقدمة:

«وأعلى آثاره الفلسفية وأغلاها أرجوزته في الحكمة والمعقول (تحفة الحكيم) التي هي آية من آيات الفن مع أسلوبها العالي السهل الممتنع جمعت أصول هذا الفن وطرائف هذا العلم بتحقيق كشف النقاب عن أسراره وأزاح الستار عن شبهاته».

«وإن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ ناظمها من أعاظم فلاسفة الإسلام الذين لا يسمح بمثلهم الزمن إلاّ في فترات متباعدة لولا أن شيخنا غلب عليه الفقه والأصول وأنقطع إليهما عن الظهور بالفلسفة».

واستشهدت بعد ذلك بعدة أبيات من الأرجوزة للتدليل على براعتها الفنيّة ثم قلت بالأخير:

«فتأمل في هذا البيان الجزل والأسلوب السهل والتعبير الرصين عن أدقّ معاني الفلسفة بغير تكلف وبلغة سليمة ناصعة ومن أين متحت دلوك في هذا القليب تغترف الماء الزلال بل الدرّ الثمين وما سقناه فإنّما هو غيض من فيض....».

وأعود فأقول – بعد ٤١ عاماً ولا أزال على رأيي–: أن كل ما في هذه الأرجوزة العلمية هو من النظم المختار البارع في سهولة عبارته وجزالة بيانه في حدود ما يسعه نظم أرجوزة مقيّدة بوزن وقافية مع مراعاة الاختصار والإيجاز.

ومن النوادر جداً في الأراجيز أن تبلغ بهذه السهولة والجزالة، وإذا أردنا مقارنتها بمنظومة الحكيم المتألّه الحاج هادي بن مهدي السبزواري المتوفى سنة ١٢٨٩ هـ فإنّا نجد الفرق عظيماً جداً.

وأعتقد أن الذي دفعه إلى نظمها هو تلافي ما في أرجوزة السبزواري من ناحية الأداء والمادة العلمية لتحلّ محلّها عند طلاّب الفلسفة لأن في منظومة السبزواري من الخلل في الأداء وفي الألفاظ باختزالها واشتقاقاتها وتعقيدها الشيء الكثير الذي كاد أن يسقطها عن درجة الاعتبار والاستفادة.

وإذا قدّر لأرجوزة أستاذنا أن تُشرح شرحاً يليق بها فإنها لا شك ستكون موضعاً للعناية بالدرس والتدريس لما يلاقيه طلاّب الفلسفة من العناء المرهق في تعقيد منظومة السبزواري وشرحها المزجي له ذلك الشرح الذي زادها تعقيداً وغموضاً لم نعهده لكتاب آخر لا في الفلسفة ولا في غيرها وعلى الرغم من ذلك كلّه هو موضع إقبال الطلاّب المبتدئين في دراسة الفلسفة، والسرّ فيما أعتقد هو اختصاره وجمعه لأصول الفن وسلامة أكثر آرائه الفلسفية.

فلذلك أجد من الأجدر أن تُشرح أرجوزة أستاذنا شرحاً واضحاً مختصراً لتحل محل منظومة السبزواري وقد علمنا أن الحكيم الجليل أستاذ هذا الفن المرحوم ميرزا مهدي الآشتياني المتوفى سنة ١٣٧٢هـ[1] انبرى لشرحها وهو موضع ثقة طلاّب هذا الفن ولكن الأجل لم يمهله لإكماله فقد انتهى به إلى مبحث الوجود الذهني ولو تم لكان له شأن كبير في دراسته.

وعسى أن يهيّئ الله تعالى من يتلافى هذا الأمر بعد نشر هذه المنظومة ليقرب هذا الفن إلى الأفهام ويريح طلاّبه من العناء وقتل الوقت الثمين فيما لا جدوى فيه من حل عبارة أو توجيه تركيب أو تخريج لفظة – كما صنع الحكيم السبزواري في شرح منظومته – بلا ضرورة لذلك ولا فائدة حتى الفائدة من ناحية لغوية، ولو سلّمنا جدلاً أنّ هناك فائدة لغوية فإنما هي على كل حال استطراد غير مرغوب فيه ثم هي – بعد ذلك

(١) ولادته سنة ١٣٠٦هـ.

– إقحام لفن أجنبي في فن دقيق يربك فيه تسلسل الفكرة وأداءها وفهمها بالأخير.

وتقديم هذه المنظومة للنشر – الآن – هو باكورة العمل للاستفادة منها وأول خطوة لتهيئة شرح جدير بها، فإني لأرجو – إذ تصبح في متناول الجميع – أن يتسابق علماء هذا الفن الذين يعنيهم أمر طلاّبهم إلى شرحها شرحاً واضحاً سهلاً فيمكث ما ينفع الناس في الأرض ويذهب الباقي جفاء.

وقبل أن أختم كلمتي أجد من اللازم عليّ أن أعلن شكري وتقديري لأخي في الله الصفي وزميلي في الدراسة أيام حضورنا على درس أستاذنا العظيم في أصول الفقه وهو الأخ العلامة الجليل الحاج الشيخ نصر الله الخلخالي (١٣١٦ – ١٣٩٨هـ) إذ تقدم اليوم لنشر هذه المنظومة الثمينة وليس شكري له إلاّ لجانب الوفاء الصادق لأستاذه وإخلاصه في تقديره مع الرغبة المؤمنة في نشر المعرفة.

وعسى أن أكون قد ساهمت معه في هذه الخدمة بتقديم المنظومة وتحقيقها وتصحيحها وفقني الله تعالى وإياه لأداء الخدمة الصحيحة النافعة إنه أكرم مسؤول.

(٣ ذي القعدة سنة ١٣٧٧)

بطل الجهاد والعمل

الشيخ عبد الحسين مطر الخفاجي

(١٢٩٢ ـ ١٣٦٣هـ)

نشرت هذه الكلمة التأبينية في كتاب (ذكرى علمين من آل مطر)، مطبعة النجف ١٣٧٦/ ١٩٥٨.

الشيخ عبد الحسين مطر الخفاجي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

سل كل نسمة من الإنسان في الحياة تجبك بلسان مظاهر وجودها الفصيح أنّ لها باستقلالها من نسمة العناية الإلهية نفحة تعبق برائحة، ومن فيض الوجود المطلق حداً من الوجود، ومن نور الحق قبساً يختلف بكل توهّجه عن كل قبس آخر. فإذا زعموا أنّ الإنسان نوع واحد فلكلّ شخص من المميّزات الذاتية في إنسانيته ما يصحّح قول القائلين أنّ كل إنسان نوع مستقل بذاته.

واختلاف أبناء الإنسان في ملايين الملايين من هيئات تركيب أبدانهم حتى في أرق خطوط جسومهم وفي بصمات أصابعهم هو كاختلافهم في ملايين الملايين من رغبات نفوسهم وأذواقهم وأفهامهم وإدراكاتهم ولو قدّر للإنسان أن يضع لكل نوع من الذكاء، الذكاء فقط وحده لفظاً خاصاً لاستغرق جميع الألفاظ في جميع اللغات ثم لم يقف دون تلك الأنواع غير المتناهية معترفاً بالقصور والعجز وبرجوع طرف فكره خاسئاً وهو حسير.

أليس كل ذلك من أدلّة الوجود اللامتناهي وعظمة العناية الربّانية؟

أليس بعض هذا يكفيك دليلاً على قصور البيان عن تحليل شخصية أي رجل من البشر إلاّ بالألفاظ العامة التي لا تشف إلاّ عن المعاني الإجمالية والمقاصد الرجراجة؟ وأكثر من ذلك أنّ الكاتب في كل ما يكتبه حتى في ترجمة الرجال أنّما يعبّر عن خلجات

(١) الشيخ عبد الحسين الشيخ حسن مطر عالم جليل مجتهد مجاهد له مواقف وطنية مشهودة. آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها ٣: ٣٥٧.

خواطره الخاصة ومشاعره الموجودة في نفسه، فهو إذا لا يعبر إلاّ عن نفسه ولا يترجم إلاّ بعض توجهاته الموجودة في ذهنه، فإذا كان المترجم مع ذلك غامضاً بمعنى أن خواطر الكاتب لا تكون واضحة عن حياته ونفسيته فهنا يكون البيان أكثر عجزاً والترجمة أبعد مثالاً.

وكم كنت أتمنّى لو يتاح لي من الألفاظ ما أعبّر بها عن خواطري في شخصية فقيدنا المرحوم (قائد الأبطال أو بطل القادة) فخانني بياني وأقعد بي قلمي عن تناول تلك النفسية التي أعتقد أنّها كانت غامضة في تركيبها بعيدة المنال عن عرفانها صعبة الانقياد لمحلّلها فوق ما قلته من العجز عن تحليل أيّ شخص من الناس.

وأسرار هذا الغموض والبعد والصعوبة يفسّرها أنّ نوعاً من الناس – إذا صحّ التعبير – هذا النوع الذي منه شيخنا الفقيد يعتاص[1] على محيطه فيتمرّد عليه ويتأبى الانصياع له انصياع سائر البشر المتوسط فلا يحكي عن المحيط ولا المحيط يحكي عنه ثم يرتفع عن مستوى تربيته فيشمس شموس المعتز بكرامته الغني بمواهب نفسه فلا تكشف عن حياته نشأته في التربية أو تربيته في النشأة.

والمحيط والتربية هما اللّذان تملأ بهما ذهنيّة الكاتب فيمليان عليه خواطره عن أشخاص محيطه ويستعين بهما على تسجيل ما يكتب.

لا شك أنّ هذا الاحتفال أنّما فكّر القائمون به لتخليد عبقرية الفقيد مجاهداً في سبيل عقيدته في الدفاع عن الدين ومغامراً في منافحة المستعمرين وثائراً على الظلم والعدوان ومضحياً بنفسه ونفيسه لإشادة العدل والحق.

وفي الحق أنّه كما تصوروا وفكروا ولكن أعتقد أنّ قوّة نفسيته وفعاليتها التي علّمته مراس محيطه وتربيته وبرّرت لنا تعبيرنا عنه بالغموض هي أعظم من كل ذلك وهي

(١) عوص الموضوع: صعب فهمه، وعوصت المسألة ولم ندر كيف حلّها، والعويص من الشعر ما يصعب استخراج معناه.

سرّ كل تضحياته التي جاءت بلا حساب فشُرّد وبعّد وطورد ونكب حتى هصر صلب عوده الداء العضال فقابله بالصبر والجلد اللذين كشفا أيضاً عن تلك القوّة الفاعلة والصلابة المستعصية على الحوادث فقابل الموت بابتسامة الساخر من الحياة الدنيا الهازئ بالكوارث العابرة المستهين بالمصائب الحادثة. ولقد كان يدهشك من هذا (الشيخ) الوقور ويشعرك بغموضه أيضاً خفة روحه التي تطير بك إلى سماء من الخيال الفاتن والأفق الواسع من اللّذة ونسيان متاعب الحياة، وإذا أتيح لك أن تنزل إلى قرارة نفسه غمرك بموجة من الشجى وشعلة ملتهبة من الحسّ بالألم من الشرور التي ملأت الكون.

رحمك الله يا بطل الجهاد.... رحمك الله يا أبا المهدي .. نؤبّنك ونحن نعلم أنّ تأبيننا لا يجديك نفعاً ولا يخفّف عنك الألم من الحياة التي فارقتها ناقماً وتركتها آيسا، ولكنّنا نؤبّنك لتكون عبرة للباقين وتذكيراً للمتواكلين فإنّا أصبحنا في عصر أحوج ما نكون إلى عشّاق للعمل فعالين وقادة للجهاد مغامرين وأبطال للدين متفانين فعسى أن تبعث ذكراك هذه في أهل الغيرة حماسهم وفي ذوي النخوة هزّتهم وفي أرباب الشجاعة إبائهم.. عسى أن يلمّ الله تعالى الشعث ويوحّد الجماعات ويجمع الأيدي للصراع في العمل للدين وللعمل في الصراع عن الإسلام، وقد أصبح هذا العصر (وأسوء طالعنا فيه) مدعاة للباطل وملهاة عن ذكر الله ومجلبة للشرور وعدوّاً لكل كرامة وعزّة خلقية ومحبّباً لكل وحشية ونزعة جاهلية.

رحمك الله يا بطل العمل...

نم قرير العين رغداً فلقد لاقيت جزاء عملك وفاقاً وقابلت ما أعد الله تعالى للمجاهدين الصابرين والمؤمنين العاملين تغمدك الله بمغفرته وأمطر عليك شآبيب الرحمة والرضوان.

أيّها العظيم

السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

(١٢٨٤ ـ ١٣٦٥هـ)

مقالة نشرت في صحيفة الهاتف النجفيّة بعددها (٤٣٦) من السنة الثانية عشرة الصادر بتاريخ الجمعة (٢١ ذي الحجة ١٣٦٥) الموافق (١٥ تشرين الثاني ١٩٤٦).

السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد مضيت أحدوثة مع التاريخ فهلا أتحدث عنك للتاريخ، وإن كان للحديث عنك في حياتك ما يوهم الملق إلى ذات يدك البيضاء التي غمرت الناس بغيثها الوكاف فقد يتحاماه الكاتب الحر فإن قصر عنه اليوم فإنّه أقرب إلى التهمة بغمط الحقائق ونكران الجميل وخيانة التاريخ وظلم العبقرية وسحق الضمير.

أيها العظيم بعد أن تخطّيت هذه المرحلة إلى الحديث عنك فأرجو ألاّ تبهرني شخصيّتك الجذّابة فتغلب على قلمي فتجرّه إلى المبالغة عنك، والكاتب والمؤرخ هما صريعان للإفراط والتفريط.

إنّك جمعت صفاتاً لا تزيد على أنّها صفات البشر، ولكنّها صفات لا تجتمع إلاّ في فترات من الدهر لشخص في قرن أو لقرن في شخص، وإذا كانت هذه مبالغة فإنّي متشجّع للتناول عنها، ولكنّي أتحدى الكتاب أن يثبتوا لي شخصاً مثلك ممن رأينا له مالك من خلال.

إنّك عظيم في سعة صدرك وآلة الرياسة – كما يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام – سعة الصدر وزدت فتجاوزت المألوف، وأي منّا من لم يشاهد في هذه السعة، وسعت بها القريب والبعيد حتى كدت أن تطمع أو أطمعت ذوي النفوس المريضة أن يضايقوك أو يتقوّلوا عليك ليحقّقوا مآربهم عندك.

وإنّ أنس فلا أنس قصة ذلك الشيخ الساكن في الكاظمية – ليقرأ قصته منشورة

في صحيفة تقرأها الناس إذا كان حيّاً – لما حمله الحنق وشموخ أنفه على أن يحرّر لك رسالة مغفلة من اسمه الصريح وفيها من لاذع الكلام ظن أنّه سيشفي به لاعج صدره إذ لم تحقق أمله فيما طلبه من الدنيا الرخيصة عندك ولكنّه بعد أن تمرّ سنة على رسالته الوقحة يندم ويرجع إلى نفسه فيحاسبها ويلومها على تلك الفعلة الهوجاء ماذا أجدته في الغاية المقصودة له والمكتوب له لم يعرف صاحب الرسالة من هو؟ فحرّر لك عندئذ رسالة جديدة باسمه الصريح يتضرّع فيها ويطلب ما يؤمل من عرض الدنيا وهل يظن أحد مهما كان شديد الفطنة أنّك ستعرف إن كاتب الرسالتين واحد! وبينهما سنة كاملة وأنت تردّ كل يوم عشرات الرسائل وتشغلك مئات الحوادث والشؤون الخاصة والعامة عن أن تحتفظ بمثل هذه الرسالة الأولى أو تتذكّرها فتطابق بين الخطّين ولكن قوة الذاكرة العجيبة ودقّة الملاحظة النادرة وحسن الإدارة والسهر على رعاية مصالح الناس ورحابة الصدر كل ذلك مكّنك من أن تعرف أنّ صاحب الرسالة الثانية هو صاحب الرسالة الأولى المغفلة من الاسم فتستخرجها من بين آلاف الأوراق المحفوظة بغير نظام وتسجيل ثم ترسلها في طي ظرف فيه ما كان يطلبه من نقود ليتأدب وليعرف قيمة نفسه فما أعظم هذا الجواب الصامت وما أبعد مدى مدلوله وتأثيره! ويا سوء طالع صاحب تلك الرسالة أتراه بقي حيا من سورة الخجل لو كان ذا قلب حسّاس.

نعم! إنّك عظيم في سعة صدرك وفي هذه الحادثة يتجلّى كيف كانت عظمتك أيضاً في قوّة الذاكرة ودقّة الملاحظة ورعاية المصالح العامّة والخاصّة، والحوادث اليومية التي نعرفها من هذا النوع أكثر من أن يحصيها قلم.

ولا أنساك يوم جئتك لأراجعك عن قطعة أرض موقوفة تخص بعض أصحابنا وفيها نزاع قديم لك فيه حكم قبل عشرين سنة وأنت يوم جئتك قد خرجت للناس بعد مرض حجبك عشرة أيام وآثار المرض والنحول بادية على شيخوختك الوقورة

وقد اجتمعوا عليك من كل حدب وصوب وغرفتك على صغرها لا يقل من فيها عن ثلاثين شخصاً بين واقف وجالس يستحثونك على أشغالهم ومن ورائهم في الدار خلق كثير والأوراق منشورة – عادتك – بين يديك وعلى جانبيك مما يحمل الإنسان على اليأس من أن تتذكّر أقرب الحوادث أو تعير اهتماماً لا شكل الأمور، فكيف بمشكلة هذه القطعة التافهة وقد مرّت على قصّتها عشرون سنة إلاّ أنّ صاحبي صاحب حاجة لم يدعني أنسحب من الموقف الدقيق فألجأني أن أشقّ طريقي بين الناس المتكدسة والخجل واليأس يتملّكاني فأدهشني أن تلحظ مآبي وتتوجّه إلينا بكلّك فتلمح الأوراق المختصّة بالموضوع وتقبل علينا كأنه ليس عندك ما يهمّ الأمر إلاّ هذه القطعة والعجب إنّك تبتدينا فتقصّ علينا ما جرى من النزاع فيها بأكثر مما نعلم أنا وصاحبها بكل هدوء واطمئنان كأنه ليس في الغرفة غيرنا وكأنّما مرّت عليك قصتها في الأمس القريب فتذكر حتى اسم الخصم الساكن خارج النجف وتحدّثنا عنه وهو رجل من سواد الناس لا أظنه اتّصل بخدمتك غير تلك المرة!

أليست هذه القصّة من عجائب قوّة الذاكرة وحضور الذهن وشدّة الرعاية لمصالح الناس والعناية حتى بالصغير من الأمور.

فما أعظمك يا أبا الحسن لقد كنت حقاً الزعيم الذي لا يجارى لقد قالوا فيك وأكثروا من القول: (أنّك أنسيت من قبلك وأنسيت من بعدك) لئن كانت عظمتك في ذهنيتك الجبارة وحضور قلبك اليقظ فانت أعظم في سماحة كفّك التي لم نسمع بمثلها في تاريخ ولم نرها في شخص وقد عاشت في كنفك ألوف من العائلات بدعة واطمئنان تدر عليهم مرتباتهم بلا انقطاع ولا تلكّؤ ومن غير أن يعرف تلك المرتبات على التفصيل إلاّ خاصّة الخاصّة من حاشيتك وسننت بذلك سنّة لم يسبقك إليها أحد من العلماء وزعماء الدين.

أيها العظيم! وأعظم من كل ذلك جلدك على الحوادث الجسام قوّة إرادتك التي لا تزعزع وهما من أسرار نبوغ شخصيتك التي جعلتك موئل العباد وقد أقمت على ذلك الشواهد أكثر من يوم عرفك الناس فيه رئيساً لهم إلى أن فارقتهم في خطبهم الجلل بموتك.

وإن حادثة صغيرة أقصّها الآن شاهدها جماعة من الناس تكفي للدلالة على أن قلبك من زبر الحديد إذا كان للحديد قوّة على مقاومة صواعق الدهر ذلك يوم أخذك الناس من الصحن الشريف العلوي عشيّة السادس من صفر سنة ١٣٤٩ عندما استشهد فيها ولدك الأكبر المرحوم السيد حسن إلى دار قريبة والنجف الأشرف قد ضجّت بأهلها لهذه الفاجعة المؤلمة بين صياح وعويل يشقّ عنان السماء والمجتمعون حولك في الدار من العلماء وأهل الفضل قد وجموا لهول تلك الساعة الرهيبة لا يدرون كيف يعزّونك في فلذة كبدك المذبوح شهيداً ولكنّك أردت أن تبرهن لهم على أنّك الجبل الأشمّ لا تزعزعه العواصف فقطعت عليهم وجومهم الحزين بالتفاتة رحيمة إلى أحد الطلاّب الجالسين فتسأله عن الحاجة التي كان قد كلّفك بقضائها ثم تخرج له من المال ما يكفي لتلك الحاجة، ما أدري أيبلغ الجلد بالإنسان إلى مثل هذا الحال المحيّر للعقول والرأفة بالناس إلى هذا المقدار الذي لا يبلغه الخيال.

أيّها العظيم:

هذه بعض نواحي عظمتك أسجّلها في هذه الكلمة العابرة ولعلي أستطيع في فرصة أخرى أن أعود لأوفي بعض مالك من عظمة الشخصية النادرة رحمك الله تعالى برحمته الواسعة وجزاك عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى العاملون ورزقنا الصبر عن هذه الخسارة التي لا تعوض فإنا لله وإنا له راجعون.

الزعيم الموهوب

السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

(١٢٨٤ ـ ١٣٦٥هـ)

نشرت هذه المقالة في مجلة الدليل النجفيّة السنة الأولى العدد الثاني الصادر بتاريخ (ذي الحجة/ ١٣٦٥ الموافق ٢٦ تشرين الأول ١٩٤٦).

الزعيم الموهوب السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني

كثر تساؤل الناس – اليوم وبعد اليوم – عن الفقيد العظيم آية اللهّ السيد أبي الحسن وعن سرّ عظمته الذي جعلته في هذا المركز الكبير، وكيف أصبح مهوى قلوب جميع الطائفة الأمامية من المسلمين، ويكثر التساؤل على الأخص من البعيدين عنه. وأنا كإخواني الذين كان لهم شيء من الاتصال به أو التردّد عليه أجد أنّي مأخوذ للجواب عن هذا التساؤل وأحق من يستطيع أن يأتي بالطريف من حياة هذا العظيم.

لقد تحدّثت في العدد الخاص به من جريدة الهاتف الغرّاء، عن شيء من سرّ عظمته، ووجدتني في آخرها لم أعط الموضوع حقّه ورجوت أن أعود عليه في فرصة أخرى، وما أظنّني قد وجدت هذه الفرصة الكافية التي كنت أطلبها ولكنّي أعود الآن، والرجاء باق احتفظ به كخط للرجعة.

حقّاً أنّي مسحور بهذا الرجل العظيم، ولا أنكر ذلك من نفسي، ولكن على كل حال أنا كواحد من الناس الذين عرفوه، فإن لم يكن كما نصوّره في أفكارنا أكبر شخصيّة دينية عرفناها فإنّ تأثيره على أمثالنا الذي يجعلنا مسحورين بشخصيته إلى هذا الحدّ هو كاف للدلالة على أنّه عظيم في شخصيته كبير في تأثيره على الجماهير فريد في قيادته للناس.

أقول هذا ثم أرجع فأقول: لاشك أنّ شيئاً كبيراً من تأثير المرجع الديني الأعلى عند الإمامية وانقياد الناس له لم يكن راجعاً إلى مؤهّلاته الشخصية بمعنى أنّ طاعة الناس للمقلّد العام ووجوب اتباعهم له لا ينشأ من شخصه نفسه وماله من صفات وتأثير، بل إنّما ينشأ من التعاليم الدينية التي جاءت عن أئمتنا عليهم السلام: فقد فتحوا باب الاجتهاد

في الأحكام الشرعية، وجعلوا للمجتهد الجامع للشرائط النيابة العامة عن الأمام، له ما للإمام من الحكم والنفوذ في التصرف ووجوب الطاعة والانقياد له، وأوجبوا تقليده في الأحكام على من لم يبلغ درجة الاجتهاد، بل حكمه وقضاؤه في الأموال والموضوعات الأخرى واجب التنفيذ حتى على باقي المجتهدين الآخرين.

فالمجتهد عند الإمامية من القداسة الروحية الكبرى التي هي من فروع الإمامة عندهم بل من شؤونها ما ليس يوجد عند أية طائفة أخرى من المسلمين تضفيها عليه التعاليم الدينية الواردة عن الأئمة عليهم السلام فالرادّ عليه رادّ عليهم والرادّ عليهم رادٌّ على الله تعالى كما في الخبر.

فالسيد الفقيد كواحد من مراجع التقليد الذين توفقوا للصعود إلى هذه القمة إنّما كان آية الله وكان موئلاً للناس، ومهوىً لأفئدتهم ومطمحاً لأنظارهم، وزعيماً قائداً، وسيداً مرشداً لأنه تردّى برداء الإمامة، ولبس ثوب الزعامة الدينية فيرون وجوب طاعته كما يرونها للإمام تقريباً، ويقدّسونه لأنه نائب الإمام العام بنص الإمام، فتجلب له الأموال والحقوق الشرعية من كل حدب وصوب ويرجع إلى رأيه في الشؤون الدينية والأحكام الشرعية صغيرها وكبيرها عن عقيدة وإيمان.

غير أنّ هذه المرجعية والنيابة عن الإمام لا تكون إلاّ لمن جمع شرائطها وأهمّها الاجتهاد والعدالة وألاّ يكون مقبلاً على الدنيا فقد ورد عن أهل بيت العصمة في تحديد ذلك قولهم: (من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه).

وزبدة المخض أن فقيدنا المرحوم (نور الله ضريحه) كأحد مراجع التقليد إنّما كان له هذا النفوذ والتأثير لأنّه توفّق إلى أن يتقلّد هذا المنصب الإلهي الكبير، فالتأثير والنفوذ للمنصب لا لشخصه الكريم.

هذا ما يجب أن يقال إذا أريد الحديث عن كل شخص كانت له الزعامة الدينية المطلقة عند الإمامية، غير أن السيد الفقيد عرف كيف يملأ هذا الدست، وكيف يعطي لهذا المنصب حقّه، وجمع إلى نفوذ المنصب وتأثيره مواهب الزعيم الموهوب وصفات القائد المحنّك وشخصية النوابغ العظماء.

وهذا ليس بالشيء القليل، أو فقل ليس بالذي يقال من شأن الشخص وقيمته الذاتية، فإنّ كل صاحب منصب ديني أو مدني حتى الملوكية إنّما يكون التأثير الحقيقي للمنصب نفسه، ولكن المنصب كالآلة في يد صاحبه والرجل كل الرجل من يستطيع أن يصرّف تلك الآلة ويحسن العمل بها، بل أهمية المنصب وبلوغه القمّة يتّبع قيمة الشخص الذي يتربّعه باستحقاق وجدارة، فإذا كانت له مؤهلات العظماء ومواهب النوابغ ارتفع إلى أعلى الدرجات التي يمكن أن يبلغها ذلك المنصب، والعكس بالعكس.

وكذلك السيد أبو الحسن (طاب ثراه) في تربّعه دست الزعامة الدينية العامة كان من العظماء النوابغ الذين ارتفع بهم المنصب إلى أقصى ما يمكن أن يبلغه حتى صدق عليه ما قيل في حقّه «أنّه ضرب الرقم القياسي في الزعامة الدينية».

قلت آنفاً أن جمع إلى نفوذ المنصب مواهب الزعيم الموهوب، وأوضح قصدي هنا فأقول: أنّه جمع إلى الشرائط التي جعلته أهلاً لهذا المقام الروحاني الكبير صفات ليست هي في الحقيقة من شروط هذا المنصب، ولكنّها صفات جعلته في القمّة من الزعماء.. منها كرم نفسه وسماحة كفّه فإنّه بلغ فيهما حدّاً يتجاوز المألوف في مشاهير أهل الكرم والسماحة، فقد كان ألذّ شيء عنده في الدنيا – كما كان يقول – أن يجيئه صاحب حاجة فيسأله ما يجده ليعطيه ولقد أثبت هذا القول بالعمل وزاد، ومن بوادر سماحته التي ضرب بها المثل صرفه ثمن داره في الخير لطلاّب العلم والفقراء وقد بذل الثمن أحد الأثرياء لشراء دار لسكناه، وكان يومئذ لا يملك داراً ولا عقاراً وذلك في أول رجوع

الناس إليه.

وكلّ العبارات التي تحضرني في وصف الكرماء السابقين كقولهم (يعطي عطاء من لا يخاف الفقر) فلا أجدها وافية للتعبير عما كان عليه من الكرم والسماحة، وأحسن ما يقال فيه (أنّه كان لا يجد للمال قيمة إلاّ أن يعطي).

ومن الغريب أن أكثر، ما كان يصرفه من الأموال الطائلة التي تبلغ في الشهر ثلاثين ألف دينار فأكثر كان يستدينها بذمّته من التجار ثم يوفّيها لهم نقداً أو بالحوالات على إيران وغيرها فهو يصرف قبل أن يجدّ ليجد ما يصرف، ولذلك لمّا توفي رحمه اللهّ كان في ذمته للتجار ما يقارب ستة وعشرين ألف دينار وقد وفّيت بعد وفاته.

ومنها (علو همّته) فقد كانت تناطح الثريا فإنّه كان يستصغر كل أمر مهما عظم ولا يجد على نفسه من المستحيل أن يهيمن على أمور جميع الناس بمفرده ويدبّرها بتدبيره وقد كان بالفعل كذلك فلا يعتمد على أحد سواه في تسيير الشؤون العامّة والخاصّة، ولا يمكن أن ينسى الإنسان ذلك المنظر المهيب المتواضع في وقت واحد، فإنّك كلّما دخلت عليه وجدته جالساً على فراشه في غرفته الصغيرة التي ليس فيها ثمين يذكر إلاّ شخصه الكريم بين رزم من الأوراق المتناثرة تحيط به كالهالة، والدواة لا تفارقه كما لا تفارق طرف خنصره الأيمن بقعة سواد المداد الذي يزود به خاتمه المعلق في صدره ليطبعه بين لحظة وأخرى على جواب استفتاء أو حوالة أو جواب رسالة، وحكم في قضية متنازع فيها أو شهادة أو تحويل في صرف مال أو تصرّف في حق أو توكيل شخص في بلد أو شهادة اجتهاد أو نحو ذلك مما يعجز القلم عن عدّه.

وهو في كل ذلك دائب العمل ليل نهار بلا انقطاع إلاّ لصلاة أو لمقابلة شخص محترم أو لمحادثة صاحب حاجة أو لهجعة نوم كقبسة العجلان لا تتجاوز الساعتين ولذلك كان نومه غراراً في الليل والنهار فهو ينام ساعتين ليستيقظ مثلها ثم ينام ساعتين

أخرى ليستيقظ كذلك وهكذا دواليك في ليله وطرف من نهاره وكان أحب ساعات اليقظة إليه ساعات ما بعد نصف الليل إذ يخلو بنفسه إلى أعماله ومطالعاته وتأملاته من دون أن يشغله أو يضايقه أحد.

ومنها (حلمه) فقد كان عفوه عن المذنبين معه مضرب المثل حتى كاد أن يطمع الناس فيه أن يسيئوا إليه ليعفو عنهم ويغدق عليهم بمعروفه، بل كانت هذه فعلاً طريقة بعض الناس الذين لا يتحرّجون لينالوا معروفه وهو يعلم ذلك منهم ومع ذلك لا يتأخّر عن الإحسان إليهم والعفو عنهم.

ومنها (ذكاؤه وحضور ذهنه ودقّة ملاحظته) فقد كان يعرف الشخص من أول نظرة فيسبر غوره ويدرك ما تجول به خواطره، ولا ينسى الناس مهما تقادم العهد على فراقهم له، أما دقّة ملاحظته للاستفتاءات التي ترد إليه على كثرتها وازدحامها فإنها مما لا تصدّق فقد يستعمل بعض الناس التمويه في الاستفتاء ليجرّ به مغنماً أو ليحقّ الباطل ويبطل الحق أو ليتستّر به ليسرق مال الناس أو مال الله، ولكن السيد الفقيد العظيم لا تنطلي عليه تلك التمويهات فيكشفها من قرائن خفية يعجب منها الإنسان يعيّنه على ذلك حضور ذهنه وعدم نسيانه لأصغر الأمور، فينبذ مثل تلك الاستفتاءات أو يجيب عليها بجواب مجمل لا يستفيد فيه السائل لغرضه.

جاءه سؤال عن جواز بيع الوقف الآيل إلى التلف من شخص يشرف على أوقاف عامة لها أهميتها (لا أحب أن أذكر اسمه) والجواب معروف عن هذا السؤال بإجماع العلماء ولكن هذا الشخص أراد أن يتذرّع بفتوى العلماء ليجر مغانم كثيرة له ويتلاعب بالوقف فجاء إلى أحد معاصريه العظام فأفتى له بالجواز ثم جاء إلى فقيدنا العظيم فأدرك الهدف من قرينة السائل والمسؤول عنه فلم يجبه بل أرسل سرّاً إلى صاحب الفتوى ليسترجعها منه فلم يرجع السائل إلى بلده إلاّ وقد سبقه إليها من ينقذ منه

الفتوى بطريقة لا أحب ذكرها خشية أن يتعين الموضوع، ومثل هذه الأمور تحدث كثيراً ولا حصر لها ولكن قد لا يعلم بها إلا الله وهو وخاصته.

فقيد العلم والفضيلة

الشيخ جعفر آل حيدر|

(١٣٠٢ ـ ١٣٧٢هـ)

نشر هذه الكلمة في كتاب ذكرى آل حيدر.

الشيخ جعفر آل حيدر[1]

سادتي الحضور المحترمين:

إخواني أعضاء لجنة الاحتفال وآل حيدر الكرام.

أخاطبكم وأحييكم على البعد، وأنا بروحي وقلبي حاضر بينكم أشاطركم الأسى والألم في فاجعتنا المشتركة وخسارتنا الجسيمة بفقيدنا فقيد العلم والفضيلة فقيد الأخلاق العالية والأدب الرفيع، زعيم آل حيدر الشيخ المعظم، الذي كان عليه المعول في قيادة هذا البلد المحترم إلى كل ما يتمنّاه المخلصون له.

أخاطبكم على البعد، ويؤسفني أن لا أقف بنفسي خطيباً لتأبين شيخنا الجليل في حفلكم الكريم هذا، ولقد كان شعوري بالخسارة الفادحة يدعوني إلى الأخذ بخطى من المساهمة في هذا اليوم إجابة لدعوة اللجنة المحترمة إلى الحضور إلى هذا البلد العزيز (سوق الشيوخ)، بل سوق الشباب والأدب، سوق الحرية والفضيلة، لأشاطر أهلها الكرام في إحياء ذكرى فقيدنا وفقيدهم تخليداً لذكرى الفضيلة والعلم وإحياء لمآثر الشهامة والنبل، وتمجيداً لتلك الروح الطاهرة النقيّة والنفس الخيّرة القدسيّة، وإعلاناً بما كان له من فضل في تنشئة جيل صالح من أبناء السوق، وتشييداً للصرح الذي بناه في ساحة الأخلاق العالية، واعترافاً بالجميل الذي أسداه للأمّة العراقية في ميادين الجهاد

(١) الشيخ جعفر الشيخ باقر آل حيدر (١٣٠٢ – ١٣٧٢) عالم فاضل جليل القدر قام مقام والده المقدّس – بعد وفاته – بالمنصب الديني في مدينة سوق الشيوخ. راجع الشيخ آل محبوبه في ماضي النجف وحاضرها ٢: ١٩٥، محمّد علي التميمي في مشهد الإمام ٣: ١٨٣. وقد نشرت كلمة المظفر للاعتذار في كتاب (المهرجان الخالد لذكرى آل حيدر) المطبوع بالنجف.

المقدس والثورات العشائرية ضد المستعمرين.

قلت يؤسفني أن لا أقف بنفسي في هذا الحفل وقد عاقني ما يبرّر للإنسان التأخر عن القيام بالواجب، فأكتفي بتوجيه هذه الكلمة معتذراً إلى أعضاء اللجنة ورجال سوق الشيوخ الكرام، ومتمنياً لهم التوفيق والتسديد وحسن العزاء والصبر.

كما أتوجه إلى إخواني (آل حيدر) الأجلاّء ورجالات السوق الكرام فأهيب بهم إلى تخليد هذا البيت الرفيع الذي قرن مجد سوق الشيوخ بمجده وعزّه بغيره وكان وما زال الدعامة للدعوة الإسلامية الرفيعة في هذه الأنحاء، والحصن الحصين للخلق الإسلامي الرصين، بل هو الموئل للعافين والملاذ للاجئين والمنار للسارين والدليل للمتحيّرين والمرشد للضالّين أما وقد خسرنا اليوم زعيمه الأوحد شيخ مشايخ آل حيدر فإن الأمل الوطيد بنجليه الجليلين الفاضلين (الشيخ موسى والشيخ محمّد) أن يتمّا ما بناه الأوّلون، وأن يرفعا ما أسسه السلف الصالح وما أجد كلمة تستطيع أن تعبّر عما يجيش في خاطري في هذا الموقف من التقدير للأخوين الكريمين ومن الأمل المطرد بهما، وأرجو أن يقبلا مني هذه الخاطرة الخاطفة داعياً لهما بالتأييد والتسديد، والتوفيق لكل خير يرضاه ومتمنّياً عليهما أن يزدهر (سوق الشيوخ) بعهدهما في حركة دينية ثقافية يتأهلها هذا البلد وأهله الأذكياء الأوفياء وشبابه المثقّف النبلاء.

لا أرى الله تعالى الجميع بعد هذا مكروهاً.

محمد رضا المظفر

الكنز الدفين

الشيخ محمد جواد مطر الخفاجي

(١٢٩٩ ـ ١٣٧٥هـ)

نشرت هذه الكلمة التأبينية في كتاب (ذكرى علمين من آل مطر)، مطبعة النجف ١٣٧٦/ ١٩٥٨.

الشيخ محمد جواد مطر الخفاجي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زلت أنعى على نفسي وعلى بلدي ظاهرة ملتوية مشجية وهي أنّا معاشر المسلمين والنجفيّين بالأخص أمّة بكاءة نجيد الأسف حيث لا ينفع الأسف فنهب من غفوتنا مذعورين بلغاء في القول شعراء في الرثاء عندما نخسر من رجالنا الأفذاذ من كان يجب أن نرفع بضبعه[2] في حياته وأن نضعه في منزلته اللائقة به من تكريم ورعاية وحدب وعناية وكنّا وهو حي بين ظهرانينا لا نكيل له بصاعه أو(لا نشعر مجتمعنا السادر) بما له من حق الشكر والتقدير من أمّته إذا لم نجرئ فنغمز قناته غمطاً لحقّه واستهانة بكرامته وقديماً تمثّلت هذه الظاهرة الملتوية في قولي راثياً حجّتنا وشيخنا البلاغي (رحمه الله) يوم قلت:

قد كان كالبدر في ليل الشتا ومضى كالشمس معروفة بالعين والأثر

نعم وهكذا دواليك تذهب بنا الأيام الطوال ورجالنا الكرام البررة يضيعون بيننا في أيام حياتهم ضيعة البدر في ليالي الشتا فإذا ماتوا انتبهنا فإذا بنا نعج على مثل تلك (الكنتيه)[3] في حقّهم لنعد مآثرهم الماضية يوم كانوا وكانوا، وفي الحق أن نكون كنتيين فإنّا أمّة تعيش في ماضيها أكثر من حاضرها لأنّ مواجهة الحاضر المحزن ومعالجته تحتاج

---

(١) الشيخ محمّد جواد الشيخ حسن مطر الخفاجي عالم كبير مصنّف وأديب ماهر. آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها ٣: ٣٥٩.

(٢) الضبع: العضد.

(٣) الكنتي: الشيخ الكبير لأنه يحكي عن زمانه بكنت فكأنه منسوب إليه.

إلى قوّة كبيرة من الإرادة والعزم والصدق في النية والحزم وهي ليست متوفّرة عندنا مع الأسف وحاضرنا يشعرنا بالتأخّر القاتل فنهرب حينئذ إلى خيال التعويض عن خسارتنا وإلى التنفيس عما بنا بإشادة ذكرى ماضي حياة أسلافنا وأمثالنا الذين قهرهم الدهر وعركهم فماتوا مكمودين بغصتهم لنعدد لهم مآثرهم الوضاءة المشرقة بالمجد والفضيلة ويا ليت أنا استطعنا أن نعتبر من حوادثنا الماضية لمستقبل أيامنا.

وهذا فقيدنا الغالي الحجّة الجواد أحد الأمثلة الصارخة لهذه الظاهرة التي أنعاها اليوم، نقف لنحاول أن نؤدي بعض ما كان له من حق على أهل العلم والدين وقد مضى وهو على ماله من فضيلة وخلق إسلامي رفيع كان يعيش وحده مغمور الذكر منطوياً على ما به لا يعرفه الناس بل من رجال العلم إلاّ القليل وكأنّه كان الكنز الدفين بنفائسه يوم كان حياً وظهر للعيان تفتّشه أيدي النقّاد إبريزاً نقيّاً حينما اخترمته المنيّة لتطفئ نوره الوهّاج، فوا أسفاً على تلك الشعلة الوضّاءة أن تنطفي ولم يؤدّ رسالته في الحياة كما يجب أن يؤدّيها في الإرشاد وتهذيب نفوس البشر وقد كان رحمه الله في صفاء السريرة ونقاء الضمير وطهارة النفس المثل الأعلى الذي يعتزّ به أهل العلم وكان رحمه الله مثال العالم الدؤوب على التأليف والبحث منقطعاً إلى كتابه ومكتبته وهذه آثاره الضخمة تنم على جدّه المتواصل المخلص للعلم والعمل وتعرّفنا سرّ انقطاعه عن الناس واعتكافه في بيته المتواضع.

تغمده الله برحمته وعوضنا عن الخسارة الموجعة بفقده بنشر آثاره النافعة وتخليدها وألهم آله وذويه لاسيما العلاّمة الأجل الشيخ عبد المهدي وأنجاله الأفاضل أحسن العزاء وجميل الصبر إنّه خير مسئول.

٢٥ شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧٥

أخي الكاظم

الشيخ محمد كاظم آل الشيخ راضي النجفي المالكي

(١٣٢٤ ـ ١٣٧٧هـ)

كلمة المظفر في تأبينية الشيخ آل راضي المنعقدة في الجامع الهندي بالنجف عصر يوم الجمعة ١٩ شوال ١٣٧٧ الموافق ٩/ ٥/ ١٩٥٨التي ألقاها بالنيابة العلاّمة الشيخ حليم الزين.

الشيخ محمد كاظم آل الشيخ راضي النجفي المالكي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

ما تمنيت أن أكون شاعراً كما تمنيتني في هذه الفادحة المفجعة التي أخذت عليّ كل طريق تفكيري وأثارت فيّ كوامن شتى من عواطف ومشاعر فشاطت روحي بآلامها الموجعة ولفحت نفسي بلهبها المحرق وملأت قلبي بفراغ موحش أرهقه إرهاقاً وكظه على مضض من الشعور بالخسارة التي لا يعلم إلا الله مبلغها.

تمنّيت لنفسي الشعر هذا اليوم لأني واجد أن ليس كالشعر كلام يسطيع أن ينطق بالعواطف المتأجّجة ويعبّر عن المشاعر الهائجة ويدغدغ القلوب الواهة ويرقرق الدموع المزدحمة ويوقع فيه آلام النفوس المتحيرة وأنّى لي بالشعر وأنّى له بي وقد باعدته من عهد بعيد غير محبّب لي أو قاطعني وأنا غير محبّب له.

إنّ الفراغ الذي أصبحت أشكوه ليس فراغاً من اليسير أن أملأه بحشو الكلام الفارغ لقد فارقت – وبالعزيز علي أن أقول ذلك – لقد فارقت في شخص فقيدنا الكاظم – (تغمده الله برحمته) – أحد لدّاتي الذي عايشته أكثر من الأربعين حولاً معايشة الصديق المخلص لصديقه المخلص تلاقياً في الروح وتفاهماً على الحياة ومواكبة

---

(١) الشيخ محمد كاظم بن الشيخ عبد الرضا بن الشيخ مهدي بن فقيه العراق الشيخ راضي النجفي من مشاهير أعلام النجف الأشرف، تزعّم أسرته التي هي إحدى الأسر العلمية الجليلة التي تنتهي بنسبها إلى الصحابي الجليل مالك الأشتر (رضي الله عنه).

مصادر ترجمته: شعراء الغري ١٠: ١٢١، ماضي النجف ٢: ٣٠٤، معارف الرجال ٢: ٥٦، معجم رجال الفكر والأدب ٢: ٥٩١.

في الطريق ما حالت مودة ولا فتر إخلاص ولم يكدر صفو الحب طيلة هذا العمر المديد ما ينكد الصداقات ويكدرها حتى اختلاف الرأي في الأمور العامة التي من شأنها أن توهن عند الناس أسس الصداقة وتفصم عرى الأخوة ولكنا حققنا معاً قول شاعر مصر شوقي:

واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

وكم كنّا نتلمّس موضع الخلافات فإذا أرادت أن تصل إلى موضع العواطف تلمّسناها برفق وحسن نية وصدق عقيدة وخلوص قصد فنخرج ونحن أحكم صداقة وأعمق حباً وأخلص وفاءً.

إذا قلت فقدت أخي الكاظم بلا ثناء ولا ألقاب فقد اعتدت أن أبادله العواطف والحب واعتدنا معاً أن نرفع بيننا الكلفة كلفة الألقاب وكلفة المجاملة المألوفة بين الغرباء كعادة الصفوة من أصدقائنا – رحم الله الماضين منهم – الذين أخذوا على أنفسهم أن يحقّقوا الأخوّة فيما بينهم فكان أحب شيء لهم الاسم المجرد من صديقهم. وأنا اليوم لا أحب أن أنسى ما كان بيننا من تبذّل محبّب ورفع كلفة مبغضة فأتشبث بكل ما يوهمني – على عادة الواهين – بأن عزيزي محمد كاظم لايزال على قيد الحياة ولو بالاحتفاظ بهذه الذكريات الأخوية الحبيبة إلى أن يصل يومي الذي كنت انتظره – شهد الله – قبل يومه فأبطأ.

فوا حسرتاه – عليك أبا سعيد – ما كنت لأحسب أن يومك يسبقني وماكنت لأظن أن ليل همّك سيكلكل عليّ ولكنّها الأقدار التي لا مردّ لحكمها ولا مفرّ من الرضوخ لأمرها فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

وا حسرتاه – أبا سعيد – لقد كنّا نعقد عليك الآمال الجسام ونشد عليك الخناصر ونعدّك للأمور الخطيرة وكنا نستعد لك لتلافي ما أخطأت به الأيام.

لقد كنّا نرى في شخصك الكريم الرجل الذي تجتمع به همم الرجال والنقطة التي تلتقي عندها خطوط رجال الهمم والمجمع الذي تأتلف لديه نفوس الكرام فكنت في ساعة الأنس نادينا الضاحك بنكاتك ومحفلنا المتهلل بأخلاقك وسوق عكاظنا الحافل بأدبياتك وكنت في ساعة المحنة الذي ندور عليه وهدفنا الذي نحوم حوله ومستشارنا الذي نأنس إلى رأيه.

فما أشدّ فراغ قلوبنا وما أشدّ فراغ محافلنا بعدك – أبا سعيد – وما أشدّها ازدحاماً بالحسرة والآلام فإن النجف الأشرف هذه البلدة العظيمة لبانتظار مثلك رجلاً خبر الأيام بحكمته ودرس الحوادث بإخلاصه ليكون واسطة العقد بين الناس والسلك الموصل بين خرزات المجتمع وطبقاته وقد عهدت النجف الأشرف أفذاذاً في والدك العظيم والصفوة الأجلاء من زملائه فكانوا كما أراد توفيق هذا البلد في ذلك العهد طريقاً للمسلمين إلى مراجع تقليدهم وطريقاً للمراجع إلى مصالح المسلمين فتعقد عليهم الخناصر ويشار إليهم بالأنامل وحديثهم المشرف على كل لسان وأشخاصهم ملء العيون والقلوب وكانوا بعد كل ذلك هم زعماء البلد الذين يصدر عنهم الرأي وإليهم ينتهي العمل وعلى الثقة بهم تنعقد القلوب مهما تبدلت الأحوال والظروف.

وما أحوج كل بلد وكل قوم إلى فئة صالحة تجتمع إليها الآمال وتتّجه إليها القلوب لتكون مركزاً لمصالحه وموئلاً لحاجاته ومبعثاً لنشاطه وموضعاً لثقته ولتكون دماغه المفكر ولسانه الناطق ويده المبسوطة وكلمته المطاعة لاسيما مثل النجف الأشرف عاصمة الدين ومرجع الناس ومهوى أفئدة الملايين.

وليس هذا ومثله يجتمع في شخص أو فئة عفواً واعتباطاً وإنّما هي القابليات الموهوبة والنفوس الجبّارة والنيات الخالصة والقلوب الطاهرة والأخلاق الفاضلة تتوفر فتلتقي وتتجمع فتخلق من يكون أهلاً للقيادة والزعامة ومرجعاً للخاصة والعامة.

ولكن ليس هذا وحده كل ما يجب أن يحصل فإنّ وراء ذلك خلق الأمة العام فإنّه الذي يخلق من رجالها الزعماء ومن أنفس خاصتها الرشد والحكمة ومن عزائم عامّتها الخضوع والطاعة لتجتمع كلمتها على رعاية مصالحها العامة وتتلاقى همم رجالها على تحقيق تماسكها.

ولا أعتقد أن عهداً يتردّى فيه الخلق العام في العالم الإسلامي كالعهد الذي نحن فيه فإن التهم تكال فيما بيننا بلا حساب والأنانية تملأ كل أهاب والغطرسة تنخر كل لباب وبعد ذلك فالثقة المتبادلة تبدّدها الروح المتعادية وروح التعاون يفسده التهاون بالصالح العام واليأس من الصلاح والإصلاح.... ونحن نعلم من أين جاءتنا هذه البليّة الطامّة ونعلم مصدرها الذي يغذّيها بماله وعمله ودسائسه وأذنابه وليس لنا من منجاة إلاّ الرشد الاجتماعي المستمدّ من أخلاق سادتنا الأئمة الأطهار(عليهم السلام) وتعاليمهم الحكيمة وسبلهم القويمة.

إنّي انتهيت إلى موضع لم يكن من قصدي فخرجت عن الموضوع ولكن الشعور بالضرورة ولمس موضع الألم يدفع الإنسان من حيث لا يشعر إلى فضول الكلام دفعاً حيث يطغى على القلم ألمه وعلى اللسان جرح القلب العميق.

رزقنا الله تعالى الرشد والحكمة والصبر والبصيرة وألهمنا السلوان عن راحلنا الجليل بالأعلام الكرام من أسرته تغمده الله تعالى برحمته وأسكنه الفسيح من جنانه.

الشخصية الحبيبة

السيد أحمد السيد ربيع

(١٣٠٦ ـ ١٣٧٨هـ)

نشرة هذه الكلمة في كتاب ذكرى السيد أحمد السيد ربيع،
النجف، مطبعة الآداب ١٣٧٨.

السيد أحمد السيد ربيع[1]

إلى إخواني الأفاضل أعضاء لجنة الاحتفال بأربعين الفقيد الغالي فضيلة السيد أحمد ربيع إلى أعزائي أسرة الفقيد الكرام.

السلام عليكم ورحمة الله

إن شخصية الفقيد – تغمده الله تعالى برحمته – من الشخصيات الحبيبة إلى النفوس الآخذة بمجامع القلوب، لما كان يتمتّع به من أخلاق إسلامية عالية وروح مؤمنة سليمة وثقافة طبية مشهودة. مع ما كان يمتاز به من الإحسان إلى الفقراء والعطف على الضعفاء والوفاء للأصدقاء.

وقد كنت أحد الناس الذين ألهموا حبّه وملكهم الإعجاب بنفسيّته الرفيعة وإنسانيته الخيرة. فلذلك كنت أرغب أن أحظى بالمساهمة في هذه الذكرى الأليمة التي تمرّ علينا بإلقاء كلمة مناسبة مرتجلة.

ويؤسفني جداً أن يعرض لي في هذا اليوم بالذات السفر المفاجئ، فأحرم من هذا التوفيق حتى من المشاركة في الحضور.

---

(١) السيد أحمد السيد محمد حسين آل السيد ربيع (١٣٠٦ – ١٣٧٨) وجيه فاضل درس العلوم الشرعية واتجه للتخصص في طب العيون شأن آبائه واشتهر بخبرته واتصف بخصاله الحميدة وحسن سيرته وله آثار مخطوطة منها كتابه ذريعة الفنون في طب العيون وكانت له مساهمات خيّرة بخدمة المجتمع ومجلس عامر في داره بالكوفة يحضره أعلام الدين والأدب وتجري فيه مساجلات فكريّة وأدبية انعكست على الوفاء لشخصيته في رثائه فيما تضمنّه كتاب الذكرى المطبوع في النجف من الخطب والقصائد ومنها كلمة الشيخ المظفر.

فأنا – في ساعة السفر – أبعث لكم بمواساتي في هذا الفادح الجلل معتذراً عمّا حدث لي مما لابد منه من التأخّر عن هذا الواجب، وداعياً للجميع بأن يعظّم لهم الأجر والثواب بهذا المصاب المشترك وأن يلهمهم الصبر وحسن العزاء إنّه أكرم مسؤول.

الشخصيّة الفذّة

السيد علي السيد هادي بحر العلوم

(١٣١٤ ـ ١٣٨٠هـ)

الكلمة التي ألقاها بالنيابة عن المظفر العلامة الخطيب المرحوم الشيخ مسلم الجابري ثم نشرت في مجلة النجف السنة الرابعة (العدد الخاص بأربعينية السيد بحر العلوم) بتاريخ ١٣ ربيع الثاني ١٣٨٠ الموافق ١٥/ ١٠/ ١٩٦٠.

السيد علي السيد هادي بحر العلوم[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على الضراء والسراء والشكر له على ما ألهمنا من الصبر الجميل وحسن العزاء والصلاة والسلام على محمد منقذ البشر وقائدهم إلى السعادة في الدارين وعلى آله الميامين صلواتنا وتحيّاتنا الزاكيات.

إن لله في خلقه لشؤوناً.. فقد أودع الله تعالى في كل نفس هداها فمنحها بالمواهب الخيرة الطبيعية التي كان يسميها الفلاسفة في القديم بالملكات الفاضلة وقد يختص الله تعالى بعنايته أفذاذاً من بريّته فيلهمهم مواهب عالية يتفرّدون بها ويتميّزون بفضلها عن من سواهم تسمو وتعلو تلك المواهب كلما غذّاها صاحبها بالعمل والتنمية حتى تبلغ حظّها الذي أوتي لها من خالقها.

وفقيدنا الغالي فقيد جامعة النجف الأشرف فقيد الفضل والتقوى فقيد الأمة الإسلامية كان من أولئك الأفذاذ الموهوبين وكان من أبرز مظاهره وأظهرها فيما وجدت الروح القيادية التي كان يتمتّع بها وتلتمع بها شخصيته الكريمة فقد خلق

---

(١) هو السيد علي بن السيد هادي بن علي نقي بن محمّد تقي بن محمّد رضا بن محمّد مهدي بحر العلوم عالم جليل من أعلام النجف المشاهير بمنزلته العلمية والاجتماعية نذر نفسه لخدمة الناس وكان مجلسه العامر مجمع العلماء والأدباء وقضاء الحوائج لعامة الناس وله مواقف جليلة في المضمار الوطني والاجتماعي.

مصادر ترجمته: رجال بحر العلوم ١: ١٨١، مشهد الإمام ٣: ٦١، هكذا عرفتهم ١: ٣٨١، معجم رجال الفكر والأدب في النجف ١: ٢١٧.

في فطرته واثقاً بنفسه معتمداً على رأيه متصدّراً لقومه رئيساً قائداً مطاعاً حتى أصبح علماً من أعلام الأمة الإسلامية وزعيماً في قادتها الميامين في الملمّات ورئيساً في زعمائها المجاهدين عند الشدائد جاهد في سبيل خير المجموع ودافع عن الدين وأهله وكافح لإعلاء كلمة الإسلام حتى قبضه الله تعالى إليه فرجعت نفسه المطمئنّة إلى ربها راضية مرضيّة ودخلت في عبادته ودخلت في جنّته.

وكان رحمه الله إلى جنب تلك الموهبة العالية له من نزعة الخير في أوجها الرفيع ومن تقوى الله في ركنها الوثيق مع أصالة رأي وحسن تدبير فكانت هذه المجموعة من المواهب والفضائل جعلت منه قائداً راعياً يشعر في أعماق نفسه أنّه مسؤول عن رعيّته فلا يني عن إغاثة ملهوف ولا يقصر في إعانة محتاج ولا يتأخّر عن رعاية منكوب ولا يتسامح في قضاء حق صديق وجار وقريب وبالأخير كان في موضع من الناس ما جعله في موضع الحاجة لعامة الناس وخاصتهم.

وهكذا كان أبو محمد – وآسفا عليه – قريباً خيره بعيداً مناله ملتقى خطوط مختلف الطبقات وهمزة وصل بين العامة والخاصة ومجمع فضل للقريب والبعيد وموضع احترام للعدو والصديق ومستشار رأي للصغير والكبير ومجلبة ثقة للقاصي والداني.

هكذا كان أبو محمّد ملأ دستاً في جامعة النجف الأشرف كان بفقده عظيماً فراغه على رجال العلم وبنى من نفسه سدّاً أمام عادية المتطاولين على الدين فكانت خسارته ثلمة كبيرة في الإسلام.

وما أنا ببالغ بهذه الكلمة القصيرة التي فرضها منهاج الاحتفال أن أوفي خطر الفادحة التي أصابت العالم الإسلامي في هذا الظرف العصيب بفقد علم من أعلامه أو أن يقوم بتعريف هذه الشخصية الفذّة التي كانت ملء السمع والبصر. وما أحوجنا إلى مثله سنداً لنهضتنا الدينية وسلاحاً في وجوه أعداء الإسلام الذين يريدون نقض أصوله

وتحطيم قواعده أخزاهم الله وعرَى نواياهم الخبيثة الهدّامة.

ولا يسعني إلاّ أن أدعو الله تعالى بأن يقيّض من يسد فراغ فقده وأن يلهم المسلمين جميعاً الصبر وحسن العزاء ولاسيما أسرته الرفيعة وأنجاله الكرام المعوّل عليهم في أن يكونوا من أركان النهضة الإسلامية وأعلامها المجاهدين.

الطليعة في نصرة الحق

الشيخ محمد علي الأوردبادي

(١٣١٢ ـ ١٣٨٠هـ)

كلمة المظفر في تأبينية المرحوم الشيخ الأوردبادي المنعقدة بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٣٨٠ في جامع الشيخ الأنصاري بالنجف التي ألقاها بالنيابة الدكتور السيد طالب الرفاعي.

الشيخ محمد علي الأوردبادي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد المحيي المميت والصلاة والسلام على محمد سيد الانبياء وعلى آله الهداة الميامين التحيات الزاكيات.

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا

نعم هكذا كان شيخنا الحجة الكبير الأوردبادي – فقيدنا الغالي تغمده الله تعالى برحمته الواسعة – فإنّه كان من أهل العلم المجاهدين في سبيل إعلاء كلمته وكان عاقبة أمره عاقبة المؤمنين الصابرين المحتسبين.

لقد تعرّفت إليه من وقت بعيد صديقاً صدوقاً متجاوباً معي في كثير من الآلام الاجتماعية والآراء الإصلاحية التي كنا نتناجى بها في فراغنا وزاملته طويلاً في درس المرحوم أستاذنا آية الله الشيخ الأصفهاني.

وفي كل ذلك لم أعرف منه إلاّ عالماً تتجلّى فيه سجيّة المؤمن في تواضعه المؤدّب وحبّه المفرط للخير وسلوكه المحبّب المتين وأدبه الجم الموقر كما عرفته مناظراً يتحلّى بشيمة العلماء الكبار في سعة أفق تفكيره وتقديره للعلم وأهله وحرصه على الحق وإنصافه من نفسه وبعده عن الأنانية والغطرسة.

ومن سعة أفقه الفكري أن وجدناه مشاركاً في جميع المعارف الإسلامية الرائجة

---

(١) هو الشيخ محمّد علي بن الشيخ أبو القاسم بن محمد تقي الأوردبادي عالم فقيه حكيم أديب اختص بالشيخ محمّد حسين الكمباني وأوقف نفسه للدفاع عن العقيدة بقلمه ونشاطاته الفكرية وأنتج للمكتبة العربية والإسلامية آثاراً مرموقة. ترجم له معجم رجال الفكر والأدب ١: ١٠٨.

وغير الرائجة عندنا مشاركة العارف المحصّل حتى أنه في الحديث – مثلاً – كان يعد من شيوخه ومراجع إجازاته أضف إلى ذوقه الأدبي الرفيع حتى كان يعد من شعراء طبقته بالنجف الأشرف في مناسباتها فلا ترى مناسبة عامة دينية إلاّ وهو من أبطالها المجلين وكان يعد أيضاً في الطليعة من كتّاب النجف يومئذ فلا تدعو الحاجة إلى تجريد الأقلام لنصرة الحق إلاّ وهو من أوّل المجاهدين المتقدّمين وهذا من أبدع مشاركاته وسعة أفقه فلو أنّ شعره العابر جمع في ديوان لكان ديواناً حافلاً ولو أنّ مقالاته البليغة ألفت في كتاب لكانت كتاباً جامعاً للآثار.

وكان يعجبني من أخلاقه الفاضلة تواضعه غير المتكلف للصغير والكبير واحتفاؤه البالغ بالبعيد والقريب مع سجاحة خلق ولين عريكة ورقة طبع وإلى جنب ذلك كلّه كان يتجلّى فيه الإباء الرفيع والعزّة الإسلامية العالية والشمم الديني العتيد فلا يهن عند الشدائد ولا يطأطئ رأسه لذل ولا تأخذه في سبيل نصرة الحق لوم لائم ولا يتواكل عن أداء واجب.

هكذا خبرت شيخنا الأوردبادي عالماً فقيهاً وهو معدود في عين الوقت من أدباء عصره وخبرته إنساناً متواضعاً مع إنّه في القمّة من عزّة النفس والإباء وخبرته رجلاً فعالاً مع أنّه في سلوكه كالماء العذب سهولة ورقّة وخبرته عاملاً في حقل السياسات الدينية..... مع إنّه في براءته وسلامة نيّته كالطفل الصغير.

وبالأخير وجدت من أظهر مزاياه إن الخدمة العامة كانت محببة إليه حتى كأنّها هوايته الخاصّة المفضّلة فكم كان يلتذّ بالعمل لأجلها ويعاف كل اعتبارات الناس في سبيلها وينصرف بكل جوارحه إلى تفقّدها حتى أقعده المرض فأسفنا على تلك الحياة النبيلة الخيرة وعانى في سبيله ما عانى بصبر المؤمن المسلم وثبات المسلم المؤمن بعقباه أسكنه الله تعالى فسيح جنّته وعوّضه فما يعوّض السابقين المقرّبين وألهم جميع المسلمين وخاصة عارفي فضله الصبر الجميل وحسن العزاء.

آل الربيع

نشرة هذه الكلمة في كتاب ذكرى
المرحوم السيد جعفر ربيع.

آل الربيع

تنحدر في سلالة البشر مواهب موروثة من الأجداد تمتاز بها الأمم والشعوب بل القبائل والأفراد. فكم تجد في كل قبيلة من الناس خاصّية من الأخلاق أو الخلقة والملامح أو المعرفة والتخصّص بفن أو علم فتمتاز تلك القبيلة عن نظيراتها من القبائل الأخرى في تلك الخاصّية وإن اشتركت تلك القبائل في جدّ واحد قريب أو بعيد وانحدرت كلّها من بلدة واحدة. وهذه سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

وهذه السنّة الوراثية من عجائب الخلقة في الناس فعلى شدّة التباين بين كل فرد وفرد في الغرائز وملامح الخلقة والأخلاق وإن كان من أب واحد تجد ما يجمع بين أفراد القبيلة الواحدة في صفة واحدة أو صفات مشتركة قد تضيق الألفاظ عن التعبير عنها وتوصيفها وهذه الصفة أو الصفات لا شك أنها تنحدر من الأجداد إلى الأبناء محكومة بقانون الوراثة الذي لم يعرف إلاّ الآن كنهه وسرّه غير أن الشيء العجيب في هذا القانون أنه كلّما تعدّدت الطبقات في الأسرة وكثرت أفرادها تتوزّع تلك الصفة المشتركة عليهم وتنقسم بينهم فيأخذ كل واحد حصّته منها فتضعف حصّته كلّما زادت الأفراد كأنما هي – تلك الصفة – شيء لا يقبل الزيادة. وهكذا تضعف الحصص منها حتى تكاد تنعدم تلك الصفة المشتركة أو لا يكاد يشعر بها لتحلّ محلّها صفات أخرى مشتركة بين كل قبيل من الأسرة حينما تتوزّع إلى قبائل وأسر مرّة أخرى.

أقول ذلك على ذكر أسرة (آل الربيع) فإنها من الأسر العريقة بالشرف من آل بيت النبوة نشأت في العراق حينما نشأت وهي تمتهن الطبّ في العيون وراثة من جدّها

الأعلى، فكانت لها هذه الصفة الوراثية التي امتازت وعرفت بها ثم برعت فيها حتى أنك لتجد في كل فرد من أفرادها هذا الكنز الثمين من سرّ المهنة (مهنة طبّ العيون).

وكم لهم في هذا السبيل من خدمات للإنسانية ولا سيما في النجف ما يذكر لهم بالشكر والتقدير. والفقيد المرحوم (السيد جعفر)[1]هو أحد أفراد هذه الأسرة الكريمة الذي أخذ بحظ وافر من هذا الميراث فليس بالغريب أن يوضع عن الفقيد وعن أسرته الكريمة مثل هذه الذكرى عن تاريخهم الحافل بجلائل الأعمال في هذا السبيل ولهم اليد المشكورة في خدمة النجف الأشرف خاصّة بما لا يقدّر بثمن وامتازوا فيما امتازوا به من صفات موروثة الناحية الأخلاقية فإن سماحة الخُلُق ولين العريكة وحبّ الخدمة من أبرز الصفات العامّة في هذه القبيلة المحترمة وأني لفخور بتسجيل إعجابي بهم وبالفقيد المرحوم تغمده الله برحمته.

(١) هو السيد جعفر بن السيد محمد السيد محمود ربيع من أطباء العيون في النجف راجع ذكرى السيد جعفر ربيع مطبعة الغري الحديثة ١٩٥٤ .

مسك الختام

نختتم بهذه الصفحات الوجيزة ما تيسر[١] الاطلاع عليه من خطب ودراسات عن صفوة مباركة من أعلام مدينة النجف الأشرف الذين كان لكل منهم بصمات راسخة في المضمار العلمي والأدبي والفكري وممن ساهم في بناء الشخصية الإنسانية وكان له دور في تقويم مسيرة المجتمع على المستوى السلوكي والأخلاقي.

وقد أفاض الشيخ المظفر بإحياء سير وتراجم أولئك الأفذاذ تكريماً لما قدّموه لعالم الفكر من ثروة غالية لإغناء الساحة العلمية وإثارة النفوس العطاش لتنتهل من نميرهم العذب ومعالجة الأدواء المتفشّية تمهيداً للإصلاح الذي كان يمثّل الأولويّة في هموم العقل المظفري.

وسيكتشف القارئ اللبيب نسبة استقراء واقع الماضي الذي رحل وبقت نبوءة المظفر لتعيش بواقعنا الحاضر بما يتلوّى جيد الزمن به من البدع والمحن والتقاليد الجوفاء واصطفافها للتعريف بالرجال والمستوى التربوي والعطاء الذهني!

ومن الجدير بالإشارة أن شيخنا الراحل (قدس سره) كان دقيقاً في اختيار الحديث عن شخصيات نالت خلود الذكر بمواقفها الخيرة وآثارها الباقية ولما عرف عن كل منهم بخصوصية ما أسداه من عطاء مثمر وقيم عليا وما قدّمه من تضحية وتفاني في

---

(١) نعتقد يقينا بوجود دراسات وما يشابه مضامين هذا الكتاب بقلم شيخنا المظفر رحمه الله لذا نأمل ممن توفرت لديه اطلاعنا عليها لنشرها في طبعة جديدة.

سبيل المبدأ ممن صدق فيهم قول الشاعر:

من تلق منهم تلق بحراً طامياً يغذّي العقول ويشحذ الأفكارا

والمعروف أن للشيخ المظفر خطب وكلمات ألقيت في مجالس النجف تتعلّق باستذكار شخصيات نجفيّة لم نعثر عليها – كما أشير لذلك في صحف عديدة وعلى ألسن من عايشه وتتلمذ عليه بمشاركته لأكثر من مناسبة – وقد راجعت المصادر المتوفرة في استذكار بعض الشخصيات فوجدت ان الشيخ اما كانت خطبته ارتجالية ولم تدون اولم تكن حينها أجهزة تسجيل متوفرة عادة عند المعنيين بحيازتها – وهو شأن معلوم في التراث النجفي المجهول – ومن ذلك كلماته بمناسبة تابين شقيقه آية الله الشيخ محمد حسن المظفر وتأبين الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء أو مشاركته بتابين السيد محمد علي بحر العلوم وكذلك بأربعينية السيد عيسى كمال الدين ومشاركات أخرى..

على أن الأمل وطيد بإعادة الثقة لنفوسنا والنهوض بالحد اللائق للنجف الأعلى بما تستحقّه من سمعة وكيان رصين ببركة التشرّف بالجوار العلوي المقدس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد جواد الطريحي

المحتويات

تقدمة	٥
بين يدي الكتاب	٧
سيرة المظفر بقلمه	١٩
المقدمة	٢١
مؤسس جامعة النجف الشيخ الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ)	٢٩
العالم الإلهي المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي (١١٢٨- ١٢٠٩)	٥٣
شاعر الأزرية محمد كاظم الأزري(١١٤٣-١٢١١هـ)	٧٩
مخمّس الأزرية الشيخ جابر الكاظمي الربيعي(١١٢٢-١٣١٣هـ)	٩٣
شيخ الفقهاء الشيخ محمّد حسن النجفي صاحب الجواهر (١١٩٢-١٢٦٦هـ)	٩٩
عقوق النجف للشيخ البلاغي...	١٣١
ميزان الرجال الشيخ جواد الشيخ علي آل صاحب الجواهر...	١٣٥
فقيدنا الراحل وفكرة الإصلاح السيد موسى السيد علي الحسيني...	١٤٣
الأستاذ العظيم المتألّه العارف الشيخ محمد حسين الأصفهاني الكمباني...	١٥١
تقديم المظفر لكتاب منظومة تحفة الحكيم	١٦٥
بطل الجهاد والعمل الشيخ عبد الحسين مطر الخفاجي...	١٧١
أيّها العظيم السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني (١٢٨٤-١٣٦٥هـ)	١٧٧
الزعيم الموهوب السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني...	١٨٣
فقيد العلم والفضيلة الشيخ جعفر آل حيدر (١٣٠٢-١٣٧٢هـ)	١٩١
الكنز الدفين الشيخ محمد جواد مطر الخفاجي (١٢٩٩-١٣٧٥هـ)	١٩٥
أخي الكاظم الشيخ محمد كاظم آل الشيخ راضي النجفي المالكي...	١٩٩
الشخصية الحبيبة السيد أحمد السيد ربيع (١٣٠٦-١٣٧٨هـ)	٢٠٥
الشخصيّة الفذّة السيد علي السيد هادي بحر العلوم (١٣١٤-١٣٨٠هـ)	٢٠٩
الطليعة في نصرة الحق الشيخ محمد علي الأوردبادي (١٣١٢-١٣٨٠هـ)	٢١٥